عبد الكريم الخطيب

التعريف بالإسلام

في مواجهة العصر الحديث وتحدياته

دار المعرفة للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
١٩٧٥ م ١٣٩٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلامُ على سيدنا محمد، خاتم النبيين، الرحمة المُهْدَاة، والحجة البالغة، والنور المبين، وعلى آله وصحابته، ومن تبعهم بإحسان..

« وكذلكَ أوحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أمرِنا .. ما كُنْتَ تَدْرِى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعَلْناه نوراً نَهدِى بِهِ مَنْ نشاءُ مِنْ عبادِنا ، وإنك لتَهدِى إلى صراطٍ مستقيم ، صِراطِ اللهِ الذى له ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ .. ألا إلى الله تَصيرُ الأمور » . [الشورى آيتا ٥٢ ، ٥٣]

(قرآن كريم)

« مثَلُ ما بعثنى به الله عزّ وجل من الهُدى والعلم ، كمثل الغيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبِلَت الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير .. وكان منها أجادِبُ أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقَوا ورعَوا .. وأصاب طائفةً منها أخرى ، إنما هى قِيعان لا تُمسك ماء ، ولا تُنْبِت كلأً » .

« فذلك مثَلُ من فقُه فى دين الله ونفعه بما بعثنى الله به ، فعلِمَ وَعلَّمَ ، ومثَلُ مَن لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أُرسلت به » .

(حديث شريف)

الإهـــداء

إلى السيد الجليل . . الأستاذ المهندس . . **أحمد عبده الشرباصي** :

إن أرضى شىء لقلبي ، وأهنأه إلى نفسى لقاء هذا الجهد الذى بذلتُ فى هذا الكتاب هو أن تقبله ، هديةً متواضعة ، أراها دون بعض علمك ، وفضلك ، ومروءتك !

وشفيعى لهذا هو أن الهدية على قدر مُهديها ، فليس يَضيرك أن تحمل إليك علما هو دون ما تعلم ! فما زال البحر المحيط يتقبل قطرات المطر ، ويفسح لها بين عُبابه مكاناً ، ويمزج ماءها بمائه . . فضلا وكرماً !

والحق أنك أولى الناس عندى بأن يُهدى إليه هذا العمل ، الذى هو دعوة إلى الله ، وشرح لرسالة الإسلام ، على ما وسع الجهدُ ، وأسعفت الحال !

ذلك أننى كنت أرُودُ هذا البحث فى خاطرى منذ سنين ، وكنت فى كل مرة أستجمع العزم فيها لتصويره فى كتاب — يصرفنى عنه ما أرى من حال المسلمين ، وجفايتهم على الإسلام ، بما شوهوا من حقائقه ، وبما أفسدوا من معالمه ، حتى لقد كان الذى يريد أن يتعرف إلى الإسلام من النظر إلى أهله ، وما نضح عليهم منه — وهو لا بد ناظر إلى أهله هذه النظرة قبل كل شىء — لا يرى إلا ما يسوء النفس ، ويُقْذِى العين ، فيقتل ذلك فى نفسى نوازع الرغبة فى الحديث عن الإسلام . . إذ ماذا يغنى الحديث عنه ، ولسان الحال أبلغ من كل ما يقال ! ؟

ولكن سرعان ما أعود إلى نفسى فأجدها تحتفظ فى أطوائها بكثير من الوجوه المشرقة الكريمة لأبناء الإسلام ، الذين يُسفر بهم وجه هذا الدين ، وتتجلى

فيهم آياته ومعجزاته ، فأقول : إن الإسلام بخير فى أهله ، وإن دعوته ستظل قائمة عاملة ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

وصدقنى — أيها المسلم البار — أنك كنت أول من ألتقى من تلك الوجوه المتخيّرة من وجوه المسلمين التى أرى فيها ما أودع الإسلام فى المصطفين من أهله، من قوة إيمان ، وعظمة خلق ، واستقامة سلوك ، وشجاعة قلب ، وحصافة عقل .. وأن كثيراً من هذه الوجوه كانت تظهر ثم تختفى ، على حين يظل وجهك بمكانه المكين من نفسى ، لا يتحول ولا يغيم ، بل كان كلما طالت الصحبة معه ازداد إشراقاً ، ووضاءة ، وألقاً !

وصدقنى أيضاً — أيها السيد النبيل — أن هذا الوجه الكريم من وجوه الإسلام الذى طالعته فيك ، قد كان الزاد الطيب الذى تزوّدت به خلال الرحلة الطويلة مع هذا الكتاب ، و كان الهاتفَ الصادق الذى يهتف بى إلى السير قُدُماً ؛ كلما وهن العزم ، وفترت النية .

فإذا أنا قدمت إليك هذا الكتاب ، فلأنك شاركتَ فيه بظهر الغيب ، فكنتَ المرجع الذى أطالع فى شخصه ما أودعت فى هذا البحث من حقائق الإسلام .

فتقبل هذا الكتاب فى كلمات — إن تكن قد أصابت مواقع الفصل من حقائق هذا الدين القويم — وهيهات — فإنك أنت قد بلّغت هذه الحقائق بأفعالك وجلوتها بسلوكك ، وطلعت بها على الناس رسالة كريمة ، تحمل الخير ، وتهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم . . فكنتَ على جلال صمتك كتاباً بليغة شارحة لقضايا الإسلام ، معلنة عن حقائقه ، داعية إليه بأفصح لسان ، وأبلغ بيان !

ثبّت الله أقدامك على الحق ، وجعلك لأهله مثابة وأمناً ، وبارك عليك فى دينك ومروءتك . وأسبغ عليك نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة .. إنه سميع مجيب ؟

عبد الكريم الخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

التعريف بالإسلام ، والدعوة إليه ، والتبشير بشريعته وتعاليمه فى غير المجتمعات الإسلامية — أمر من أمر هذا الدين ، ودعوة من دعواته لأتباعه ، حيث يقول سبحانه وتعالى ، مخاطبا الأمة الإسلامية فى أفرادها وجماعاتها : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تأمرونَ بالمعروفِ ، وتَنهَوْن عن المنكر ، وتؤمنون بالله[1] » والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله ، لا يتحقق أى منها على الوجه الذى تدعو إليه الآية الكريمة ؛ إلا إذا تجاوز الإنسانَ فى خاصة نفسه ، إلى من حوله من أهل وعشير .. ثُم اتسع شيئاً فشيئا ، حتى وسع الإنسانية كلها ، فى أزمنتها وأمكنتها !

فالمسلم مطالب حيث كان — بحكم شريعته — أن يحمل إلى الناس هذا الخير الذى وجده فى دينه ، واختبره منه ، وألا يستأثر به ، ويحتجزه فى نفسه ، وبين قومه .. فما لهذا جاءت دعوة الإسلام ، ولا بهذا كانت دعوة الرسول إلى هذا الدين .. فمنذ اليوم الأول للإسلام ، وآيات القرآن الكريم تتنزل على النبى ليحملها إلى الناس جميعاً ، وليؤذّن بها فى كل مجتمع بشرى .. « يأيها الناسُ إنى رسولُ الله إليكم جميعاً[2] » .. « وأنزلنا إليك الذِّكرَ لِتُبيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم .. ولعلهم يتفكرون »[3] .

(١) سورة آل عمران: ١١٠

(٢) سورة الأعراف ١٥٨ .

(٣) سورة النحل : ٤٤ .

ومنذ اليوم الأول للإسلام وأبوابه مفتحة للناس جميعاً ، يأتون إليه من كل فجّ ، ويدخلون فيه من كل جنس وقَبيل... حتى لقد كان من حكمة الحكيم العليم أن يكون أولَ الداخلين فى الإسلام رجلان : حرّ ، وعبد ،هما : أبو بكر وبلال.. وحتى لكأنّ الإسلام إنما يريد بهذا التدبير الخفىّ أن يهدم أول وأقوى حاجز بين الناس والناس . . بين العبيد والأحرار . . !

ولا أدَعُك تجاوز هذا الموقف دون أن تستصحب معك منه شاهداً على سماحة الإسلام ، وعلى شمول الخير الذى ينطوى عليه ! فهكذا يكون الخير المرسَل مِن السماء ، وعلى هذا اليسر والشمول تجىء رحمة ربك التى وسعت كل شىء !

ولا أدَعُك أيضا تزايل هذا الموقف دون أن تذكر ما فعل أهل الكتاب بكتبهم التى حملها إليهم رسل الله . . !

فاليهود قد جعلوا شريعة موسى فيهم وحدهم، خالصة لهم من دون الناس.. ضناً بهذا الخير الذى جاء به موسى من عند الله أن ينال منه أحد سواهم شيئا ينتفع به ، مع أن هذا الخير إنما يزيد على الإنفاق منه ، ويزداد وضاءة وألقا كلما اتداحت الدائرة التى يشرق عليها ، وينفذ بشعاعه فيها . .ولكنها كَزَازَة النفس ، وكنُود الطبع ، وما غلب على هذه الجماعة من أثَرَة قاتلة ، وشُحّ لئيم . . هى التى جعلتهم يذهبون بشريعة موسى هذا المذهب ، فيعزلونها تلك العزلة المطبقة . . حتى كادت تختنق وتذهب بَدَداً . . وحاشالله أن تجىء شرائع السماء آخذة هذا الاتجاه المعكوس، فتدير للناس ظهرها ، وتصكّ فى وجوههم وجهها . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وإذ أخَذَ اللهُ ميثاقَ الذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّه للناس ولا تكتمُونه » .

أما أتباع المسيح فقد أسلموا كتابهم إلى من يتولى عنهم النظر فيه ، والكشف عن أسراره . . ومنذ صار أمره إلى جماعة من الناس دخل فى مجال الأهواء ، ووقع

تحت مؤثرات الحياة ، فوقع فيه الكثير من التبديل والتحريف ، الأمر الذى جعل أتباعه اليوم ينكرون وجهه ، وينكرون للأديان كلها . وكأنهم إنما ينتقمون لأنفسهم ، وللأجيال السابقة لهم ، من انخداعهم هذا الانخداع الطويل ، بما زيّف عليهم المزيفون ، فى أمرٍ هو مِلاك الحياة الإنسانية ، وممسك وجودها .

وإذا كان التعريف بالإسلام فى غير مواطن الإسلام ، هو فى كل زمان ومكان أمر من أمر الإسلام — كما قلنا — ثم هو عمل إنسانى من أعمال الإسلام ، التى لا تنشد إلا خير الإنسان — كل إنسان — ولا تتوخى غير نفع الناس — كل الناس — بلا حدود ولا قيود !

نقول : إذ كان التعريف بالإسلام هو على تلك الصفة ، وعلى هذا الإلزام الذى لا ينفك أبداً . . فى أى زمان وأى مكان ـ فإن هذا التعريف هو اليوم أشد لزوماً ، وأكثر داعية ، لما أصاب كثيراً من الناس فى هذا العصر من خيبة أمل فى معتقداتهم ، حين تكشفت لهم حقائقها فى ضوء العلم الحديث ، وعلى محكّ النظر العقلى ، الذى يجعل الشكَّ طريقَهُ إلى اليقين . . ! وحيث ظهر لهم من هذا ما دخل على تلك المعتقدات من زيف ، وما حُسِبَ عليها من مقولات الزور والبهتان .

والإسلام هو الدِّين الذى لم يُمتحن هذا الامتحان ، ولم يجرّب تلك التجربة عند كثير من تلك الأمم والشعوب ، التى آمنت بالعلم وكفرت بالدِّين . . ذلك أن الإسلام لم يُعرف فى هذه المواطن ، ولم يُطِلّ على الناس هناك بوجهه ، ولم يطالعهم بحقائقه ، وإنما الذى عُرِف من أمر الإسلام هناك هو شائعات وظنون ، أو ما يشبه الشائعات والظنون .. تناقلها الرواة والإخباريون ، فى غير تمحيص ، وبلا مبالاة . . وهل يبالى الناس بما يتناقلون من الشائعات والحكايات فيما لا يعنيهم ، ولا يتصل بحياتهم ؟ . . بل ربما كان ما يُروى عن الإسلام فى غير مواطنه إنما كان على سبيل السخرية والاستهزاء ، حيث تقلّب وجوه الحقائق ، وتُشَوَّه معالمها .

أما ما كان ينقله العلماء والدراسون عن الإسلام من المستشرقين فقد وقع فيه خلط كثير ، عن قصد حيناً ، وعن غير قصد حيناً آخر . . فإن هؤلاء المستشرقين جميعاً — مَن كان منهم سيء النية أو حسنها — ليس عندهم المَلَكَة التي يقدرون بها على تذوق اللغة العربية ، وإدراك الأسرار الدقيقة التي أودعتها الشريعة الإسلامية في هذه اللغة التي جاءت بها . . ومن هنا كان فهمهم لأحكام الشريعة فهماً لا رُوح فيه ، بل هو صور وأشكال ، وأرقام حسابية ، ومعادلات رياضية ، لا ينفذ إلى الضمائر والمشاعر شيء منها !

* * *

وفي مواطن الإسلام ؟

أليس الإسلام في حاجة إلى التعريف به ، والتبشير بحقائقه وتعاليمه بين أهله ، بل وبين خاصة المتخصصين من أهله ؟

فهل فيما ينظر الناس في المسلمين اليوم شيء من أمارات الإسلام ، وما تحمل شريعته من حقائق ، ومبادىء ، وتعاليم ؟

نعم . . في المسلمين أمارات كثيرة ، وملامح دالة واضحة . . ولكنها شيء وحقائق الإسلام ومبادؤه وتعاليمه شيء آخر . ؛ وإن هذه الملامح وتلك الأمارات ، هي في الواقع تُهَم ظالمة ، يَرمي بها المسلمون في وجه الإسلام ، وطعنات نافذة ، تصيب من مَقاتله ، ما لم يصبه به أعداؤه ، الذين يعرفهم ، ويحذر كيدهم !

ذلك أن المسلمين اليوم في عزلة عن دينهم ، حيث استغلقت مفاهيمه عليهم ، وتقطّعت الأسباب بينهم وبينه ، وعُمِّيت عليهم السبل إلى كل ما فيه من حق وخير !

بل وأكثر من هذا ؛ فإن كثيراً منّا — نحن المسلمين — لا يقفون عند هذا الموقف السلبي من الإسلام ، وإنما هم حرب عليه ، يُحسَبون في المسلمين ، ويَتَسمَّون بأسماء المسلمين ، وليس للإسلام في عقولهم ولا في قلوبهم مكان ، فإن يكن فهو

مكان الاستخفاف والاستهزاء، بل وما هو أنكى من الاستخفاف والاستهزاء، من التدمير والهدم لمبادئه، والعبث والإفساد بمقدساته .. وما هذه الألسنة التى تتراطن بالأدب الحديث، وتستحدث للغة مفاهيم جديدة باسم التجديد، وما هذه الأقلام التى تتناول بالتشويه وجه اللغة — إلا كيد جديد يكاد به للإسلام، فى أوطان الإسلام، وذلك بإخراس اللسان الذى ينطق بهذا الدين، وبمحو اللغة التى تحمل شريعة الإسلام، وتكشف حقائقه! فهذا باب من أبواب الكيد الخفية الكثيرة المتربصة بالإسلام.

إن الإسلام يلقى اليوم داخل أوطانه، وعلى أيدى من ينتسبون إليه، من كيد له، ومكر به، مالا يلقاه فى الأوطان التى تدين بالإسلام، ومالا يصيبه من أيدى أعدائه الذين يتربصون به . . ! !

فكيف يستقيم هذا مع ما يطالَبُ به المسلمون من الدعوة لدينهم، والتعريف به، فى أوطانٍ غير أوطانه؟ وفى أهل غير أهله؟ وهم — أعنى المسلمين — لا يعرفون حقائق هذا الدين حق معرفتها، وإن هم عرفوها فإنهم لا يستقيمون عليها، ولا ينتفعون بها، ولا يظهر لها أثر طيب فى أفرادهم وجماعاتهم على السواء .. فكيف يساغ مع هذا أن يكونوا دعاة للإسلام، ومبشرين بتعاليمه . . ؟! وماذا يأخذ الناس من هذا الدِّين إذا هم نظروا إليه من خلال المسلمين المتدينين به؟ وهم لابد ناظرون هذه النظرة إلى المتدينين بالدين، قبل أن ينظروا إلى الدين نفسه!

أتُراهم يعطون هذا الدين شيئاً من اهتمامهم، وينفقون فيه بعضاً من وقتهم، إذا هم نظروا فى وجوه المسلمين . . فرداً فرداً، أو جماعة جماعة؟

ورحم الله البوصيرى إذ يقول:

أمرتُكَ الخيرَ لكن ما ائتمرتُ به ولا استقمتُ، فما قولى لك استقمِ؟

ولقد نعى الله على أولئك الذين يأمرون بالبرّ، وهم على طريق غير طريق الأبرار. فقال سبحانه: «أتأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتَنسَوْنَ أنفُسَكُمْ، وأنتم تتلُونَ الكِتابَ.

أفلا تعقلون ؟ »[١] ، كما أنكر سبحانه على أهل الإيمان أن يجرى فعلهم على خلاف قولهم ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، لِمَ تقولون مالا تفعلون ؟ كبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تَفْعَلون »[٢] !

* * *

والعجب الذى يملأ النفس حسرة وكمدا ، هو أن نزهد فيما فى ديننا من تعاليم رفيعة ، ومُثل عالية ، تتضاءل أمامها أرفع ما وصلت إليه المدنية الحديثة من تصور وفهم ، لمثُل الحق والجمال ، فى أرقى الأمم وأسبقها يداً ، وأرسخها قدماً فى الحضارة والرقىّ ! !

العجب أن نزهد فى هذا الخير الكثير الذى بين أيدينا من أدب الإسلام وتعاليمه ، ثم نَمُدّ أبصارنا ، ونفتح قلوبنا وعقولنا إلى ما عند أمم الغرب من فنون الحياة ، وأدب السلوك ؟ ونسأل : ما سبب هذا الاستخفاف بمعطيات الإسلام ، وهذا الفتور فى الإقبال عليه ، وهذا الاستحياء من التمسك بآدابه ، وهذا الخجل من التمسح به ، والأخذ بهديه ؟

فلا نجد لهذا جواباً شافياً ، ولا حجة قائمة !

والحق أن كثيراً من المسلمينَ يَطوون قلوبهم على احترام الدين والتمسك به ، ولكنهم حين يضمهم مجتمع من تلك المجتمعات التى يغشاها عِلْيةَ القوم ، وكبار الناس — يتصاغر فى أنفسهم هذا الشعور ، ويضمر فى كيانهم هذا الإحساس ، ويبدو لهم أن من الكياسة ، والفطنة ؛ أن يداروا ما بأنفسهم من مشاعر طيبة لدينهم ، حتى لا يقال عنهم إنهم متدينون ، وحتى لكأن الدين عار يُزرى بأهله ، وحِطّة تُنزل بقدْر من يُضبط متلبساً بها ! !

هذا أمر واضح لا ينفع فيه الإنكار . . فحيث تكون الحياة ، وحيث تكون النعمة والوجاهة ينكمش الدين ، ويتعرّى منه أهله ، خوفاً من أن يقال

---

(١) سورة البقرة : ٤٤ (٢) سورة الصف : ٢ — ٣

إنهم أهل دين ! ثم يمتد هذا إلى القول بأنهم متأخرون ، جامدون . . أموات فى أجساد أحياء !

فالفِرار من الدّين — فى هذا التقدير — هو الذى يحمى الإنسانَ من هذا الوضع المشين بين الناس !

فما مردُّ هذا وما تأويله ؟ ؟

أفى الإسلام ما يعوّق سير الحياة ، ويسد الطريق على الآخذين بأسباب الوجاهة والجاه ؟

أفى الإسلام دعوة إلى منكر ؟ أوأمر بما يجرح المروءة ويَخدِش الحياء ؟

أفى الإسلام ما يحمل المتدينين به على أن يكونوا أمساخاً فى الحياة ، ودمَى متحركة . . يُستهزأ بها ويُسخَر منها ؟

إنه لظلم عظيم أن يفُهم الإسلام هذا الفهم ، وإنه لخيانة مهلكة لأنفسنا أن نُنزل الإسلام فى حياتنا هذه المنزلة الدُّون ، وألا نتوّج به رؤوسنا ، وألا نتخذه أوْسمة نحلّى بها صدورنا . . فى كل مجتمع عظيم ، وفى كل موقف كريم من مواقف الحياة !

إن الدين بأهله . !

ولقد صَغُرت نفوسنا ، وضمرت ذاتيتنا ، فصغُر فيها كل معنى كريم ، وضَمَر فيها كل مثَل فاضل !

إن النفوس المريضة تنقلب فيها حقائق الأشياء كما تنقلب صور المرئيات فى العين المريضة ، وكما تنحرف مذاقات الطعوم فى الفم السقيم .

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريض يجدْ مُرًّا به الماء الزُّلالا

والواقع أننا قد أصبنا فى القرون الأخيرة بعلل وأوجاع ، أفسدت حياتنا ،

وأنزلتنا منازل الهُون فى دنيا الناس . . فاستعمرت أوطاننا بالدُّخلاء ، وصار إلى غيرنا تدبير شئوننا ، وتوجيه حياتنا . . وكان من خِداع المستعمر ومكره بالإسلام وكيده له ، أن صور لنا ديننا فى صورة العدوّ الذى دخل علينا بهذا الضعف والهوان ، وكأنه هو السبب فى هذا التخلّف الذى صرنا إليه ! وأننا لو لم نكن ندين بهذا الدِّين لمَاَ وجد الضعف والتخلف سبيلا إلينا ، ولا كان للاستعمار أن يحل بأوطاننا . . هكذا ألقى إلينا الاستعمار بهذا الضلال المسموم ، فتلقّاه كثير منا بالقبول والتسليم !

ولقد عمل الاستعمار جاهداً على أن يمكّن لهذا الضلال من نفوسنا . . بما أذاع بأساليبه وصنائعه من مفتريات على الإسلام ، وتهجم عليه ، وازدراء لأهله ، واستخفاف بمكانتهم فى الحياة ، وحرمانهم من كل مكان كريم فيها . . بل وأكثر من هذا . فقد أرانا صورة عملية تعيش بيننا . . فهو إذ وضع يده على أوطان الإسلام كلها ترك بلاداً غير مسلمة ــ كالحبشة مثلا ــ دون أن يمدّ إليها يداً ، ليرِىَ المسلمين من ذلك أن دينهم هو الذى جعل أوطانهم — دون أوطان سائر الأديان — على هذه الحالة من الضعف : وأن هذا الدين هو الذى أمسك بهم عن السير فى ركب الحياة ، وأن الاستعمار قد جاء ليأخذ بيد هذه الجماعات المتخلفة عن الركب ! !

ذلك أن المستعمر كان يعلم من أمر ديننا أكثر مما نعلم ، ويدرك من القوى الكامنة فيه مالم نكن ندرك ، وأنه لكى يمكّن لنفسه فى أوطاننا كان عليه أن يقضى أولا على أقوى قوة يمكن أن تصحو فينا يوماً — وهو الإسلام . . ويومها ؛ لا يجد له مكاناً بيننا ، ولا مدخلا إلى أوطاننا !

✿ ✿ ✿

ونحن اليوم فى مطلع ميلاد جديد . .

فأوطان الإسلام تُفْلت من يد المستعمر . . وطناً . . وطناً .

لقد حطمنا قيود الاستعمار !

وأزحنا الضغط عن كثير من مرافقنا المادية . . وكدنا نلحق بالغرب فى كثير منها .

ولكن . . لازال موقفنا من الدِّين كما كان من قبل . . نهرب منه . ونعزل أنفسنا عن الاختلاط به ، خوفاً من أن يعوِّق خطونا ، أو يوقف انطلاقنا .

فلَمْ نحاول أن نجد فى ديننا قوة دافعة نستند إليها ، ومجداً عظيماً نحرص عليه !

ولازالت نظرتنا إلى الدين وإلى المتدينين نظرة باردة فاترة ، لاتعنى شيئاً ، ولا توحى بشىء ! . . إننا مازلنا من أمر ديننا تحت سلطان هذه المشاعر المريضة المخيفة ، التى أدخلها الاستعمار فى كياننا ، ودسَّها فى ضمائرنا ، بما كاد للإسلام والمسلمين . . بالقول والعمل . . جميعاً .

وماذا فى الدين ؟ ولم نخاف صحبته فى انطلاقنا مع الحياة ؟ وهل الدين شىء والحياة الكريمة الرفيعة شىء آخر ؟

وإذا كانت بعض الأديان — بما دخل عليها من تبديل وتحريف — قد فضحها العلم الحديث ، وانكشف لأصحابها ماتلبس بها من مفتريات وأباطيل — فهل وقع الإسلام تحت هذا الحكم الذى أصدره العلم الحديث على هذه الأديان ؟ وهل امتحن الإسلام ومُحِّصت حقائقه على ضوء العلم ، وفى مخابير الحياة ، ثم ظهر فيه مالا يرضاه العلم ، ومالا تقبله الحياة ؟

إن الإسلام — وثوقاً منه بما ضُمّ عليه من حق وخير — يرحب كل الترحيب بالعلم الحديث ، ويسعد السعادةَ كلَّها بلقاء العقول الناضجة المستنيرة له ، بكل ماتملك من قوى التمحيص والفحص ، وبكل ماوضعه العلم بين يديها من وسائل التمييز بين الحق والباطل ، والنافع والضار ، والسليم والسقيم . . فتلك هى فرصة الإسلام التى يظهر فيها مَعدِنه ، وتتجلى فيها حقائقه ، وتشرق شموسه !

إن هذا العصر — عصر العلم ، والشك . . عصر الامتحان لكل شىء . . عصر

الإلحاد وغربلة الأديان — هو عصر الإسلام ، وهو اللسان المجدِّد لدعوته ، حيث يجلِّى حقائق الإسلام ، ويكشف الخير المخبوء للناس فيه !

ولا يريد الإسلام ، ولا نريد له أن يتلقى الناس دعوته قضية مسلَّمة ، بل إن الذى يريده ونريده له ، هو أن يضع العلماء والمفكرون هذه الدعوة موضوع الشك، أو الإنكار — إن شاءوا — ثم ليعاملوها معاملة القضايا التى ينكرونها أو يتشككون فيها ، فيسلطوا عليها نظراتهم ، فاحصةً باحثة ، ثم ليقلبوها فى أيديهم ظهراً لبطن ، وبطنا لظهر ، وليمتحنوها بكل مافتح به عليهم العلم ، من أساليب الامتحان . . ثم ليحكموا عليها بعد هذا، بما يظهرهم على محكّ الفحص والاختبار . .

وإن الإسلام ليتقبل هذا الحكم فى غبطة ورضىً ؛ لأنه لن يكون إلا شهادة بينة الحجة ، ساطعة البرهان على أنه الدين الحق ، الذى فيه خير الإنسانية وأمنها وإسعادها .

* * *

وليس البحث فى حقائق الإسلام ، والكشف عن معدنه بالأمر الذى يحتاج إلى مجامع علمية ، أو دراسات أكاديمية ، فذلك إن يكن مما يُسعد الإسلام أن يقع له ، فإنه ممكن أن يتحقق فى محيط الفرد كما يتحقق فى محيط الجماعة ، وأن يتاح لأوساط الناس كما يتاح للعلماء والحكماء والفلاسفة .. فكل إنسان يستطيع أن يتعرف إلى الإسلام ، وأن يكشف عن وجه الحق والخير فيه ؛ بلمسة خفيفة ، أو نظرة خاطفة ! !

وكيف يكون الطريق إلى الحق والخير ملتوياً مظلماً ؟ ! إنه ليس بخير أبداً ، ولا بحق مطلقاً ما كانت السبل إليه مُعمَّاة ، والمنافذ مغلقة ، أو كانت مسالكه وعرة موحشة ، لايهتدى السالكون فيها إلا بدليل ، ولا يقطعونها إلا بمن يحمل ويعين !

أتريد أن ترى لمسة خفيفة من تلك اللمسات التى تتفجر بها عيون عذبة صافية من ينابيع الإسلام الثرّة ، التى تثلج الصدور ، وتحيي القلوب ؟

إذن فهاك نفحة من نفحات الإسلام ؛ تملأ أجواء الدنيا كلها أرَجاً وطيباً !

لندعْ الأصول العامة للإسلام ، ولنترك ماقرر من مبادىء المساواة المطلقة بين الناس ، وما شرع من صيانة الدماء والأموال والأعراض !

فالمبادىء العامة فى الأخلاقيات والمعاملات قلّما تخلو منها ديانة من الديانات ، أودعوة من دعوات المصلحين والراشدين . . ولكن الخطوط الرفيعة والفوارق الدقيقة فيما بين أمر وأمر ، وعمل وعمل ، لايلتفت إليها إلا أصحاب البصائر ، النافذة ، وقلما يمسك بها إلا ذوو المهارة والحذق !

ثم انظر . . . !

إن القياس الصحيح فى هذا العصر للرقىّ الإنسانى ، هو فيما يبلغه الإنسان من دقة الحسّ ، ورفاهة الوجدان ، وذكاء العقل . . وقد ارتفع قدر الأمم الغربية فى نظرنا لما بلغته مجتمعاتها من منزلة عالية فى هذه الصفات ، وكان غاية طلاب الكمال عندنا أن ينالوا حظاً من هذه الصفات ، ليجدوا فى أنفسهم طمأنينة الرضا ، وليشعروا أنهم شىء ، أو على شىء . . فى عالم التمدن والرقىِّ !

وفى أدب الإسلام مناهج دقيقة محكمة لمراسم الذوق السليم ، والحس المرهف ، والوجدان اليقظ .

فلقد تحول الإسلام بالعرب من جاهلية غليظة جافة ، وبداوة صلْدة جافية إلى حياة مخصبة بأرقّ العواطف ، وأنبل الأحاسيس . . حتى لكأن رجل الجاهلية الذى عاش فيها عمراً طويلا ؛ قد أعاد الإسلام بناءه ، وخلَقَهُ خلقاً جديداً . . فى شهور أو سنوات عاشها فى الإسلام . !

ما ترك الإسلام شيئاً يتجمل به الإنسان ، ويبلغ به مراتب الكمال فى عقله وخُلقه — إلا كان ذلك من صميم دعوته ، ونهج تعاليمه .

« المؤمن كيِّسٌ فَطِن » ! ضعفه العجلونى [illegible] كشف الخفاء

هذه صفة المؤمن فى قول الرسول الكريم ، وتلك أدلّ وجوه التعرف إليه . فمن فارقته الكياسة ، أو تخلت عنه الفطنة فقد خفّت موازينه فى الإسلام ، وفَقَد الخصائص الإنسانية الرفيعة ، التى ينشئها الإيمان فى قلوب المؤمنين .. فليس يغنى عن المسلم أنه مسلم إلا إذا ارتفع به إسلامه إلى أن يكون كيِّساً فَطِناً .

والكياسة التى يعنيها الإسلام ليست شيئاً من هذه « الدبلوماسية » التى يتلقاها محترفو السياسة ، ويلقَّنونها تلقيناً ، ليمثلوا بها دورهم الذى أعِدُّوا له ، كما يمثل الحيوان بعض الحركات التى يتعلمها فى « سيرك » .. دون أن ترتبط بوعى ، أو تصدر عن شعور !

لا ، ليست هذه الكياسة مما عناه الإسلام ، ووصف المؤمنين به ، ولكنها كياسة نفس متحررة ، وحسٍّ مرهف ، ووجدان سليم ، وضمير يقظ ، تجرح حياءه الكلمة النابية ، وتَصُكّ سمعه اللفظة الخشنة الجافية .

ومن هنا كان : « الحياء شعبة الإيمان » . كما ينطق بذلك نبىٌّ الإسلام ، وكما يقول : « الحياء خير كله » و « الحياء لا يأتى إلا بخير » و « الحياء نظام الإيمان » .

والحياء الذى عناه الرسول الكريم هنا ، هو حياء النفوس العزيزة الكريمة ، حياء الأدب الرفيع ، والإدراك السليم للفروق الدقيقة بين الخير والشر ، والحَسَن والقبيح . وليس هذا الحياء الذى يجىء عن استخزاء وضعف ، أو يتولد من تصنع الأنوثة والتخنّث . فما لمثل هذا الحياء نصيب من خير ، ولا حساب فى مجال الفضيلة والإحسان !

ومن هنا أيضا كان هذا التحول الكبير فى نفوس المسلمين بعد أن انتقلوا

من الجاهلية إلى الإسلام .. ويبدو هذا واضحاً فى هَجْرِهِم الألفاظ الغليظة ، لمجرد خشونتها وغلظها ، أو لسوء دلالتها ، فاستبدلوا بها أسماء أرقّ لفظاً ،وأكرم معنى!

كان من الأسماء التى يتسمونَ بها فى الجاهلية : ظالم ، ومُسهر ،ومقاتل،وفرّاس ، وشدّاد ، ونحوها.. فتركوها إلى الحسن ، والحسين،وسعد ، وسعيد،وجميل،وأشباهها.

وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه هو المعلِّم الأول لهم ، والأسوة الحسنة فى كل ماهو حق ، وحسن ، وخير .

يقول ابن قيّم الجوزية : « وكان صلى الله عليه وسلم يستحب الاسم الحسن.. وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ المعانى من أسمائها فى اليقظة والمنام .

« فقد رأى مرة فى منامه أنه فى « دار عقبة بن رافع » فأُتوا برُطب من رطب « طاب » . ، فأوّله — صلى الله عليه وسلم — بأن لهم العاقبة فى الدنيا ، والرفعة فى الآخرة ، وأن الدّين الذى اختاره الله لهم قد أرطب وطاب » .

ثم يقول :

« وتأول — صلى الله عليه وسلم — سهولة أمرهم يوم الحديبية ؛ من مجىء «سهل ابن عمرو [١] » إليه ، فقال — أى الرسول لصحابته — : « سهل الله أمركم » !

« وكان صلى الله عليه وسلم يكره الأمكنة المنكرة الأسماء ، ويكره العبور فيها . . كما مر فى بعض غزواته بين جبلين ، فسأل عن اسميهما ، فقالوا : فاضح ، ومُخْزٍ !! فعدل عنهما ولم يَجُزْ بينهما » [٢]

وفى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم غيّر اسم « حَزْن » — جد سعيد بن المسيّب — وجعله « سهلا » .. فأبى صاحب الاسم ، وقال : السَّهل يُوطَأ

---

(١) سهل بن عمرو هو الذى ندبته قريش ليكون ممثلها فى صلح الحديبية الذى عقدته مع النبى صلى الله عليه وسلم

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لابن القيم : جزء ٢ ص ١٧

ويمتهن » ! وفى صحيح مسلم ، أن النبى صلى الله عليه وسلم غير اسم « عاصية » وقال : « أنت جميلة »!.. وفى سنن أبى داود أنه صلى الله عليه وسلم : سمى « حربا »« سلما» وسمى « المضطجع » المنبعث . . وأرضا « عفرة » سماها خضرة ، « وشعب الضلالة » سماه «شعب الهدى » . . .

فهل رأى الناس أو شهدت الحياة الإنسانية كلها أدبا يطاول هذا الأدب ، وتربية تستشرف إلى هذه التربية ، التى تتخلق منها هذه المشاعر المرهفة ، وتلك الوجدانات الصاحية المشرقة ؟

إن رسول الإسلام يستنبت بحكمته وتأديبه ، فى هذه الأرض الجديب ؛ رياضا مزهرة مثمرة ، ويفجر بلطفه ورقته من هذا الصخر الصلد ينابيع الرقة واللطف .. حتى لقد تحول أعراب البادية بعد سنوات من دخولهم فى الإسلام ؛ إلى ساسة أمم ، وقادة شعوب ، وأساتذة علم ، وأدب ، وخلق !

هذا ، وقد يبدو عند بعض الناس ، وذوى الغفلة فيهم أن مثل هذا التحول شىء لا يلتفت إليه ، فى مجال الحياة ، وفى البناء الحضارى للأفراد والجماعات . ولكنه فى الواقع انتقال هائل فى عالم الروح ، حيث لا تقاس الأمور هناك بما تقاس به الماديات ، فلا تكال كيل التراب ، ولا توزن وزن الأحجار !!

فهذا الانحراف القليل فى الاتجاه النفسى هو نقلة كبيرة فى حياة الناس، وتحول من النقيض إلى النقيض ..انتقال من بداوة وغلظة وجفاء ، إلى رقة ولطف ودماثة . وتحول من طباع أقرب إلى طباع الحيوان ، إلى نماذج إنسانية كريمة عالية .. تحسر عنها الأنظار ، وتقصر دونها العزمات والهمم !

وليست رقة الحس هذه أمرا تركه الإسلام لأتباعه ، يتخيرون منه مايتخيرون، بل إن الرسول الكريم جعله دعوة من دعواته ، وسنة من سننه .. فيقول — صلوات

الله وسلامه عليه — : « اطلبوا الخير عند حِسان الوجوه » . . ويقول : « إذا أبردتم[1] إلىّ بريداً فاجعلوه حَسَنَ الوجه ، حسن الاسم » !

فأىّ دعوة تبلغ بعض ما تبلغ هذه الدعوة الكريمة ؛ من إيقاظ مشاعر الجمال فى النفوس ، وفتح مغالق القلوب لكل حسن وجميل ؟ وهل بلغت مذاهب الفنون كلها فى معارض أعمالها ، وفى دعوات المبشرين بها أن تخلق بعض هذا الإحساس بالجمال فى النفوس ، الذى تخلقه هذه الدعوة اللينة الكريمة، التى تدخل على الناس من مداخل الإيمان والاعتقاد ؟

وهل عرفت الحياة فى أرقى الأمم وأكثرها تمرّساً بالحضارة والمدنية ؛ شيئاً يقارب هذه الكياسة ، أو يدانيها ؟

فلقد تُعنى مدارس « الدبلوماسية » الحديثة بمبعوثيها ، فتتخيرهم من ذوى الوجوه الحسنة ، والبَزّة الظاهرة ، والزىّ المتخيرَّ ، ولكنها هيهات أن يعنيها منهم منطق الاسم أو مفهومه !

وليس هذا عند الإسلام فى مجال السياسة ، أو فى مجال الحياة العامة وحسب ، بل إنه واقع فى مجال الدين أيضاً ... !

واسمع واعجب ... !

روت عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يؤُم القومَ أقرؤهم لكتاب الله ، وأقدمهم هجرةً ، فإن كانوا سواء فليؤُمهم أحسنهم وجهاً » ! أرأيت ؟ إن للجمال الحسِّى — فضلا عن الجمال النفسى — مكانه فى الإسلام ، وله وزنه واعتباره ، فى تعاليم الشريعة وأحكامها ! !

وليس هذا من الإسلام إلا لتربية مجتمع إنسانى . . يقظ ، واع ، متفتح للحياة ، مقبل على طيباتها ، محسن لاختيار مواقع الجمال والحسن منها !

(١) أبردتم : أى أرسلتم رسولا .

هذه ضوءة من أضواء الإسلام الغامرة ، وشعاعة من أشعته الفياضة المتدفقة . . يمكن أن تكون برهاناً ساطعاً ، ودليلا أميناً هاديا بين يدى من يطلب الحق ، ويلتمس الهدى ، ويبتغى الخير . . حيث كان مكانُ الحق والهدى والخير !

وإذا كان لغير المسلم أن يُغمض عينيه عن ألَق هذا النور المتدفق من الإسلام؛ ضناً بمعتقد قديم ألِفَ صحبته ، أو حسداً للإسلام أن يطالع محاسنه — فأى عذر للمسلم أن يقف من الإسلام هذا الموقف ، وأن ينظر إليه هذه النظرة الميتة الباردة ؟ إنه لا عذر ! ولكنه داء تدسَّس إلى عقول المسلمين وقلوبهم ،فأفسد ما بينهم وبين الإسلام من روابط ، وأوهى ما بينه وبينهم من صِلات . !

* * *

وهذا البحث إنما غايته — كما قلت — التعريفُ بالإسلام . . والتعريف به فى المجتمع الإسلامى أولا ، ثم التعريف به فى الأوطان غير الإسلامية ثانيا .

وإذا كان المسلمون يعرفون من أمر الإسلام ، ومن أحكامه وتعاليمه ما يكفى قليله فى إقامة المسلم على طريق الإسلام ، وفى ملء حياته المادية والروحية بكل طيّب، وبكل خير ، لو أنه استقام على ما عرف ، وعمل بما علم — إذا كان ذلك كذلك ، فإن التعريف بالإسلام هنا ليس بالكشف عن حقائق الإسلام ، وإنما يكون بتجلية ما لهذه الحقائق من مُعطَيَات فى مجال الجسد والروح ، وفى محيط الفرد والجماعة . . ففى هذا التعريف القائم على هذا المنهج ؛ تتاح الفرصة لكثير من الناس — أعنى المسلمين — أن يعيدوا النظر فى موقفهم من الدين —أعنى الإسلام— وأن يراجعوا أنفسهم فيه !

أما غير المسلمين — ممن يُقدَّر لهم أن ينظروا فى هذا البحث — فإنهم سيرون كثيرا من حقائق الإسلام فى صورها النظرية،وفى معطياتها العملية .. وحقيقة واحدة من حقائق الإسلام يمكن — كما قلت — أن تكون باباً إلى الإسلام ،يدخل إليه

منه مَن يطلب الخير ، ويؤْثِر الحق .. أما المكابر ، وأما اللَّجُوج المعاند ، فهيهات هيهات أن نلتقى معه ، أو نلوىَ زمامه إلى ما نريد له من هدى ورشاد !

« وما أنت بهادِ العُمْيِ عن ضلالتهم . . إن تُسْمِـعُ إلاَّ من يؤمِنُ بآياتنا فهم مسلمون[1] » .

* * *

هذا ، والذى نعرضه من حقائق الإسلام فى هذا البحث ينّقسم بسمتين :

أولاهما : أخذه من نصوص الكتاب الكريم ، والسُّنة المطهرة الصحيحة . . وهذه النصوص ليست محجوبة عن أحد ، ولا هى متأبية على أحد ، وإنما هى فى معرض النظر لكل ناظر ، ثم هى ليست خارجة — فى منطوقها ومفهومها — عن منطوق اللغة العربية ومفهومها ؛ على ما ينطق بها أهلها ، ويفهمونها عليها ، ويخرجون عليه أدبها . . شعرا ونثرا .

وثانيتهما : الوقوف بمعطيات هذه النصوص عند أدنى مراتب النظر إليها ، دون أن نلتفت كثيرا إلى ما تناله منها أنظار الحكماء ، والفلاسفة ، والفقهاء . . فهذا القدر الذى ينكشف لنا من نصوص الشريعة فى مجال النظرة الفطرية ، البعيدة عن التفلسف والتفحص — هذا القدر كاف فى كشف حقائق الإسلام وتجليتها على الوجه الذى يملأ العقل ثقة بها ، ويشيع فى القلب إيمانا بها ، وطمأنينة إليها .

فعملنا فى هذا البحث ، هو الإعلان عن قضايا الإسلام ، ثم استحضار الأسس التى قامت عليها ، ثم الاستشهاد لهذه الأسس بما نطق به الكتاب ، وجاءت به السُّنة .

والذى نرجوه من وراء هذا العمل ، هو أن تتفتح أبصار الناس وبصائرهم إلى

---

(١) سورة الروم : ٥٣ .

هذا الدين ، الذى نؤمن أنه الخير المدّخر لإنقاذ البشرية كلها ، من هذا الضلال الغارقة فيه ، وهو وحده مركب النجاة لهؤلاء الحيارى ، الذين يتخبطون فى دياجير الشك والإلحاد ، يبحثون عن معتقد صحيح يعتقدونه ، بعد أن خلت عقولهم وقلوبهم من مشاعر الدّين .

وما يحملنا على هذا البحث إلا حبّ الإنسانية ، وابتغاء الخير لها ، فلقد هدانا الله إلى هذا الدين ، فعرفنا مافيه من خير ، ونرى من العقوق للإنسانية ، والتنكر للمروءة ، والخيانة للحق ، والخير ألا ندُل عليه من ضل الطريق إليه .

« وقُلِ الحقُّ من ربكّم . . فمن شآء فليؤمنْ ومن شآء فليكفُرْ » .

« والله يقول الحقَّ ، وهو يهدِى السّبيل » .

✿ ✿ ✿

من مغارس الإسلام

هذه قطوف من الثمر الجنىّ الطيب ، اقتطفناها من رياض الإسلام ، ورأينا أن نَميل بالقارىء إليها ، قبل أن يلتقى بالإسلام لقاءً مواجهاً ، وقبل أن يُشغَل بالدراسة والنظر ، فيما نعْرضه عليه من حقائق هذا الدين .

وغايتنا من هذا التدبير هو أن نوقظ مشاعر القارىء ، وأن نستثير نشاطه ، وأن نضع بين يديه ثمرات دانية القطوف ، ليطْعَم منها ، وليجد فيها بعض مذاقات هذا الدين الحلوة الطيبة ، قبل أن يطول به المطاف فى هذا البحث ، وقبل أن يبذل له ما يبذل من معاناة النظر والتمحيص . . فإن النفس مولَعَةٌ بحبّ العاجل ، راغبة فيما يُنَال من قريب ، دون مشقة أو جَهد !

إن كل « لقطة » من هذه اللقطات السريعة التى نعرضها هنا ، تضم فى كيانها خيراً كثيراً ، يملأ آفاق الدنيا كلها ، وإن أيًّا منها لزاد عتيد ، لمن أراد أن يتزوّد من كل خير . . لدنياه وآخرته جميعاً .

نقدم هذه القطوف ، وفى تقديرنا أن كثيراً من الذين ينظرون فى هذا البحث سيقفون عند أول الطريق ؛ مع هذه الثمرات الطيبة ، ليعيشوا فيها ، ومعها ، فهى حسبهم من كل ما يبتغون من خير ، إذ هى وحدها منهج متكامل فى مجال التربية المادية والروحية ، وزاد عتيد كريم ، لمن وفقه الله ، وهداه ! ثم لا عليه بعد هذا أن يصحبنا إلى غاية هذا البحث ، فإنه — إن فعل — وجد مغارس الحق التى أخرجت هذا الخير الذى عرَفَ وجهه ، وسعد به ، فيزداد هدًى إلى هدًى ، وخيراً إلى خير : « والذين اهتَدَوْا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم[1] » . . فإن وقف به جَهْده عند هذه القطوف ، وقنع بحظه مما نال منها ، فقد ملأ يديه من خير كثير ! ومالا يُدْرَك كلّه لا يترَك قُلّه ! !

---

(١) سورة محمد . آية : ١٧

من القرآن الكريم

١ — الله رب العالمين

* « قل يآ أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سَوَاءٍ بيننَا وبينَكم ، ألا نَعْبدَ إلاَّ اللهَ . ولا نُشْرِكَ به شيئاً ، ولا يتَّخِذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً من دونِ الله . . فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون » . (آل عمران : ٦٤)

* « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالَّتى هى أحسنُ ، إلاَّ الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنّا بالَّذى أُنزِلَ إلينَا وأُنزِلَ إليكم ، وَإِلَـٰهُنا وإِلَـٰهُكُمْ واحدٌ ، ونحنُ له مُسْلمون » . (العنكبوت : ٤٦)

* قُلْ أتُحَاجُّونَنَا فى الله ، وهو ربُّنَا وربُّكم ، ولَنا أعمالُنَا ولكم أعمالُكم ، ونحن له مُخْلِصون » . (البقرة : ١٣٩)

« لا إكراهَ فى الدِّين . . قد تبين الرُّشدُ من الغَيِّ » . (البقرة: ٢٥٦)

* * *

تلك هى دعوة الإسلام إلى الله ، وهذا هو موقف أتباعه من أهل الكتاب ، ومايدينون به . .! فأى دعوة أقْوَمُ ، وأرحبُ ، وأحكم ، وأحقُّ ؟ من هذه الدعوة ، التى تُسْلِمِ الإنسانية جميعها ، والوجود كله ، إلى مصير واحد ، فى يد متصرف واحد . . هو الله رب العالمين ؟ إن ذلك هو مايقضى به منطق كل عقل ، وما ينتهى إليه نظر كل مفكر . «أأربابٌ متفرِّقون خير ؟ أم الله الواحد القهار[1] ؟ » .

* * *

---

(١) سورة يوسف : ٣٩

٢ — العفو .. مروءة ودين

* « وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها ، فمن عفَا وأصلحَ فأجرُهُ على الله ، إنّه لا يحبُّ الظالمين » . (الشورى : ٤٠)

* « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدُوا ، إن الله لا يحبُّ المعتدين » . (البقرة : ١٩٠)

* « ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئةُ ادفعْ بالتى هى أحسنُ ، فإذا الذى بينَك وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌّ حميم ، ومايلقَّاها إلا الذينَ صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم » .

(فصلت : ٣٤ — ٣٥)

* * *

فى هذه الكلمات المعدودة وضع الإسلام دستور السلوك الإنسانى ، الذى لا يهتزّ ، ولا يضطرب .. فى أى مجتمع ، ومع أى نفس ، وفى أى زمان !

فجزاء العدوان بالعدوان ، ولقاء السيئة بالسيئة ؛ فطرة مركوزة فى الكائن الحىّ ، وقوة عاملة فى كيان الإنسان ، لا يستطيع أن يتجرد منها ، وإن هو استطاع أن يتخفف من ضغطها وجوحها !

فالإسلام يقرر هذا الحق للإنسان، ويُطلق يده فى أخذ هذا الحق ، وأن يجزى السيئة بالسيئة ، والعدوان بالعدوان ، ولكن بشرط ألا يأخذ أكثر من حقه ، وإلا انقلب الوضع ، وأصبح معتديا ، بعد أن كان معتدًى عليه !

ثم بعد أن تقرّر هذا الحق للإنسان ، وأصبح ملكاً خالصاً له ، جاءه الإسلام من طريق آخر .. طريق مفاوضة المالك فيما ملك ، ومعاوضته بما يمكن أن ينزل عنه من مِلْكه .. فدعاه إلى العفو ، وإلى التسامح ، وإلى دفع الشر بالخير ..

وله فى مقابل هذا جزاءان طيبان : عاجل ، وآجل . . أما العاجل فهو أنه يمتلك — بالعفو عن المعتدى ، وبالإحسان إلى المسىء — زمامَ الموقف ، فيصبح السيدَ المحسن الكريم .. وأما الآجل ، فهو ما ادّخره الله له من جزاء حسن ، وثواب عظيم .. « والله عنده حُسن الثواب » .

* * *

مِنَ السُّنَّةِ المُطَهَّرَة

١ — إنسانية ورحمة

* رَوَى البخارى فى صحيحه : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى أصحابه فمرت جنازة فقام لها ، فقيل له : إنها جنازة يهودى . . ! فقال : «أليست نفساً ؟»

(البخارى جزء : ٢ ص ١٠٨)

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن أسودَ — أى عبداً — كان يَقُمُّ[1] المسجد ، فمات ، ولم يعلم النبى صلى الله عليه وسلم بموته ، فذكره ذات يوم ، فقال : « ما فعل ذلك الإنسان ؟ » قالوا : مات يا رسول الله ! فقال : أفلا آذنتمونى[2] ؟ فقالوا : إنه كان كذا وكذا — وذكروا قصته — فحقَرُوا شأنه .. فقال : «فدلّونى على قبره » ! فأتى قبره فصلّى عليه ! !

(البخارى جزء : ٢ ص ١١٣)

* ويُروى عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — أنه كان يحدّث فيقول : « قمت فى جوف الليل وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة تَبُوك ، فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر ، فاتّبعتها ، أنظر إليها ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين[3] المزَنىّ قد مات ، فإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرته ، وأبو بكر وعمر يدلّيانه إليه ، وهو يقول : « أَدْنِيا إلىّ أخاكما ».. فدلّياه إليه ، فلما هيأه لِشِقّه قال :

---

(١) أى ينظفه ويجمع ما يقع فيه من مقاذر .

(٢) أى أعلمتمونى .

(٣) سمى ذا البجادين لأنه لما أراد الإسلام منعه قومه ، وضيقوا عليه ، فخرج من بينهم ليس عليه إلا بجاد واحد ، فشقه فاتزر بشق ، وارتدى الآخر ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسماه ذا البجادين .

« اللهم إنى قد أمسيت عنه راضياً فارْضَ عنه » . . فكان عبد الله بن مسعود يقول : ياليتنى كنتُ صاحب الحفرة ! » (زاد المعاد جزء ٣ ص ١١٣)

* وعن ابن عباس أن رجلا أضجع شاة يريد أن يذبحها ، وهو يُحدّ شفرته ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أتريد أن تميتها موتات ؟ هلا حدّدتَ شفرتك قبل أن تُضجعها ؟ »

وهذه الآيات البينات من أدب النبوة أوضح من أن يُدَلّ عليها بشرح أو بيان !

* * *

٢ — لطف . . وعدل

* عن أنس — خادم النبي صلى الله عايه وسلم — قال : خدمت الرسول عشر سنوات . . فما قال لشيء عملتُه : لم عملتَه ؟ ولا لشيء تركتُه : لم تركتَه ؟

* ورُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إخوانكم خَوَلُكم[1] . . استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » .

* * *

فأى نظام من أنظمة العمل ، وأى قانون من قوانين العمال فى جميع الأنظمة السياسية والاجتماعية التى يعيش عليها الناس فى القرن العشرين — يرتفع إلى هذا المستوى الرائع الكريم ؛ الذى رفع به الإسلام منزلة العمل ، ومكانة العامل جميعاً ؟ أى نظام فى أرقى الأمم يضمن للعامل هذا الحق الأدبى عند صاحب العمل ، حتى ليؤديه إليه فى صورة عبادة ، وقُرْبَى لله ! ؟

« إخوانكم خَوَلكم . . »

الأخوة هى الأساس الذى يقوم عليه عقد العمل بين العامل وصاحب العمل .

(١) خولكم : أى ما خولكم الله ، أى أعطاكم وملككم .

الأخوة أولاً وقبل كل شيء . . هى التى تجمع الإنسان إلى الإنسان ، وتصله به ، أخوّة مقررة متبادلة بين الطرفين .

أخوّة مقررة قائمة . . قبل أن يكون بينهما صلة تعامل وعمل !

إخوّة إنسانية . . يلتقيان أو يفترقان ، دون أن ينقطع بينهما هذا الرباط الوثيق ، الذى جمعهما الله فيه .

وهذا هو السر القائم فى تقديم كلمة « إخوانكم » على كلمة « خولكم » فى الحديث الشريف . . فلم يقل الرسول الكريم : « خولكم إخوانكم » . . بل قال : « إخوانكم خولكم » لينبه من أول الأمر إلى هذه الأخوة القائمة بين الإنسان والإنسان ، دون أن تقوم بينهما حواجز مصطنعة كاذبة . . من حواجز الغنى ، والجاه ، والسلطان ، واللون ، والدم ، والجنس ! !

* * *

٣ — سماحة ومروءة وفضل

* يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« من يَغفِر يُغْفَرْ له ، ومن يَعفُ يَعفُ الله عنه » .

(زاد المعاد : جزء ٣ ص ١٤)

* ويقول :

« من لم يقبل عذراً من مُتَنَصِّل..صادقاً كان أو كاذباً ، لم يَرِدْ علىّ الحوض »

(البيان والتبيين : جزء ٢ ص ٢١)

* ويقول :

« إذا أراد الله بعبد خيراً عَسلَه . . قيل يا رسول الله : وما عَسَلَه ؟ قال: يفَتح له بين يدى موته عملا صالحاً ، حتى يَرْضى عنه من حوله ! »

(المجازات النبوية للشريف الرضى ص ٣٨)

* ويقول :

« ألاَ أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقاً . الموطَّئون أكنافاً .. الذين يألَفُون .. ويُؤْلَفون » (رواه الترمذى)

* ويقول :

« ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا بلى ؛ قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده .. ألا أخبركم بشَرّ من ذلكم ؟ من لا يُقيل عثرة ، ولا يقبل مَعْذِرة ، ولا يغفر ذنباً : ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من يبغض الناس ويبغضونه »

(الكامل للمبرد ص ٣٩)

ويقول :

« يَحرُم على النار كل هيِّنٍ ليِّن ، قريب ، سهل » !

(روضة العقلاء للبستى ص ٦٣)

٤ — رفق وكياسة

* « بال أعرابىٌّ فى المسجد ، فقام أصحاب النبىّ إليه ، فقال — صلوات الله وسلامه عليه — لا تزْرِمُوه[1] ، ثم أمر بدلو ماء فصُبّ فى الموضع الذى بال فيه ! »

(السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٦٥)

* « وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : الرّجل يكون حاميةَ القوم .. سهمه وسهم غيره سواء ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه : « ثَكِلَتْكَ أُمُّك .. ابنَ أمِّ سعد .. وهل تُرْزقون ، وتُنصرون إلا بضعفائكم » !

(مسند أحمد)

* «قدم وائل بن حجر الحضرمى وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان قَيْلا من أقيال اليمن — فقال يا رسول الله : جئت راغباً فى الإسلام والهجرة

(١) أى : لا تقطعوا عليه بوله .

فدعا له ، ومسح رأسه ، ونُودى : « الصلاةُ جامعة ! » .. سروراً بقدوم وائل ابن حجر ! .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاوية بن أبى سفيان أن ينزله بالحَرّة ، فمشى معه ، ووائل راكب ، فقال له معاوية :

ألق إلىّ نعليك .. أتوقَّىٰ بهما الرمضاء !

فقال : لا . . إنى لم أكن لِألبسَهما وقد لبستَهما !

قال : فأردفنى !

قال لستَ من أرداف الملوك!

قال : إن الرمضاء قد أحرقت قدمىّ !

قال : امش فى ظل ناقتى ؛ وكفاكَ به شرفاً !

ويقال إن وائل بن حجر هذا وفد على معاوية بعد ذلك فى خلافته، فأكرمه ، وعرف له قدره [1]

(نهاية الأرب جزء ١٨ ص ١١٢)

٥ — تواضع ، وحلم ، وعدل

✿ أخرج أبو داود فى سننه عن ابن عباس : أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت ، ثم أتى السِّقاية فقال : اسقونى ! فقال له ابن عباس : ألا نحوِّص لك سَوِيقاً[2] ، فإن هذا يتناول منه الناس ! فقال — صلوات الله وسلامه عليه — : اسقونى مما يشرب منه الناس » !

✿ وفى الحديث الصحيح :

(١) وانظر كيف كانت كياسة الرسول ولطفه مع هذا السيد العظيم — لقد تلقاه هذا اللقاء الحفى الكريم ، ثم جعل معاوية بن أبى سفيان زعيم قريش فى خدمته !

(٢) السويق : الدقيق الناعم من الحنطة أو الشعير ، يخلط بالماء ويشرب .

« أن « بُريرة » لما أعتقها أهلها ، وكانت زوجا لمغيث العبد — ملكت أمر نفسها بالعتق . . فطلقت نفسها من زوجها ، وكان مغيث شديد الحبّ لها ، وكانت شديدة الكراهية له ! فكلّم مغيث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فكلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتراجعه !

فقالت : أتأمرنى يارسول الله ؟

فقال — صلوات الله وسلامه عليه — : لا ، لكنى أشفع ! !

هذا ، ولم ينكر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابته هذا الموقف . ولو أمرها الرسول الكريم لامتثلت فى رضىً وقُرّة عين !

✿ وفى الحديث الصحيح أيضاً :

« جاءت « جميلة » امرأة قيس بن ثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يارسول الله : لا أجد فى قيس بن ثابت عيبا من خُلُقٍ أو إيمان ، ولكنى لا أجد فى طَوْقى مجاراتهِ !

فقال لها النبىّ صلى الله عليه وسلم : هل تعيدين إليه حائطه — أى بستانه — الذى جعله صداقا لها إذا طلقها ؟ فقالت : نعم !

فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بردّ الحائط إلى قيس بن ثابت ، وتطليقها ! .

* * *

٦ — الإسلام ، يسر وسماحة

✿ « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، وقد بلغه انقطاعه للعبادة : « ألم أَخبرْ أنك تقوم الليل ، وتصوم النهار ! ؟ » قال : إنى أفعل ذلك ! فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : فإنك إن فعلتَ

ذلك هجمت عينُك، ونَفِهتْ[1] نفسُك، وإن لنفسك عليك حقاً، ولزوجك حقا، فصم وأفطر، وقم، ونم».

✿ أتى حبيب بن الحارث النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال يارسول الله: إنى مِقْرَافٌ للذنوب، فقال الرسول الكريم: «كلما أذنبت فتب» قال: ثم أعود! قال: «ثم تب»! قال: إذن تكثر! قال: «عفو الله أكبر من ذنوبك!!»

عن بُرَيدة قال:

✿ «خرجت ذات يوم أمشى، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى، فأخذ بيدى، فانطلقنا جميعاً، فإذا برجل يصلّى، يكثر من الركوع والسجود، فقال: أترى هذا يرائى؟ قلت: الله ورسوله أعلم! فأرسل يده، وطبق بين يديه ثلاث مرات، يرفع يديه ويضربهما، ويقول: عليكم هَدْياً قَاصِداً، عليكم هديا قاصداً، عليكم هديا قاصداً، فإنه من يُشَادّ هذا الدين يغلبه»!

* * *

٧ — عمران ومدنية

عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال:

✿ «سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم: بم تأمرنى أن أتَّجِر؟ قال: عليك بالبزّ[2]، فإن صاحب البزّ يعجبه أن يكون الناس بخير، وفى خصب»!

وفى الحديث الشريف خطة عملية محققة النجاح فى دعوة الناس إلى التماس معالى الأمور، وترفعهم عن دونها وسَفْسافها، ثم إلى جانب هذا ارتباط الناس جميعاً برباط المصلحة المتبادلة بينهم، وأن أى خير يصيب إنساناً من الناس هو

---

(١) هجمت عينه ونفهت نفسه: أى تعبت

(٢) البز: الثياب اللينة من الكتان أو القطن.

كسب للإنسانية كلها ، وأنه كلما كثرت هذه المكاسب كان نصيب الفرد أكثر وأوفر !

* وروى البخارى فى صحيحه أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان لا يردّ الطيب » .

* وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « من عُرِض عليه طيب فلا يردّه ، فإنه خفيف المحمل ، طيب الرائحة » .

* وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن لله حقاً على كل مسلم أن يغتسل كل سبعة أيام ، وإن كان له طيب أن يمسّ منه » !

فهل جاءت المدنية الحديثة فى تربية الأذواق ، وتهذيب الطباع ، وفى رِفْه الحياة ، وفى التمتع بطيباتها ، والاقتطاف من كريم ثمراتها — هل جاءت بما يوازى هذه الدعوة الإسلامية ويوازنها ؟ لقد جعل الإسلام دعوته تلك شَعِيرةً من شعائر الدين ، بحيث يجب على المسلم الوفاء بها ، على المَكْرَه والمَنْشط .

فإذا لم تكن عند بعض الناس مطلوبة لذات أنفسهم فهى مطلوبة لجانب الدين ، وبهذا لا يجد المسلم سبيلا إلى الترخّص فيها ، أو التهاون بها .

٨ — من ثمراتهم تعرفونهم

وبعد ، فقد أثمرت هذه التعاليم الكريمة ثمرات مباركة ، وآتت أكلها أضعافاً مضاعفة ، فيما أخرجت للحياة من مثل إنسانية رفيعة ، مُصَفاة من شوائب الضعف البشرى ، وحسبك شاهداً على هذا ما سجل التاريخ للإسلام ، ولرجالات الإسلام فى العصر النبوى ، وعصر الراشدين من آيات بينات فى إقامة المجتمع الإنسانى الذى ضمه الإسلام إليه، على أسس وطيدة من العدل ، والمساواة ، والمودة

والمواخاة . . مما لا تكاد تجده الإنسانية حتى فى مجتمع الأسرة الواحدة ، وما يمسك بها من أواصر القُربى والنسب !

ولقد شهد بهذا الكثير من الحكماء والفلاسفة من غير المسلمين ، إذ لم يكن فى وسعهم أن يروا هذه الحقيقة السافرة ثمّ ينكروها . . فهى عندهم أشبه بالحقائق العلمية ، التى تتكشف لهم فلا يسعهم إلا إذاعتها فى الناس ، وإن لم يأخذوا فى حياتهم بها .

يقول جوستاف جرونيباوم فى كتابه حضارة الإسلام :

« والحق أن سنوات حكم النبى العشر فى المدينة مضافاً إليها فى الراجح الثلاثون سنة التى أعقبت وفاته كانت قوام العصر الذى صارت فيه الجماعة الإنسانية أقرب ما يرجى من الكمال ، ومن ثَم فإن سوابق تلك الفترة فى النظم والقانون والمالية ؛ فضلا عن الدين هى التى أثمرت مصطلحاتِ ، وأفكارِ وفرائضَ ذلك النظام الكامل .. نظام الله »[1] !!

* * *

(١) حضارة الإسلام ـ ١٨٤

مدخل إلى البحث

— ١ —

من الحقائق المسلَّمة ، التى تقع موقع البَدَهِيَّات فى العقول أن الأديان تعانى اليوم أزمات حادة ، وأنها تقف موقفاً حرجاً فى الحياة ، بعد أن غَلَبت المادة على منازع التفكير الإنسانى ، وبعد أن أصبحت المحسوسات هى أساس التعامل فى مجال الفكر ، كما هى أساس الأخذ والعطاء فى مناحى النشاط الإنسانى كله .

إن إنسان العصر الحديث لا يُدخل إلى عقله شيئاً لا تلمسه حواسه ، وتختبره ، وتطمئن إليه ، كما لا يُدخل إلى جيبه من المال إلا ما تحرَّى سلامته وخلوّه من الزَّيف !

فلا غرابة — والأمر كذلك — أن تقف مقررات الأديان ، موقفاً قلقاً مضطرباً ، فى مجال هذا العقل المادىّ ، وأن تطلب كل حقيقة من الحقائق التى تعرضها الأديان شاهداً محسوساً ملموساً ، يمسك بها ، ويأذَنُ لها بالدخول إلى هذا العقل ، وإلاَّ ظلت بعيدة عنه .. غريبة .. متهمة .. إن هى طرقت بابه ، أو حامت حوله ! .

إن « جواز » المرور الذى يمكن أن تدخل به أية دعوة من الدعوات ، أو مذهب من المذاهب إلى العقل الإنسانى العصرى ينبغى أن يكون محققاً لأمرين :

أولا : خضوعه للتجربة . . بمعنى أن يكون مما يستجيب لعمل الحواس فيه ، وأن يتقبل إجراء التجارب المعملية عليه .

وثانياً : أن تُنتج هذه التجارب ثمرة مادية معجَّلة ، تُوضع بين يدى من يُدعى لهذا المذهب ، ويُراد له أن يدين به ، ويعتقده .

فإذا لم يتحقق هذان الأمران فى الرأى أو المذهب ؛ فلن تَنفُق له سوق فى الحياة العصرية ، التى لا تؤمن إلا بالمادة أولا ، وبالثمرة المعجلة لها ثانياً .

إن الدِّين الغالب اليوم هو دين المادة ، التى تغِلّ ثمراً معجلا حاضراً . . ومن أجل هذا فقد زهد الناس فى الأديان التى لا تقيم للناس إلا عالمَاً قائمَاً على خَوَاء . لا تستند إلى دعائم من المنظور أو الملموس ، ولا تضع فى أيدى الناس إلا وعوداً يقتضون إنجازها بعد هذه الحياة . . بعد أن يموتوا . . ويُبعثوا !

وشتان بين واقع محسوس ملموس . . يُؤكل ، ويُشرب ، ويلبس ، وبين أمانىّ ووعود ، تنتظمها سلسلة متصلة الحلقات ، ليس فيها حلقة واحدة مما يمسك به الإنسان ، ويختبر حقيقته ، ويعاين وجهه !

إنه لمضيعة للوقت — عند الماديين — أن يُنفَق أى شىء منه فى الوقوف على هذه الأمانى وتلك الأحلام التى تقدمها الأديان لأتباعها . . وإنه لخير المرء أن يُغمض عينيه ليغفو إغفاءة يستريح فيها من عناء الجهاد فى الحياة ، أو ينطلق عاملا فيما تزخر به هذه الحياة من ألوان النشاط الإنسانى فى ميادين التجارة والصناعة والزراعة ، وغيرها — خير له أى متجه يتجه إليه ، ولو إلى اللهو والعبث من أن يضيّع لحظة من حياته مع هذا السراب الذى تُخيل به الأديان للناس ، حتى إذا جاءوه لم يجدوا شيئاً ! .

— ٢ —

تنكر المادية على الديانات جميعها هذه المشاعر الإنسانية التى يعمل الدين على غرسها وتنميتها فى نفوس المتدينين . . من الرحمة ، والمودة ، والإيثار ، والعطف ، والإحسان ، والتكافل ، وكل ما يشيع فى كيان الإنسان نحو أهله ، وقرابته ، ومجتمعه ، والإنسانية جميعها ، والوجود كله . . من تراحم ، وتوادٍّ ، وتعاطف . .

فليس فى شريعة المادية ، ولا فى قاموسها اللغوى ، ولا فى رصيد مشاعرها

شىء من هذا النقد الرّوحىّ والنفسى، الذى لا ينفق فى سوقها، ولا يتعامل به أحد فى دنياها، فكل هذا عندها نقد زائف، وسراب خادع، إذا افتقده المرء عند الحاجة لا يجده شيئاً، ووجد أنه إنما يحمل خيالات وأوهاماً ! !

إن المادية تَعُدُّ هذه العواطف وأمثالها أمراضاً اجتماعية خبيثة، دخلت فى كيان الناس عن طريق الخداع والتضليل، وعلى ألسنة المخادعين والمضللين، الأمر الذى تحمل الديانات أكبر قدر منه، ويضم المتدينون أكثر جماعة داعية إليه، بما يُلْقَى منها إلى الناس باسم الدين من صور التفزيع والتخويف بهذا اليوم الموهوم، يوم القيامة، وما يحلّ بالناس فيه من عذاب، وما يلاقون من أهوال ! !

ثم ترى المادية — من جهة أخرى — أنه لن تسلم للناس حياتهم، ولن تتحرر أفكارهم ونوازعهم، ولن يصح وجودهم ويستقيم خطوهم فى الحياة إلا إذا اقتُلعت من نفوسهم هذه العواطف المريضة من جذورها، وإلا إذا قطعوا هذه الأغلال التى تقصّر خطوهم، وتشل إرادتهم، وتمتص القوى العاملة فيهم، كما تمتص الحشائش الغريبة المتسلقة عصارة الحياة من النبات الطيب الكريم . .

يقول الفيلسوف الألمانى « نيتشه » : إن الرحمة والتعاون، والحبّ، وكافة الفضائل المسيحية هى مجموعة من الدَّجل والخرافات، تستهدف رعاية الغوغاء والدهماء والقطعان، وهؤلاء جميعاً فقراء ومرضى وضعفاء.. يعوقون التطور الإنسانى، فى حين أنه يجب أن نُخلص لنوعنا البشرى بأن نُبقى على الأقوياء فى الذهن والجسم والروح، ونعمل على إفناء الآخرين حتى نحصل فى النهاية على السوبرمان[1] » .

هذا، وإن تكن المادية الحديثة قد خضعت لهذه الفلسفة المريضة المظلمة، فأجلت عن قلوب الناس هذه العواطف الإنسانية الكريمة التى تصل بين الناس والناس بِصِلات التعاطف والتراحم والإحسان فإن جذوراً عميقة، بعيدة الغور

---

(١) الحرية فى مصر : لسلامه موسى .

من هذه العواطف لا تزال مندسة فى أعماق هذا الإنسان المادىّ ، تتحرك بين حين وحين ، وتهبّ بين آن وآن .. وقد تنحبس زمناً طويلا حيث لا تجد لها متنفسا ، تحت ضغط التيارات المادية،التى تدفع الناس دفعاً مجنونا إلى كل اتجاه تبرق لهم فيه بارقات المصالح الذاتية ، دون التفات إلى ما ينجم عن ذلك من تقطيع أواصر القربى ، وعلائق الرحمة والمودة مع الناس جميعاً !

وهذه العواطف الحبيسة فى كيان أصحابها اللاّهثين، اللاهين عنها فى زحمة الحياة ، وسُعار المطالب المادية — كثيراً ما تتجمع وتتحول إلى إعصار عاصف ، يقتلع الإنسان من هذا المرفأ الضال الذى أرسى عليه ذاتيته ، إلى حيث يوجد الإنسان ، وحيث يحيا الناس ، فإذا هو نسمة عاطرة ندية ، تفوح بالشذى الطيب، الذى يعطر الأجواء حولها بأريج الحب والمودة والرحمة !

هذا وجه جميل لاشك ، يطل من عالم الماديين مشرقا ، مسعداً،ولكن يبدو وراء هذا الوجه أشياء وأشياء !

فأولا : أن هذه الظاهرة الطيبة التى تظهر من متفجرات العواطف المكبوتة المحتبسة لاتجىء دائماً بمثل هذه النتيجة الطيبة،بل كثيراً ما تتحول إلى انفجار داخلى يحطم كيان الإنسان كله ، ويذهب بوجوده . . فيموت مختنقاً ، أو محترقاً !

وثانياً : هذه الظاهرة — فى أكمل أحوالها ، وأروع نتائجها — لا تعيش فى كيان الإنسان عيشة تلازم واستقرار ، وإنما تظهر فى فلتات ، وتَنِدّ عن أزمات حادة ، ومواقف متأزمة ، وتقع عقب صدمات قاسية،يصحو معها الضمير الإنسانى صحوة أشبه بصحوة الموت ، وكثيراً ما تكون هذه الصحوة بعد فوات الأوان ! !

— ٣ —

من أجل هذه المفارقات البعيدة بين معطيات الدين فى صورة وعود وأمانىّ

مؤجلة ، وبين معطيات الحياة المادية فى واقع فورى محسوس . . من أجل هذه المفارقات كانت الأديان فى كل زمان ومكان فى معرض الشك والإعراض من الناس إلا من استعلت روحه منهم على حطام المادة ، وسمت عن مستواها ، وتفلتت من قيودها . . وهؤلاء قلة — فى كل زمان ومكان — بين تلك الكثرة الكثيرة التى أخضعت وجودها للمادة ، واطمأنت إلى ظلالها وظلامها ، ووثقت بما يملأ الأيدى والبطون منها ! . . وذلك مصداق لقوله تعالى : « وما أكثرُ الناس ولو حرَصْتَ بمؤمنين » . . وقوله سبحانه : « إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين » .

هذا ، ولقد كان للمادة فى كل أمة ، وفى كل جيل من أجيال الناس ، قادة ، وزعماء ، ومتفلسفة ، يقيمون للمادية الحجة ، ويزينون لها القول ، ويوسعون للناس الطريق الذى يتدافعون فيه إليها . . ثم هم من جهة أخرى يلقُون إلى المؤمنين بالله ، كثيراً من التلبيسات والمفتريات « ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم » وليعدلوا بهم إلى طريق المادة ، وما تفيض به من حطام الدنيا وشهواتها . . وقد جاء القرآن الكريم بكثير من تلبيسات هؤلاء الماديين ، وبما يحاجون به المؤمنين ، وما يحتجون به لأنفسهم ، ويَعْذِرون لها فى التنكب عن طريق الإيمان ، وركوب الغواية والضلال . . فمن ذلك قولهم الذى حكاه القرآن عنهم فى تشكيك الذين يدعوهم النبى إلى الإيمان بالله : « أيعِدُكُمْ أنّكم إذا مِتُّمْ وكنتم تُراباً وعظاماً أنكم مُخرَجون . . هَيْهاتَ هيهات لِماَ تُوعدون ، إن هى إلاَّ حياتُنا الدنيا ، نموتُ ونحيا وما نحن بمبعوثين[1] » .

وفى الناس رغبة جامحة إلى العاجل من كل شىء ، وحرص شديد على التّعامل بالنقد إذا أخذوا ، وبالنسيئة إذا أعْطوا ، وليس قولهم الدارج : « عصفور فى اليد » .

(١) سورة المؤمنون : ٣٥ — ٣٦ — ٣٧ .

خير من عشرة على الشجرة ، إلا تعبيراً صادقاً عن لسان الواقع الذى يعيشون فيه !

ومن هنا كانت مقولات الماديين الذين يقفون من الأديان موقف الجحود والإعراض — كانت مقولاتهم تدور فى الغالب حول هذا المعنى . . فتراهم يتساءلون فى سخرية واستهزاء : ماذا يقدم الدين لأتباعه من مال ؟ وماذا يمدهم به من مطالب الحياة ؟ وماذا يتقاضى الصائم المصلى كل يوم على صلاته وصيامه ؟ . . فإذا لم يكن لصاحب الدين شىء يعود به آخر اليوم فى جيبه فلماذا إنفاق هذا الوقت ، وبذل هذا الجهد فى الصلوات والابتهالات ؟ ولماذا إذن هذا التعلق بالأوهام ، والتزود بمعطيات الرؤى والأحلام ؟ . . إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التى تدور فى دنيا الماديين .. كلما ذُكر الدين ، وذكر المتدينون !

وهذا الشعور المريض، وذلك التفكير السقيم ،ليس من شأن الملحدين وحدهم، بل إن هذا الشعور قد يتدسس أحياناً إلى بعض ذوى الإيمان الضعيف من المؤمنين، فلا يعبدون الله إلا على هذا الأسلوب ، ولا يُبرمون معه عقداً ، ولا يقطعون عهداً إلا إذا كان على تلك الصفة التى يوازن فيها بين الجهد وبين الكسب المعجل المقبوض.. وفى مثل هؤلاء يتجلى معنى الآية الكريمة:«ومن الناس من يعبد الله على حَرْفٍ ، فإن أصابَه خيرٌ اطمأنّ به ، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه ، خسِرَ الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين »[1].

وبلسان هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف نطق الشاعر العباسى : أحمد بن محمد الإفريقى ، من شعراء القرن الرابع الهجرى . . إذ يقول :

فوالله لا صَلَّيْتُ لِلهِ مُفْلِساً يصلّى له الشيخ الجليل وفائق
لماذا أصلى ؟ أين مالى ومنزلى ؟ وأين جيادى ، والقنا ، المناطق ؟
أصلّى ؟ولا فِتْرٌ من الأرض تحتوى عليه يمينى ، إننى لمنافق !

---

(١) سورة الحج آية ١١

— ٤ —

فالأزمة التي تعانيها الأديان اليوم على هذه الصورة التي تشبه الوباء ، بعد أن استشرت المادية ، وغرق الناس في النفعية الوقتية إلى الأذقان ــ هذه الأزمة ظاهرة طبيعية ، لا تخرج على المفهوم التجريبي الذي تُبنى عليه النظريات العلمية ، وتقوم عليه المذاهب والآراء في مجالات الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وغيرها.

فهناك أمران يواجهان الرجل العصري :

أمر يلقاه بحواسه ، ويُخضعه لمنطق التجربة ، ويستولد منه مكاسب مادية يملأ بها يديه . وذلك هو ما يتقلب فيه في عالم المادة والمال !

وأمر آخر — إن لقيه — فإنما يلقاه بأوهامه ، وظنونه ، وخيالاته ، ثم لا يحصل منه إلا على وعود مضافة إلى ما بعد الحياة . . بعد أن يموت ، ويصير تراباً ، ثم يبعث من هذا التراب ! وهذا هو ما يدعوه إليه الدين ، ويأمره به .

فإلى أي الأمرين يميل هذا الإنسان ؟ وعلى أيهما يرتب حياته ، ويقيم وجوده ؟ إن الناس لم ينتظروا من يسألهم هذا السؤال ليجدوا الإجابة عليه . . بل لقد اندفعُوا سراعا منذ اللحظة الأولى إلى الجانب المقابل للدِّين . . الجانب الذي يحقق لهم مكاسب مادية عاجلة . . ومازالت جماهيرهم الغفيرة تتزاحم ، وتتدافع في هذا الجانب ، على حين أقفر جانب الدين أو كاد !

— ٥ —

هذه حقيقة الموقف الذي يقفه الدين والمتدينون في هذا العصر . .

وهو موقف — كما ترى — ينتقص كل يوم البقيةَ الباقية من دولة الدين في هذه الحياة ، ويغتال القلّة المتناثرة من المتدينين ، ويُخلِي مكانهم في كثير من بقاع الأرض . . يوما بعد يوم لتحتله زحوف الماديين ، وتملأ فراغه !

وإنه لن يجدِىَ على الدين والمتدينين البكاء ولا التباكى ، ولن ينفع الدين ولا المتدينون بالحسرات واللهفات تتصاعد من هنا وهناك ، كلما خفت موازين الدين ، وكلما انكمش ظل المتدينين !

إن الأمر جدّ ليس بالهزل . . وإن الحرب المعلنة على الدين والمتدينين حرب جادّة لا هوادة فيها ، تريد أن تقتلع من هذه الدنيا كل مَعْلَمَ من معالم الدين ، وتميت كل مظهر من مظاهره !

والذى نريد أن نقوله هنا هو أنه ينبغى على الذين ينتصرون للدين ، والذين لايزالون فى جماعة المتدينين أن يعرفوا هذه الحقيقة جيداً ، وأن يواجهوا هذا الواقع مواجهة صريحة ، وأن يتعرفوا إلى الأسلحة التى يحاربهم بها أعداء الدين ، وأن يوازنوا بينها وبين مافى أيديهم من أسلحة ،وليعلموا أنهم إذا لم يَلقوْا أعداءهم بأسلحة مثل أسلحتهم فإنهم سيخسرون المعركة لامحالة ، وأنهم إذا خسروا هذه المعركه فقد لا يرون للدين ظلا بعدها إلى قرون وأجيال عديدة مقبلة ، حيث تبدأ الإنسانية من جديد — كما فعلت أول عهدها بالوجود — فتتحسس مشاعر الدين الكامنة فى فطرتها ، وتعمل على تصويرها وتشكيلها فى أنماط من الخرافات والعقائد والشرائع ! وإنها لدورة طويلة جدا من دورات الزمن ، تلك التى يتم فيها هذا الانقلاب إلى رحاب الدين.. ستعيش الإنسانية فيها على غير دين. أو بمعنى أصدق بلا إنسانية.. فلا عواطف ، ولا مشاعر ، ولا روح !

— ٦ —

وإن أول ما ينبغى أن يفعله أصحاب الدين فى صراعهم مع الماديين والملحدين هو أن يضعوا فى موازين الدين مايتراجح به أو يتوازن مع دعوة الحياة المادية، وما تقدم للناس بين يدى دعوتها من ضمانات موثّقة ، وثمرات معجلة لمن تدعوهم إليها ، وبغير هذا ستظل كل دعوة دينية فى مواجهة هذا الإلحاد المادى الصارخ ـ كلاماً تأبى الأسماع الاستماع إليه ، وضياع أى وقت فى الوقوف معه !

وطبيعى أن هذا الذى ندعو إلى تقديمه من حقائق الدين فى مواجهة التحدّيات المادية ينبغى ألا يكون شيئاً مستجلباً مصطنعاً ، وإلا كان حرباً أخرى على الدين ، وتشويها لحقائقه ، وطلاء زائفاً ، وتمويها باطلا ، يزيد البلاء بلاء . .

بل إن الذى يجب أن يكون فى هذا المقام هو أن تتجه أنظار أولى النظر من أرباب الدين ، إلى صميم الحقائق الدينية ، وأن يغوصوا فى أعماقها ، وإنهم لابد واجدون فى الدين ما يلبى مطالب الحياة ، وما يرضى مشاعر الناس — كل الناس — فى قصد، وحكمة، واعتدال !

ذلك أن الدين الحق لا يمكن أن يكون معوّقاً لسير الحياة ، ولا معطلا للنشاط الإنسانى ، فى أى متجه يعود على الإنسان بالخير له ، وللبشرية كلها ! وإنما الدين فى حقيقته مدد من السماء ، ينزل بالهدى والرحمة ، كما ينزل الغيث فى مواقع مختلفة من الأرض !

وإن من طبيعة الدين الحق أن تكون نصوصه المقرّرة لشريعته ، والحاملة لأحكامه محرّرة من التحريف والتبديل ، أولا ، ثم تكون هذه النصوص فى ضمان من التعمية والإلغاز ثانياً، بحيث تكون بموضع نظر الناس جميعاً ، وعلى المفهوم الذى تعطيه اللغة التى جاءت هذه النصوص بلسانها . . وبهذا يكون النصّ هو الذى يعطى الحكم للحقيقة التى ضُمّ عليها ، من غير أن يسمح لمتأول أو مضلل أو مدّع أن يحمل عليه معنى لا يحتمله لفظه ، ولا ينطق به منطوقه !

فالحقائق الدينية التى تجىء على هذا الوجه تشيع فى النفوس مشاعر الثقة بها ، والاطمئنان إليها ، فهى وإن لم يؤمن بها المكابرون والمعاندون — لما قام فى نفوسهم من حواجز العناد والكبر ، فإنهم — مع هذا — لا يجرءون على تكذيبها ، وإن جرءوا على الابتعاد عنها ، والنفور منها . . وهذا ما حكاه القرآن الكريم عن قريش وموقفها من الرسول الكريم ، وما كان يقع فى مسامعها من

آيات القرآن : « قد نعلم إنهُ ليَحزُنُك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذّبونك ، ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون »[١] !

وإذن فالعمل الذى ندعو إليه أرباب الأديان فى تصدّيهم لموجات الإلحاد الزاحفة من كل مكان ، هو أن يعرضوا — أولا — من النصوص الدينية ما يدفع حجج الماديين ، ويبطل مدّعياتهم على الأديان ، ثم ليشرحوا — ثانياً — مايحتاج من هذه النصوص إلى شرح ، على أن يكون ذلك فى حدود ما تعطيه اللغة فى مدلول مفرداتها ، وأساليبها ، دون أن تُقْتَسر هذه النصوص ، وأن يُلْوَى وجهها عن القصد الذى أقامها الله عليه على لسان أصحابها .

وفى هذا العرض للحقائق الدينية — على هذا الأسلوب — يمكن مقابلة الحقائق الدينية بواقع الحياة المادية . ومتطلبات الناس منها . . ثم ليكن للناس الخيار بعد هذا ؛ فى أن يذهبوا يميناً أو شمالا ، وفى أن يصحبوا الدنيا ، بلا دين ، أو فى أن يصحبوا الدين والدنيا جميعاً . .

— ٧ —

ونحن فى هذا البحث ، إنما نتحدث عن الإسلام باعتبار أنه دين قام على الحق المطلق أولا ، ثم قام على أنه دين الناس جميعاً ، وأنه الشريعة التى تصحب الناس ما صحبتهم الحياة ثانياً .

فالإسلام يقرر هاتين الحقيقتين ، ويعلن عنهما فى أكثر من موضع من كتاب شريعته— القرآن الكريم .

فمن الحقيقة الأولى يقول الله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل »[٢] —

---

(١) سورة الأنعام : ٣٣

(٢) سورة الإسراء : ١٠٥

ويقول سبحانه مخاطبا النبي الكريم: «وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض »[١] .

وعن الحقيقة الثانية يقول سبحانه، مخاطبا رسوله الأمين: « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله، النبي الأمي، الذي يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون »[٢] ويقول: «وما أرسلناك إلا كافة للناس، بشيراً ونذيراً »[٣] .. ويقول: « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[٤] .

والإسلام إذ يقرر هذا يدعو أتباعه إلى الإيمان، إيماناً مجملا برسل الله جميعاً، وبما حملوا إلى الناس من هدى ونور: « قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق، ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون »[٥] .

وبهذا كان الإسلام مجتمع الرسالات السماوية، وخاتم الدعوات الإلهية .. قد جمع ما تفرق منها، وحوى من أصولها ما يتلاءم والدعوة الجديدة التي يدعو إليها، ويصحب الإنسانية أبد الدهر عليها .

نقول: إننا ندعي للإسلام، أو بمعنى آخر إن الإسلام يدعي لنفسه أنه دين الحق، ودين الإنسانية كلها.. في أزمانها وأوطانها .

وهذه الدعوى تقتضي — لكي تكون مقبولة عاملة في الحياة — أن تسندها

---

(١) سورة الشورى : ٥٣
(٢) سورة الأعراف : ١٥٨
(٣) سورة سبأ ، ٢٨
(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧
(٥) سورة البقرة : ٧١٦

الأدلة ، وأن تدعمها البراهين ، تلك الأدلة والبراهين التى تخضع لأسلوب البحث العلمى على نحوٍ ما من هذا الخضوع ، بمعنى أن تثبت الاختبار العلمى ، وتتقبل التجربة الواقعية ، وتستجيب لها.. وبغير هذا تصبح هذه الأدلة وتلك البراهين ادّعاءات تتطلب لقبولها وإثباتها أدلة وبراهين . . . وهكذا إلى أن يقوم لها البرهان العملى ، والدليل التجريبى ، فيشهد لها الواقع الشهادة التى لا تُرَدّ .

وفى المباحث التالية عَرْض لهذه الدعوى ، وتمحيص لبراهينها.

* * *



دعوة الحق

◆ « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ... إن السَّمْعَ ، والبصرَ ، والفؤادَ ، كلٌّ أُولئكَ كان عنه مسئولا » .

[الإسراء : ٣٦]

◆ « ولقد ذَرَأْنا لجَهَنَّمَ كثيراً من الجنّ والإنس.. لهم قلوب لا يفقهونَ بها،ولهم أعين لايُبْصِرُونَ بها،ولهم آذانٌ لايسمعون بها ، أولَئك كالأنعام بل هم أضَلّ ، أولئك همُ الغافلون ».

[الأعراف : ١٧٩]

◆ «أرَأَيْتَ من اتخذ إلهَهُ هواهُ . . أفأنتَ تكونُ عليه وكيلا ؟ أم تحسَبُ أن أكثرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يعقلون ؟.. إن هم إلا كالأنعامِ ، بل هم أضلُّ سبيلا » .

[الفرقان ٤٣ ، ٤٤]

... ودعوة الهوى

◆ « إنى أومن بذلك .. لأن ذلك غير معقول » !!

« القديس أوغسطين »

◆ « لو أن أحداً قال لى : إن المسيح يُجَافى الحق، ولو أن هذا القول كان صحيحاً ؛ لآثرت البقاء مع المسيح ، على التزام الحق » !!

« دستويفسكى »

الباب الأول

الرسالة الخالدة



الرسالة الخالدة :

من أبرز ما يَميزُ الرسالة الإسلامية من غيرها من الرسالات السماوية هو ربطها بالعقل، وجعل أحكامها، وتشريعاتها فى متناول أوساط ذوى العقول من الناس، بحيث تبدو وكأنها بعضُ الحياة التى يحيونها، ويقلّبونها بين أيديهم، ويختبرونها بكل ماعندهم من وسائل الاختبار، فيَتقبّلُون منها ما يقبلون، عن اطمئنان وثقة، ورضى، دون أن يكون هناك تسلطات من خداع مادىّ أو أدبى، تغشى حمى العقل، وتلفّه بدخانها، وتغرقه فى ظلامها، فلا يملك العقل من أمره شيئاً، بل يتحرك حيث يحركه التيار المتسلط عليه، ويقف حيث يقف به !

من أجل هذا كانت رسالة الإسلام قائمة على طريق الخلود، تلتقى بالإنسان حيث كان، فى كل زمان، وفى كل مكان.. لأنها دعوة موجهة إليه توجيهاً مباشراً من السماء، ليس بينه وبينها أحد.. إلا الرسول الذى تلقاها من ربه، ثم تركها ميراثاً مشاعاً بين الناس جميعاً..

شرط واحد اشترطه الإسلام لمن يتلقّون عنه، ويدينون به، هو أن يتلقّوه بعقولهم، وأن يأخذوا أحكامه وتعاليمه عن نظر، وبحث واقتناع.. فمن لم يجد مقنعاً بعد البحث وتقليب النظر، فهو فى حلّ من أمره.. إذ « لا إكراه فى الدين قد تبينّ الرُّشد من الغىّ » . فإن الذى يقف إزاء الحق موقف الطالب له، المخلص فى البحث عنه.. لابد أن يلتقى به يوما.. إن لم يكن اليوم، ففى غد، أو بعد غد. !

الخلود وحدوده :

نَعْنى بالخلود هنا حين نَصفُ الرسالة الإسلامية به، الوجودَ الحىّ، القائمَ على الصحة والسلامة، والخلوّ من الآفات والعلل، التى تتسلط على الكائنات الحية وغير الحية — فتفسد طبيعتها، وتغير معالمها..

والإسلام — فى اعتقادنا ، كما هو فى الواقع — هو الدين الذى يستأهل هذا الوصف كاملا، على الحقيقة، لا المجاز ، فهو الدين الذى بُنِىَ من لَبِنَاتِ الحق المطلق، المصَفَّى من كل شائبة . . وبهذا لا يمكن أن تنال منه يد الأحداث والأزمان ، ولا أن تلحق به عوارض الشيخوخة والهرم . . بل هو دائماً فى شباب متألق متجدد ، وفى فَتَاء مشرق لا يغيب !

أما حدود هذا الخلود فهو مقدور بالحياة الإنسانية، وبالدور الذى تؤديه فى هذا العالم الأرضى . . طال هذا الدور أم قصر . . !

وعلى هذا ، فإن الإنسانية فى صحبة هذا الدين فى شباب متجدد ، وفى فَتَاء خالد ، وفى سير إلى الأمام دائما ، وعلى طريق النور والخير أبداً !

ومعذِرة إذ نرسل هذه الأحكام الخطيرة فى أقدارها وفى آثارها ؛ نرسلها هكذا على سبيل القطع والجزم ، من غير أن تقوم بين يديها أسبابها وحيثياتها !

ومعذرة أيضاً . . إذ كنا لا نستطيع فى « حضور » الإسلام ، أن نملك أنفسنا عن التصريح بهذه الحقيقة ، والمغالقة بها ، إذ كانت أقوى من أن تخضع لداعية التواضع، أو المداراة.. إنها من القوة والوضوح بحيث تفرض سلطانها على الوجود.. لا تعبأ برضى من يرضى أو سخط من يسخط . . فهكذا الحقائق المنزلة من السماء ، تمسك بهذا الوجود ، وتقيم نظامه . . دون أن تنتظر إذن الناس لها فى إعمال قواها ، وإظهار آثارها . . إنها من سنن الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الإسلام وأهليته لهذا الخلود :

وفى الإسلام حقيقة بارزة انفرد بها من بين الأديان السماوية وغير السماوية جميعها ، هى أنه الدين الوحيد الذى حَمَى نفسه حماية ذاتية مطلقة من أن يَدْخل على الحقائق التى ضُمّت عليها نصوصه ، وحملتها آياته وكلماته؛ ما يُبدِّل من أوضاعها، أو يغير من صورها وأشكالها .. ذلك أنه جعل لنصوصه وحدها حقّ الحديث عنه،

والترجمة عن مقاصده ووسائله، دون أن يجعل لأحد دعوى يدعيها فيه . بحجة أنه موكَّل من قِبَلِ صاحب الشرع بكشف أسراره، وفض خواتم مُغْلَقاته .. فليس لأحد — والأمر كذلك — أن يدعى هذه الدعوى فى مواجهة الشريعة الإسلامية، إذ أن نصوصها — ونصوصها وحدها — هى التَّرجُمان الناطق عنها، حسب مواضَعات اللغة التى نزل بها كتاب الشريعة، وحسب مدلولاتها الصريحة، كما يتعامل بها أهلها فى لسانهم، نثراً وشعراً، دون أن يُقبل من أحد قول فيها، إذا هو خرج عن محاميل الألفاظ والعبارات كما عهدها الناس فى تعاملهم بها .. « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِين، بلسانٍ عَرَبِيٍّ مبين[1] » .. فذلك هو لسان الشريعة .. لسان عربىّ مبين، أى بيّن المعنى، واضح الدلالة، لكل من يحسن اللغة العربية، ويفهم عنها !!

القرآن الكريم، وإن يكن كلام الله، سبحانه، فإنه لم يخرج بهذه الصفة عن متعارَف الناس فى اللغة التى نزل بها .. وبغير هذا ما كان يمكن أن يكون معجزةَ الرسول، ومناط التحدّى الذى دعا العربَ إليه، وأعجزهم عن القيام له .. فى أكثر من موضع منه .. كقوله تعالى: « وإن كنتم فى ريبٍ مما نزّلنا على عَبْدِنا، فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شُهَدَاءَكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تَفعلوا، ولَن تفعلُوا، فاتقوا النارَ التى وَقُودها الناسُ والحجَارة أُعِدَّتْ للكافرين[2] » .

ولا مُتَعَلَّقَ لهذا التحدّى إلا إذا كان مما تنزع إليه نوازع القوم، وتتطلع إليه مدركاتهم، وإلا إذا كان مما يقع موقع الفهم منهم، لروائعه، وأسراره، ودرجات علوه عنهم ...

يقول ابن خلدون: « واعلم أن أعظم المعجزات، وأشرفها، وأوضحها دلالة،

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ ، ١٩٥

(٢) سورة البقرة .. آيتا ٢٣ ، ٢٤

« القرآن الكريم » ، المنزّل على نبينا « محمد » صلى الله عليه وسلم . . فإن الخوارق — في الغالب — تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ، ويأتي بالمعجزة شاهدة على صدقه . . والقرآن هو نفسه الوحي المدَّعَى ، وهو الخارق المعجِز ، فشاهده في عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له — كسائر المعجزات—مع الوحي . . فهو واضح الدلالة ، لاتّحاد الدليل والمدلول فيه[1] » .

فأصحاب اللسان العربي يرون المعجزة السماوية ماثلةً لأعينهم ، واقعةً في عقولهم وقلوبهم ، كلما نظروا في آية من آيات الكتاب الكريم ، أو استمعوا إلى تلاوة ما يُتلى منه . . فهم أبدا في وجه معجزة قائمة بينهم ، يطالعونها في كل آية من آيات الكتاب . . يقرءونها ، أو يستمعون إليها . .

وليس هذا شأن الرسالات السماوية ، التي حملها رسل الله إلى أقوامهم .. فإنها وإن تكن قد جاءت كلها باللسان الذي يتعاملون به ، ويفهمون عنه ، حتى تقوم الحجة عليهم بأنهم استمعوا ، ووعَوْا ما بُلّغ إليهم من دعوة السماء — كما يقول سبحانه وتعالى : « وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم[2] » —

— إن يكن هذا عنصراً مشتركا بين الرسالات السماوية ، فإن بين الرسالة الإسلامية ، وبين غيرها من الرسالات السماوية فرقاً واضحاً في هذا المقام . . حيث كانت تقوم إلى جانب الرسالات السماوية — إلا الرسالة الإسلامية — معجزات مادية قاهرة ، هي التي كانت تعجز الناس ، وتحملهم على التصديق بالرسالة التي بين يدي الرسول . . ومن هنا كان التفاتهم إلى كلمات الرسالة وإلى مضامينها واقعاً وراء النظر في المعجزة أو المعجزات المادية التي بهرتهم وقهرتهم . . ومن هنا أيضاً كان إلى الرسول وحده شرحُ هذه الرسالة ، والكشف عن مضامينها . . وليس

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢ .
(٢) سورة إبراهيم : ٤ .

كذلك شأن الرسالة الإسلامية التى حملها القرآن الكريم ، حيث أنها هى وحدها مناط الإعجاز الذى من حق كل من يُدْعَى إلى الإسلام أن ينظر فيه، ويتعرف إليه، ومن أجل هذا كان المسلمون إلى جانب الرسول الكريم مدّة مُقامه فيهم.. يُمضون ما فى كتاب الله ، ويحكمون به ، على حسب ما أدّى إليه فهمهم لكلمات الله ، على الوجه الذى يفهمون به ما يُلْقى إليهم من كلمات اللغة العربية ، شعراً ونثراً ! ولهذا كان القرآن الكريم فى موضع النظر من كل مسلم على مدى الأزمان والأجيال ينظر فيه بنفسه ، ليعرف حجّة الله عليه فيه !

وهذا الوضع الذى كان للقرآن الكريم من أول أمره قد جعل المسلمين جميعاً فى مواجهة هذا الكتاب الكريم مواجهة دائمة متصلة ، فداروا حول القرآن فى كل اتجاه ، ورصدوه من كل مطلع ، وجاءوا إليه بكل ما يملكون من قوىً ذهنية ، ومَلَكات نفسية وروحية . . يدرسونه ، ويتدارسونه . . فما تركوا منه حرفاً إلا نظروا فيه نظراً مردّداً ، ولا كلمة إلا وقفوا إزاءها متأملين ، ولا آية إلا عاشوا فيها متوسّمين ، متعبّدين ! .. هكذا هم مع القرآن فى كل زمان ومكان .

ولك أن تحسب جميع العلوم التى اشتغل بها المسلمون منذ صحبوا القرآن إلى اليوم — أنها إنما كانت من أجل القرآن ،ولحساب القرآن !

فعلوم التفسير ، والقراءات ، والفقه ، والأصول ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والسِّير ، والتاريخ، والفلك ، والطب،والفلسفة والمنطق والخط.. وكل علم اشتغل به المسلمون — إنما كان ذلك كله لغاية واحدة، هى الكشف عن أسرار القرآن الكريم ، والعمل على صيانة مادته وحفظها !

وأمرٌ آخر . . يتضح منه فرق آخر بين القرآن ، وبين غيره من الكتب السماوية الأخرى . .

فقد تحدث القرآن عن نزول الكتب السماوية بلسان الأقوام التى بُعث فيها رسلهم . .

فقال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه لِيُبَيِّن لهم » . . فالرسول هو الذى يبين ما أُنزل إليه ، على حين أن قومه بمعزل عن المشاركة فى هذا البيان . .

أما حين يُذكر القرآن والصفة التى نَزَل عليها ،فيقول عنه الحق جلّ وعلا : « وَأنزَلنا إليك الذِّكر لِتُبَيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ، وَلَعَلَّهُمْ يتفكرون »[1]

وفى هذا نجد .

أولا : أن الله سبحانه وتعالى قد سمى القرآن ذكراً . . « وأنزلنا إليك الذكر » ..وفى هذه التسمية بالذكر تنبيه إلى ما ينبغى أن يكون عليه موقف الناس منه . . وهو أن ينظروا ، ويتدبروا ، ويتذكروا .

ثانياً : أنه سبحانه جعل فاصلة الآية هكذا : « ولعلهم يتفكرون » . . وفى هذا ما يكشف عن المعنى الخفى الذى ينطوى عليه كيان كلمة « الذكر » .

ثالثاً : فى قوله سبحانه مخاطباً نبيه الكريم : « لتبين للناس ما نُزِّل إليهم » لفتة كريمة رحيمة من الله سبحانه إلى هذه الأمة التى دُعيت إلى حمل رسالة الإسلام ، فالقرآن وإن نزل على النبىّ فهو منزل للناس ، ولخير الناس . .« ما نُزِّل إليهم» . . إنهم فى هذا يشاركون النبىّ فى هذا الذكر المنزل عليه وعليهم !.

هو كتاب النبى وكتابهم ، وهو معجزة النبى ومعجزة اللسان العربى ! تقوم بين كل مسلم وبينه صلةُ ما بين الصديق والصديق . . يَفهم عنه كلّ كلمة جاء بها ، وكل دعوة دعا إليها ، أو حذّر منها .

---

(١) سورة النحل ٤٤

وإذ كانت اللغة العربية هى تَرْجُمان القرآن ، ولسان أحكامه ومبادئه ، فقد نبه القرآن نفسُه إلى هذه الصلة الوثيقة القائمة بينه وبين اللغة العربية ، فجاءت كثير من آياته تحدّث بهذا الرباط الموثق بين اللغة العربية والقرآن الكريم : مثل قوله تعالى : « قرآناً عربياً غيرَ ذى عِوَجٍ »[1] . . وقوله سبحانه : « نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ . على قَلْبِكَ لتكونَ من المنذِرين . بلسان عربىٍّ مبين »[2] . . وقوله تعالى : « إنا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أمِّ الكتابِ لدينا لَعَلِىٌّ حكيم »[3] .

ومن أجل هذا فقد حاط المسلمون اللغة العربية حياطة قوية من أول يوم للإسلام معها . . يحرسونها كما يحرسون القرآن ، لأنه لا قرآن إلا بها . . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « تعلّموا اللّغة فإنها من دينكم »[4] .

يقول عمر هذا القول ، واللغة العربية كانت تجرى على اللّسان فى سلاسة ، ونصاعة ، وإشراق ، لم تصبها العُجمة بعد ، ولم تتبلبل بها الألسنة !

ولهذا الوضوح الواضح بين القرآن وبين كل أصحاب اللسان العربى فقد أمسك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يقولوا شيئاً فى معانى القرآن ، إذ لا داعية تدعوهم إلى شىء من هذا ، فكل من خوطبوا بالقرآن إذ ذاك كانوا يعرفون منه ما يعرف الصحابة أنفسهم ، إذ كلهم عرب خُلّص فصحاء ، لا فرق بين عربى وعربى ، إلا هذا الفرق فى الذكاء والفهم ، الذى يكون بين إنسان وإنسان !

ولهذا أيضاً ، فإننا لا نذهب مذهب القائلين بأن الصحابة — رضوان الله عليهم — إنما أمسكوا عن القول فى معانى القرآن تحرُّجا ، أو تهيّبا من التهجم

---

(١) سورة الزمر آية ٢٨

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ — ١٩٥

(٣) سورة الزخرف آيتا ٣ ، ٤

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٢٧

على مقامه ، وإنما نقول إن هذا الذى كان من عدم المأثور عن الصحابة فى تفسير القرآن ، أو قلته ، إنما هو لفقدان الداعى الذى يدعو إلى هذا التفسير . . فكل عربىّ كان على حظّه من فهم كلام الله ، حسب ذكائه ، وفطنته . . وإن كان الفهم حظًّا مشاعًا بينهم جميعا .

ولهذا فإنه ما كادت رقعة الإسلام تتسع ، وتضمّ شعوبا وأمما لاتحسن العربية حتى أقبل العالِمون بلغة العرب ، والفاقهون لأساليب بلاغتها وبيانها — أقبلوا على القرآن الكريم يفسرونه . . آية آية ، ثم كلمة كلمة ، ثم قامت إلى جانب هذا التفسير تلك الدراسات الكثيرة التى أشرنا إليها من قبل ؛ لِتُيَسِّر لغير العرب التعرفَ إلى اللسان العربى . . أولا ، ثم للتعرف إلى كتاب الله . ثانيا ! !

من أجل هذا ، فقد بقى القرآن الكريم — لا نعنى مادّتَه اللفظية وحسب بل ومعانيه التى نزل بها — بقى مصونا صيانة كاملة من أن يدخل عليه معنى غريب ، أو يتلبس به معتقد فاسد ، مما قد ينضح على النصوص التى لاتُضبَط هذا الضبط .. من تأويلات، وتفسيرات، وتغيير وتبديل، إذ لاحجاز يقوم بين المتسلطين على هذه النصوص من أصحاب الكلمة فيها — لا حجاز يحمى هذه النصوص ممن يدّعى لها الطّلْسَمَة ، ثم يعود فيتولى فك طلاسمها ، وحل ألغازها ، وكشف مُعَمَّيَاتها !

ولكى يتضح لك هذا الأمر، فإنه لابأس من أن ننظر نظرة فى الجانب المقابل للرسالات الإسلامية من الرسالات السماوية الأخرى .

وقفة مع الرسالات غير الإسلامية :

قلنا إن الرسالات السماوية كلها قد جاءت بألسنة الأقوام التى نزلت إليهم ، وباللغة التى يتفاهمون بها .

وقلنا أيضا إن الرسل وحدهم هم الذين كان إليهم تحديد مضمون الرسالة ،

وكشف محتواها، وليس لأحد من أتباعهم وحوارييهم أن يقوم هذا المقام فى الناس إلا بإذنهم !

وقد كان هذا التدبير لأمور منها :

أولا : أن مادة الرسالات السماوية — إلا الإسلام — كانت عند أصحابها بالمنزلة التى دون منزلة المعجزات المادية التى قدمها الرسول لهم ، بين يدى رسالته . . ومعنى هذا أنهم مذهولون أو مشغولون عن النصوص التى تحويها الرسالة ، بتلك المعجزات التى تملك عليهم تفكيرهم وتقديرهم .

وثانياً : تلك المعجزات المادية القاهرة التى كانت تقوم بين يدى الرسالات السماوية هى دليل على أن الإنسانية التى كانت تخاطب بتلك الرسالات، كانت فى دور لم تبلغ فيه الرشد بعد. وإذن فليس لها أن تستقل بفهم نصوص هذه الرسالات، وإلا فلو كان فى مقدورها أن تفهم كلماتها فهما صحيحاً واعياً لكان فى خطاب الله لها بكلماته ، وما تحمل هذه الكلمات من آيات بينات تدل دلالة قاطعة على قدرته ، وعلمه ، وحكمته — لكان فى خطاب الله لها بكلماته هذه ما يغنى عن تلك المعجزات المادية القاهرة . !

وهذا وذاك مما جعل إلى الرسول وحده أن يبين للناس ما حملت رسالته من عقيدة وشريعة !

لا شك أن هذا التدبير مع قيامه على الحق والحكمة والمصلحة ، لم يَحُلْ بين الناس وبين أن تقوم فيهم جماعات وطوائف تدّعى لنفسها دعوى فى تأويل الكتب السماوية ، وفى كشف ما خفى على الناس منها . . ثم شيئاً فشيئا أصبحت هذه الدعوى حقًّا مقدساً ، ينبغى أن يتلقاه الناس بالقبول والتسليم ، دون أن يوازنوا بين النصوص ، وبين المدلولات التى يستخرجونها لهم من هذه النصوص . .

إذ ليست النصوص عندهم إلا إشارات ورموزاً ، وليس غير هؤلاء السَّدَنَةِ المقربين المقدسين مَن يدلّ على هذه الإشارات ، أو يُنطق تلك الرموز !

أما الرسالة السماوية الإسلامية فقد جُعلت كلماتها فى أفواه أتباعها وفى عقولهم ، يتلونها ، ويفهمون عنها ما تحمل من تعاليم وأحكام . .

فكلمات القرآن التى تلتقى بالمسلمين ، وغير المسلمين ، ممن يفهمون اللغة العربية ويدركون دلالات ألفاظها ، ومعطيات تراكيبها — هذه الكلمات هى فى الواقع رسول قائم فيهم ، يبلغ رسالة السماء إليهم ، بلسان عربىّ مبين ، يفهم عنه الناس ما يفهمون من منثور أدبهم ومنظومه . . وبهذا كانت رسالة الإسلام خالدة ، متجددة ، تلتقى بأجيال الناس جيلا جيلا ، دون أن يعوزها مترجم يترجم عنها ، أو يجدد حياتها .

وانظر لترى عجباً ! :

لقد قامت فى محيط الإسلام دعوات غريبة ملتوية ، تريد أن تَدّعى على القرآن مثل هذه الدعوى ، فتجىء إليه بأهوائها ، ومذاهبها ، ومعتقداتها؛ ثم تحملها عليه وتضيفها له ، بدعوى أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأن فيه علمَ الأولين والآخرين ، وأنباء ما كان وما سيكون ، وأن ذلك محجوب إلا عن جماعة أخذت هذا العلم وراثة عن النبوّة ، أو إلهاماً من الله . .

نقول قامت فى الإسلام مثل هذه الدعوات المنكرة ، كما عُرف ذلك عن بعض غلاة الشيعة ، وعن جماعة إخوان الصفّاء ، ولكن لم يَكد يرتفع صوتهم بهذا الزور والافتراء على كتاب الله حتى تنكر لهم وجه الإسلام ، وأنكرهم المسلمون ، ونبذوهم نبذ المارقين الملحدين . . وسَرْعان ما أنكرتهم الأرض ، فلم تجعل لهم فيها مكاناً مطمئنا ، بل هم حيث كان لهم وجود ؛ فهو وجود صامت صمت أصحاب القبور !!

وبهذا ظل وجه الإسلام كما هو ، محتفظاً بكل سماته التى جاء عليها ، لم يتغير على الزمن ، ولم يتلوّن بتلوّن الأحداث والأشخاص .

أما الرسالات الأخرى فشأنها غير هذا الشأن . . كثير منها ذهب واندثر ، والقليل الذى بقى منها حُرِّف وبدل ، ثم صار رموزاً وألغازاً ، لا ينطق عنها ، ولا يكشف مضامينها إلا من أُذِن لهم بالقَوامة عليها ، والحديث عنها !

أتريد شاهداً على هذه الدعوى ؟

الشاهد ماثل بيننا الآن ، يتحدث حديثاً عالياً يملأ أسماع العالَمين ، تردده إذاعات العالم وصحفها صباحَ مَسَاء !

فالمجمع المسكونى يجتمع الآن[1] فى روما ، ويحتشد له رؤساء الدين المسيحى من كل أمة . .

وما لهذا كان حديثنا عن المجمع والمجتمعين فيه ، وإنما كان هذا الحديث لأمر أثار عجب العالم كله ودهشته ، وهذا الأمر قد عرض له المؤتمر ، وجعله من أولى المسائل الجديرة بالنظر والبحث ، والانتهاء إلى قرار حاسم فيها !

ولعلك عرفت الآن ما هو هذا الأمر الذى يقوم له المجمع المقدس ويقعد ، ويقدِّر ويفكر !

إنه إعادة النظر فى صَلْب المسيح ، وفى تبرئة اليهود من هذه الجريمة النكراء ، التى أدانهم بها العالم المسيحى ، خلالَ عشرين قرناً . . من موت المسيح إلى اليوم !

وحسنٌ أن يُعاد النظر فى أحكام الإدانة ، وأن تقلب وجوه الرأى فى أسبابها ومسبباتها ، فقد يكون هناك ما يكشف عن خطأ أو أخطاء فى الوقائع ، أو سوء فهم لها ، أو مجانبة للصواب فى وزنها وتقديرها ، فتبرأ بذلك ساحة المتهم ، ويرفع عنه الظلم الذى وقع عليه !

---

(١) خريف سنة ١٩٦٤

نعم هذا حسن ، بل وأكثر من حسن ، فإنه مطلوب شرعاً ، وعقلا ، وديناً ومصلحة !

والإسلام يزكّى هذا المبدأ ، بل ويرغّب فيه ، ويحض عليه . .

وهذا عمر بن الخطاب يسجل فى وثيقة بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاّه القضاء . . يقول فيها .

« ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيتَه بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهُديت فيه إلى رشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » !

ولكن أيجرى هذا المبدأ على إطلاقه حين يكون حكم الإدانة صادراً من السماء ، محمولا فى نصوص صريحة فى كتاب سماوى ؟ يمكن أن يكون ذلك فى وقائع التاريخ ، وفى الأحداث التى سجلها ، حيث أنّ يد الإنسان هى التى خطت صحف التاريخ . . والإنسان لا يخلو من غفلة أو نسيان ، أو هوًى ، ولا يَسْلم من الكذب والافتراء فى أغلب الأحيان ! فهل يظن هذا الظن بالكتب المقدسة ؟ وهل يُعاد النظر فى أخبارها وأحكامها ؟ . . ثم أيمكن أن تظل لها صفة القداسة ، وأن يقال عنها إنها مقدسة . . تُبْنَى عليها عقيدة ، ويؤسس عليها دين ؟

ماذا نقول ؟

إن ما يجتمع له المجمع المقدس الآن ، وما ينظر فيه خاصا بصلب المسيح يجعلنا نقول ، وبملء فمنا : نعم .. يمكن أن يُظَن هذا الظن بالكتب المقدسة ، ويمكن أن يعاد النظر فى نصوصها وأحكامها ! ! . . بل لقد أمكن ذلك فعلا ، ووقع يقيناً . .
وهاهو ذا المجمع المقدس يعيد النظر فى قضية قضى فيها الإنجيل قضاء مبرماً ! !

نعم ها هو ذا المجمع المقدس ، صاحب الكلمة فى الديانة المسيحية وفى كتابها

المقدس — يجتمع ليعيد النظر فى أحكام قاطعة صريحة، حملتها نصوص الإنجيل ، وسجلتها صحف التاريخ !

ومع هذا . . فقد خرج الأمر عن أن يكون فيه مجال للأخذ والرد . . فقد وقعت الواقعة ، وها هى ذى القضية بين يدى القضاة ، وها هو ذا الإنجيل بين أيديهم ، يتدارسونه ، ويقلبون وجوه الرأى فى آياته وكلماته ، ويعيدون النظر فى أحكامه ومقرراته .

ولسنا نملك بعد هذا إلا أن ندعوَ الله لهم بالعون فى أداء هذه المهمة التى تنوء الجبال بحملها !

الحق أننى مشفق أشدَّ الإشفاق ، مكروب غاية الكرب لهذه الجماعة الكريمة المتخيرَّة من رءوس الجماعات والأمم ، لأننى لا أدرى كيف تواجه الناس، ولا بأى حكم ستلقاهم به فى هذه القضية ؟ وبحسبهم من الحرج، بل والإثم أن جعلوا نصوص كتابهم المقدس التى تصرخ صرخات راعدة مدوية تقلق الزمن ، وتزعج أهله بما كان من اليهود فى تحدّى السيد المسيح ، والتطاول عليه بالقول وبالفعل ، وبمطاردته ، ثم استعداء الحاكم الرومانى عليه ، وتقديمه إليه لمحاكمته ، ثم الحكم عليه صلبا — بحسب هؤلاء السادة الكرام أن جعلوا هذه النصوص الصريحة من كتابهم المقدس محلاً للنظر، ومجالا للضغط القاتل لها .. حتى تنطق بغير ما نطقت به !

ليكن الحكم الذى ينتهى إليه المجمع المقدس فى هذه القضية ما يكون . . فذلك ربما اهتم له اليهود الذين لعبت يدهم بحذق ومهارة ومكر ، فى تحريك هذه الفتنة ، حتى تمكنت من إثارة هذه المسألة بعد أن عاش فيها أتباع المسيح عشرين قرنا ، يعبدون الله عليها ، ويقيمون صِلاَتِهِمْ باليهود على مضمونها .

واليهود على أىٍّ رابحون فى هذه الصفقة . . سواء صدر الحكم لهم أو عليهم .

فأولا : إذا لم يُصدر المجمع المقدس حكمه فى هذه المرّة لصالح اليهود ، فهى

سابقة ، استطاعوا أن يفتحوا بها هذا الباب الذى أُوصد من أول يومه ، وكان المعتقد ألا يفتح إلى يوم الدين ..

ومن يدرى ؟ فلعله إن فاتهم الحظ فى هذه المرة فإنه سيواتيهم فى مرة مقبلة !

واليهود الذين استطاعوا فتح هذا الباب الميئوس من فتحه ؛ لن يعجزهم بعد هذا أن يَدْخلوه ، وأن يعبثوا بما ضُم عليه من مقدسات !

وثانيا : هذا الموقف الذى ساق إليه اليهودُ المجمَع المقدس — أيا كان الحكم الذى سيصدره — فيه توهين للعقيدة الدينية عند المسيحيين ، وإثارة لموجات من الشك والإلحاد إلى جانب الموجات الكثيرة المتدافعة إليها من أمواج الإلحاد والشك ، حيث ينظر المسيحى إلى كتابه المقدس فيراه يُنقض من أساسه ، وتفقد أحكامُه وأخباره وجودَها الذى عرفته الحياة لها .

وفى هذا كسب عظيم لليهود الذين يريدون أن يسود العالَمَ كلَّه الكفرُ والإلحاد . . فالانحلال العقائدى والخلقى هو الذى يعطى اليهود مفتاح العالم ، الذى يطمعون فى سيادته ، ويحلمون بحكمه .

وثالثا : إذا صدر الحكم لصالح اليهود ، وحكم ببراءتهم من دم المسيح . . فانظر ماذا سيكون :

(ا) سيخرج اليهود من هذا السجن الكبير الذى حكم به عليهم العالم المسيحى ، منذ حادثة الصلب إلى اليوم .

(ب) سيطالب اليهود بالتعويض الذى لايكاد يُحصر أو يقدَّر ، عن هذا الاضطهاد الذى عاشوا فيه هذه القرون الطويلة ، وعن هذا الدم المسفوك الذى أُريق منهم ؛ انتقاما لصلب المسيح !

وإنهم لن يسكتوا عن المطالبة بالثمن لهذه الأضرار التى لحقت بهم على مدى

عشرين قرنا ، بعد أن ذاقوا طعم تلك التعويضات الضخمة التى حصلوا عليها من ألمانيا ، ثمناً لما أصابهم به « هتلر » من أضرار .. فى أنفسهم وفى أموالهم !

(ج) وليس يُعجز اليهودَ أن يقدموا كشوف حساب طويلة ، تحصر هذه التعويضات وتحدّدها ، كما أنه لن يعجزهم أن يحصلوا عليها من الأمم التى علّقوا هذه الديون بعنقها . إنهم سيتقاضونها بوسائلهم المعروفة .. سواء أكان ذلك الذى يتقاضونه مالا ، أو أسلحة وذخائر ، أو عواطف تفتح لهم مجالات الوظائف والأعمال فى المرافق الحيوية فى الدول .. فيستولون على خيراتها ، ويملكون مصائر الأمور فيها .

إن اليهود وحدهم هم الذين أفادوا فائدة محققة من إثارة هذه القضية ، وعرضها للنظر فى المجمع المقدس .. سواء أدانهم المجلس أو برأهم ! فهم بالإدانة لم يخسروا شيئاً — كما قلنا — لأنهم قد أدينوا منذ عشرين قرناً ، وسوّى حسابهم على هذا التقدير !

وندع هذا ..

وننظر فيما تقول الأناجيل فى هذه القضية .. فلربما يكون فيها مجال لمعاودة البحث ، والنظر .. وربما كان فى نصوصها ما يحتمل أكثر من محمل !

ففى إنجيل متى .. تجىء خاتمة الصراع بين المسيح واليهود هكذا :

« والذين أمسكوا يسوع مضوا به إلى قيافا رئيس الكهنة[1] ، حيث اجتمع الكهنة والشيوخ ... وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه ، فلم يجدوا ، ومع أنه جاء شهود زور كثيرون ، لم يجدوا ، ولكن أخيراً تقدم شاهدا زور ، وقالا : هذا[2] قال إنى أقدر أن أنقض

---

(١) قيافا هو الرئيس الدينى لليهود فى هذا الوقت .
(٢) الإشارة إلى السيد المسيح .

هيكل الله ، وفى ثلاثة أيام أبنيه ! فقام رئيس الكهنة وقال له : أما تجيب بشىء ؟ ماذا يشهد به هذان عليك ؟ وأما يسوع فكان ساكتاً ، فأجاب رئيس الكهنة وقال له : أستحلفك بالله الحىّ أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله ؟ قال له يسوع : أنت قلت . . وأيضاً أقول لكم : من الآن تُبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة ، وآتياً على سحاب . . فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه ، قائلا : قد جَدّف . . ما حاجتنا بعد إلى شهود ؟ ها قد سمعتم تجديفه . . ماذا تَرَوْن ؟ فأجابوا وقالوا : إنه مستوجب الموت . . حينئذ بصقوا فى وجهه ، ولكموه . . وآخرون لطموه قائلين : تنبأ لنا أيها المسيح مَن ضربك ؟ »

ويمضى إنجيل متى فى عرض هذه الأحداث المثيرة . . فيقول :

« ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع ، حتى يقتلوه ، فأوثقوه ومضوْا به ، ودفعوه إلى بيلاطُس البنطى الوالى » .

ثم يمضى إنجيل متى فى وصف هذه المحاكمة :

« فوقف يسوع أمام الوالى ، فسأله الوالى قائلا : أأنت ملك اليهود ؟

فقال له يسوع : أنت تقول ! وبينما كان الكهنة والشيوخ يَشْتَكُون عليه لم يُجِبْ بشىء ، فقال له بيلاطُس : أما تسمع كم يشهدون عليك ، فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة ، حتى تعجّب الوالى جداً .

« وكان الوالى مُعْتادا فى العيد أن يُطلق للجمع أسيراً واحداً ، مَن أرادوه . وكان لهم حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس ، ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس : مَن تريدون أن أطلق لكم ؟ باراباس أم يسوع الذى يُدْعى المسيح ؟ لأنه علم أنه أسلموه[1] حسداً ، وإذ كان جالساً على كرسىّ الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة إياك وذلك البارّ[2] ، لأنى تألمت اليوم كثيراً فى حُلم من أجله . ولكن رؤساء

(١) الضمير هنا للسيد المسيح .

(٢) تقصد السيد المسيح .

الـكهنة والشيوخ حرَّضُوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويُهلـكوا يسوع.. فأجاب الوالى وقال لهم مَن مِنَ الاثنين تريدون أن أطلق لـكم ؟ فقالوا باراباس ، قال لهم بيلاطس : فماذا أفعل بيسوع الذى يُدعى المسيح ؟ قال له الجميع ليُصْلَبْ ! فقال الوالى: وأى شرٍّ عمل ؟ فـكانوا يزدادون صراخاً قائلين ليُصْلَبْ ، فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً ، بل بالحرِى يَحدُثُ شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع ، قائلا : إنى برىء من دم هذا البار ، أبصروا أنتم . . فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا، وعلى أولادنا! حينئذ أطلق لهم باراباس،أما يسوع فجلده،وأسلمه ليصلب!![1]»

يا سبحان الله !

أبعد هذا الـكلام الواضح الصريح الذى ليست فيه كلمة واحدة تحتمل تأويلا ولا تفسيراً يكون لأحد أن يسأل: من هم قتلة المسيح ؟ أو يشك فى إدانتهم ؟

وماذا يُطلب من اللغة فى مقام التفاهم والإفهام أكثر من هذا الوضوح الذى يكاد يتمثل أحداثاً واقعة ، ووقائع مشهودة ، بشخوصها وشخصياتها . . الناطقة والصامتة جميعاً ؟

ولو كان للغة أن تمسك بالقتلة وتحتفظ بالقتلى وأدوات القتل لـكانت هذه الـكلمات خير شاهد فى هذا الشأن، ولـكن للغة طاقة فى نقل الأحداث وتصويرها، وحسبها أن تَلقى الناس كما عهدوها فى مقام التخاطب والتفاهم .

وليس إنجيل متى وحده هو الذى انفرد بتفصيل هذه الواقعة أو المأساة،ولـكن الأناجيل الثلاثة الأخرى — يوحنا ، ولوقا ، ومرقس — تجىء بأكثر تفصيلا ، ووضوحا مما جاء فى إنجيل متى . . إن كان بعد الذى جاء به وضوح أو تفصيل !

إننى فى حيرة لاتـكاد تنتهى عند حدّ لهذا الموقف الذى ساق المجمعُ المقدس نفسه إليه . . كلما قلّبت وجوه الرأى فى هذه المسألة ازددت حيرة وبلبلة !

---

(١) من إنجيل متى : الاصحاحان السادس والعشرون والسابع والعشرون .

عشرون قرناً والمسيحيون يؤمنون بهذه المقولات التى ضمت عليها الأناجيل فى شأن المسيح واليهود ، ويتعبدون بها ، وينظرون إلى اليهود من خلالها على أنهم قتلة المسيح وصالبوه . .

ثم . . .

ثم يجىء المجمع المقدس بعد هذه القرون العشرين ليعيد النظر فيها ، وليجد لليهود مخرجاً منها ! !

وكيف هذا ؟

لا تسأل . . فإن للمجمع المقدّس — فى أى وقت شاء — أن يقول ما شاء وأن يوجه نصوص الكتاب المقدس الوجهة التى يراها، دون أن يكون لأحد من أتباعه — على الأقل — أن يعترض ، أو يتمعض ! وليس لمن يفعل ذلك إلا الطردُ والحرمان من ملكوت الله !

ولا نستطيعُ أن نترك هذه القضية دون أن نتعرف إلى رأى الإسلام فيها ،لأن هذا التعرف يكشف لنا عن جوانب كثيرة من الأسس التى قام عليها هذا الدين ،وعن القوى الممسكة به، ليظل هكذا عاملاً فى الحياة، دون أن تنال منه الأهواء أو الأحداث.

وموقف الإسلام من هذه المسألة — كموقفه فى كل قضاياه وأحكامه — هو هو لم يتغير ، ولن يتغير أبداً . . إذ لا سبيل لأحد أن يغير أو يبدل فى كلمات الله . . وفى قوله تعالى : « وَأنزلنا إليك الكِتابَ بِالحقِّ مُصَدِّقًا لما بين يديه مِنَ الكِتَابِ ، وَمُهَيمِنا عليه(١) » ما يكشف عن هذه الحقيقة التى يقوم عليها القرآن الكريم ، وأنه يحمى نفسه من أن تنحرف كلماته ، أو أن تلتوى معانيه . . فهذه الهيمنة التى للقرآن الكريم على ما سبقه من كتب سماوية من ألزم مقتضياتها أن يكون القرآن الكريم نفسه بمنأى عن أن تلعب به الأهواء والعواطف ، إذ أنه لا يوصف الشىء بالهيمنة على شىء غيره إلا إذا كان له من ذاتيته ما يدفع عنه عدوان من يريد

(١) سورة المائدة آية ٤٦

الاعتداء عليه، وبهذا الفهم الذى فهمنا الآية الكريمة عليه يمكن أن نفهم الحفظ الذى فى قوله تعالى: «إنا نحن نزَّلنا الذِّكرَ وإنا له لحافظون»[1] لا على أنه مجرد الحفظ للقرآن فى منطوق ألفاظه وعباراته وآياته وحسب، كما نزل بها الوحى، بل وحفظ هذه الألفاظ والعبارات والآيات فى مفهومها أيضاً، على الوجه الذى فهمها عليه أصحاب اللسان الذين ينطقون باللغة التى نزل بها القرآن.

فموقف الإسلام من قضية المسيح وصلبه هى اليوم عند المسلمين كما كانت عند سلفهم الأولين منذ نطق رسول الإسلام بهذه الآيات فى مواجهة اليهود، وفى فَضْح ماضيهم الأسود الكئيب مع رسالات الله ورسله إليهم: «فَبِما نقْضِهم ميثاقَهم، وكفرهم، بآياتِ اللهِ، وقتلِهم الأنبياءَ بغير حق، وقولهم قلوبُنا غُلْفٌ، بَلْ طبع الله عليها فلا يؤمنون إلا قليلاً، وبكفرهم، وقولهم على مريم بهتاناً عظيما، وقولهم إنا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريمَ رسولَ اللهِ، وما قتلوهُ، وما صَلَبُوهُ، ولكن شُبِّهَ لهم، وإن الَّذين اختلفوا فيه، لفى شكٍّ منهُ مالهم به من علم إلاَّ اتباعَ الظن، وما قتلوه يقيناً، بل رفعهُ اللهُ إليه، وكان الله عزيزاً حكيما[2] ».. لقد وقع عليهم إثم قتله، إذ قتلوه فى تدبيرهم وتقديرهم، ولكن «ما قتلوه يقيناً»، إذ عصمه الله منهم، وأبطل كيدهم..!

فمنطوق هذه الآيات ومفهومها ينطويان على:

أولا: أن اليهود لهم تاريخ — قبل المسيح — مخضب بدم الأنبياء والرسل الذين بُعثوا إليهم، وفى هذا يقول الله تعالى فى موضع آخر من القرآن الكريم مخاطبااليهود وفاضحاً لهم: «أفكلَّما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتلون»[3]..

---

(١) سورة الحجر.. آية: ٩

(٢) سورة النساء.. الآيات ١٥٥ — ١٥٨

(٣) سورة البقرة.. آية ٨٧

وهذا التاريخ الأسود المشئوم لليهود يسجله الإنجيل على لسان المسيح عليه السلام . . ففى إنجيل متى يقول السيد المسيح مخاطباً أورشليم – مركز الحياة الدينية لليهود يومذاك :

« يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسَلين . . إلَيْها كَمْ مرةٍ أردتُ أن أجمع أولادك كما تَجْمَعُ الدَّجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا . . هوذا بيتكم يترك خراباً[1] » .

ثانياً : أن اليهود قد حملوا للمسيح بِغْضَةً متوارثة منذ يومه الأول معهم ، وأن المسيح لم يكن نصيبه منهم من الشغب والعناد ، ومن الإيذاء والإيلام ، بأقل ممن سبقه من الأنبياء الذين التقوا بهم .. ولهذا ضاق بهم المسيح ذرعاً ، وصب عليهم اللعنات صبًّا ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : « لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عَصَوْا ، وكانوا يعتدون » . . وعلى لسان المسيح نفسه كما جاء فى إنجيل متى : « يا أولاد الأفاعى . . كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار ؟[2] » !

إنه الشرّ الذى تفرزه تلك الطبيعة المندسة فى دم اليهود كما تفرز الأفاعى سمومها . . وأنهم ما زالوا بالمسيح يلاحقونه بالأذى ، ويرمونه بالتهم حتى ساقوه إلى ساحة الإعدام !

ثالثاً : أن اليهود يشهدون على أنفسهم — بما سجل القرآن عليهم — أنهم قتلة المسيح ابن مريم . « وقولهم إنا قتلنا المسيحَ عيسىَ ابنَ مريمَ ، رسولَ الله » .. كما سجل عليهم الإنجيل ذلك الإثم العظيم ، فيما نقلناه من قبل . وما ذكره القرآن هنا من وصف عيسى بأنه رسول الله فيه تغليظ لجرمهم الشنيع ، سواء أكان هذا

---

(١) إنجيل متى : الإصحاح الثالث والعشرون .

(٢) إنجيل متى : الإصحاح الثانى عشر .

القول من مقولهم ، إمعانا منهم فى الاستهزاء به ، وتطاولا وتحد يا لله ، ومبارزة له سبحانه ، بالهزء برسله والعدوان عليهم .. أو كان هذا الوصف من عند الله سبحانه تكريما لعيسى ، ووعيداً لمن آذوه ، وسعوْا فى قتله .

والمعنى الأول يستقيم مع ما ورد فى الإنجيل .

رابعاً : يكذّب القرآن الكريم الادعاء اليهودى بأنهم قتلوا المسيح ، كما يخالف ما جاء فى الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين منذ انتشرت المسيحية ، إذ كلها مجمعة على أن اليهود هم الذين ساقوا المسيح إلى ساحة الإعدام ، وطلبوا إلى الحاكم الرومانى أن يعدمه حسب شريعتهم ،لأنه خارج على الشريعة والقانون، ولأنه ينازع قيصر حكمه، إذ يدعى أنه ملك اليهود.. واليهود — كما صرحوا بذلك بين يدى الحاكم الرومانى — لا يعترفون بغير قيصر حاكما ، وقد هددوا الحاكم الرومانى بأنه يكون غير مخلص لقيصر إذا هو ترك هذا الذى يدّعى المُلك دون أن يقتصّ منه . .

تقول : إن القرآن يكذب اليهود فى هذا الادعاء ، كما أنه يخالف ما جاءت به الأناجيل من أخبار عن هذه الواقعة . فيقول القرآن : « وما قتلوهُ وما صلبوهُ ، ولكن شُبِّهَ لهم » ، وهذا يعنى أن اليهود الذين حاصروا المسيح كانوا حريصين على أن يقتلوه ، وأنهم لم يهدأوا، ولم تسكن لهم ثائرة حتى ساقوه إلى ساحة الموت، وحتى وقع فى حسابهم أنه قتل فعلا . ولكن الحقيقة كانت على غير هذا الحساب . . ! فالمسيح لم يقتل ، ولم يصلب !

هذا هو حكم القرآن فى واقعة القتل والصلب ، وهو حكم قاطع لاشك فيه ، ولا ارتياب معه ! فلتقل الدنيا كلها ما تقول . . فإن الحق كله فيما قال القرآن وحده ! وسينكشف وجه الحق يوماً !

أما كيف شُبّه لليهود أنهم قتلوه ، وأما كيف أفلت المسيح ونجا من القتل الذى

كان يراد له ، فذلك أمر لم يتعرض له القرآن ، لأنه ينأى بنفسه عن أن يدخل فى جدل ومهاترات . فى جزئيات هى من حواشى الحقيقة التى يريد تقريرها ! وفى هذا ما يعوق الأنظار عن التعلق بالصميم من الحقيقة المراد عرضها ، وهى أن اليهود قد وقفوا من المسيح هذا الموقف الأثيم ، وأنهم ساقوه إلى الصلب ، ولكن الله عصمه منهم ، على حين باءوا بهذا المكر الذى دبروه !

أما من يشهد للقرآن بصدق هذه الدعوى ، فهو القرآن الكريم ذاته ، فما قال قولا ، أو أخبر بخبر وقع أو سيقع إلا كان كما نطق به ، وإلا جاءت الأيام شاهدة بأنه الحق الذى لا مرية فيه ، وإن وقع من بعض الزائغين والملحدين موقع الشك والارتياب قبل أن تنكشف الأيام عنه ، فإذا انكشف وجه الحق اسودت وجوه الكافرين المكذبين .

وفى هذه الواقعة بالذات — واقعة قتل المسيح وصلبه على ما يعتقد اليهود والنصارى معاً . يقرر القرآن أن المسيح لم يقتل ولم يصلب .. « وما قتلوهُ يقيناً . . بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيما » .

يقرر القرآن هذا ، ثم يدع الذين يعتقدون خلاف هذا المعتقد فى غَيهم وضلالهم يَعْمَهون . ! حتى تجىء الأيام بما نطق القرآن به . ! وستجىء من غير شك . . إن لم يكن اليوم ففى غد،أو بعد غد !

وأرانا قد وقفنا طويلا — ربما إلى حد الإملال — عند هذه الجزئية ، ولكن ساقنا إلى هذا أمران :

أولهما : هذا الموقف الراهن الذى يدور فيه البحث بين أعضاء المجمع المقدس المسيحى فى تبرئة اليهود من دم المسيح ، وفى ذلك تحدٍّ صارخ لنصوص الأناجيل ، ولمعتقد المسيحيين مدة عشرين قرنا . . وقد دارت رءوسنا لهذا الموقف الذى لا ندرى كيف أباح القوم لأنفسهم الدخول فيه ، ثم لا ندرى كيف يكون المخرج منه . !

وثانيهما : أن عرض هذا الموقف يجلّي لنا عن وجه من وجوه الإعجاز القرآنى، ويكشف عن حقيقة مشرقة من حقائق الإسلام ، وأنه دين يحمل فى كيانه كل القوى التى تدفع عنه تسلط الأهواء والمنازع البشرية من أهله أو غير أهله ،إذ ليس لأحد إزاء نصوص القرآن دعوى يدعيها فى فهم خاص له ، خارج عن مدلول اللغة ، ومتعارف أهلها عليها ، فى مفرداتها وتراكيبها .

ولنضرب لهذا مثلا :

صرح القرآن الكريم بأن أبا لهب وامرأته سيصليان نار جهنم ، بسبب إصرارهما على الكفر ، وتعرضهما للنبىّ الكريم بالأذى ، قولا ، وفعلا . وقد أعلنهما القرآن الكريم بهذا الحكم، وواجههما به، وهما أحياء ، فلم يكن لهما فكاك عنه ، ولا تحول إلى الإسلام، كما تحول كثير من مشركى قريش ، الذين كانوا على شاكلتهم . . وفى هذا يقول الله سبحانه : « تبّت يدا أبى لهبٍ وتبّ ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالةَ الحطب ، فى جيدها حبلٌ من مَسَد . » !

ونسأل : أيجرؤ أحد من المسلمين ، أو غير المسلمين على أن يهمس ولو فيما بينه وبين نفسه بأنه يمكن النظر فى هذا الحكم الذى حكم به القرآن على أبى لهب وامرأته ؟ إن من يفعل ذلك ولو على سبيل المعابثة والمماحكة يستخزى من نفسه ، كما يستخزى الذى يتعرّى من ثيابه — مضطرا — فى ميدان عام ، على مرأى من الغادين والرائحين !

وليس هذا فى قضية أبى لهب وحدها ، بل هو فى كل قضية من قضايا الإسلام التى عرضها القرآن الكريم ، وفى كل حدث من الأحداث التى تحدث بها ، والوقائع التى كشف عنها . . ليس فيها جميعاً إلا قول واحد، هو ما نطق به القرآن، وما تعطيه دلالات كلماته .

لقد حمى القرآن نفسه من تطاول المتطاولين إليه ، وادعاء المدعين فيه ، وقطع السبيل على كل من يدعى لنفسه وحده حق القول فيه ، وأقام الناس جميعاً على مقام سواء منه ، ينظرون فيه بما معهم من مفاهيم اللغة العربية ودلالاتها ، و إن أى خروج على هذه المفاهيم وتلك الدلالات من حق المسلم — كل مسلم — بل من واجبه أن يرفضه ، وأن يرده على أهله .. أيًّا كانوا ، وكان مبلغهم من المعرفة والعلم !!

وبهذا بقى القرآن متصلا باللغة العربية هذا الاتصال الوثيق ، وبقيت اللغة العربية إلى جانب القرآن ، حارساً أميناً يحرس مضامينه من الأهواء والضلالات .. ومن هذا ندرك السر فى حفاظ المسلمين على اللغة العربية ، والعمل على حياطتها وحمايتها من أن تتحول على الزمن إلى أخلاط من اللغات المختلفة — الأمر الذى يذهب باللسان الذى هو ترجمان القرآن ، وحارسه من التأويلات المنحرفة ، والتفسيرات القائمة على الغرض والهوى .

* * *

وندع هذا .. ونعود لما كنا فيه من أن الحياة المتجددة فى الإسلام لا تجىء إليه من تلك الإضافات والتغييرات والتعديلات التى يُدخلها أتباعه عليه ، دون أن يتقيدوا بمفاهيم نصوصه ودلالاتها اللغوية ، كما يفعل ذلك أصحاب الديانات الأخرى .. وإنما تجىء الحياة المتجددة للإسلام من تجدد نفوس أتباعه ، وتهيئها للتفاعل مع أحكامه وشرائعه !

فالإسلام هو هو ، فى أحكامه وشرائعه ، وإنما يتلون بلون الإناء الذى يحل فيه فإذا استقبلته نفوس سليمة مستقيمة بدا هو سليما مستقيما ، وإن استقبلته نفوس عليلة معوجة ، بدا عليلا معوجاً ، على حين يظل هو فى ذاته سليما معافىً .. يؤثّر ولا يتأثر ويعطى ولا يأخذ .. وهكذا الحق دائماً ، أشبه بالمرآة الصقيلة . تظهر الأشياء على

صفحتها كما هى، فيبدوا الجميل جميلا، والقبيح قبيحاً .. دون أن يدخل عليها شىء من جمال الجميل أو قبح القبيح !

وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « إن الله لا يُغيِّر ما بقومٍ ، حتى يُغيِّروا ما بأنفسِهم » . . فتغيير النفوس ، لا تغيير النصوص وتحريفها — هو الذى يعطى الدين الإسلامى المظهر الذى يظهر به فى الحياة ..

يقول « جولد تسيهر » فى كتابه « العقيدة والشريعة فى الإسلام » :

« فالأديان التى تؤخذ عقائدها ، وأشكال أعمالها من مراجع مقدسة محددة ، تجىء تطوراتها الفقهية والاعتقادية من أعمال الشرح والتفسير التى تفسر بها الكتب المقدسة ! !

« وتاريخ الأديان فى مثل هذه الدائرة يساوى تاريخ التفسير المكتوب ، ويتفق فيها إلى حد كبير جدا مع الإسلام الذى يتراءى تاريخه الداخلى فى الطرق التى شرحت بها كتبه المقدسة »[1]

وهذا القول وإن انطبق على الكتب المقدسة التى أعطى أصحابها الحقّ لطائفة منهم أن يؤولوها ويفسروها على الوجه الذى يريدون ، وإن خالفوا نصوصها ، وخرجوا خروجاً صريحا عليها — فإنه لا يصدق على القرآن ، كتاب الشريعة الإسلامية . . فما كانت الشروح التى شُرحت بها نصوص القرآن ، ولا الفقه الذى فقهه المسلمون منه هو الذى حدد موقف المسلمين من الإسلام ، وباعد أو قارب بينهم وبينه ، ولو كان ذلك كذلك لكانت العصور التى انحلت فيها عُرى الدين ، وضعُف فيها سلطان الإسلام والمسلمين هى أزهى عصور الإسلام ، وأكثرها إشراقاً وألقاً، بما جدّ فى نصوص القرآن والسنة من دراسات، وما وقع عليه الدارسون

---

(١) كتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٦٦

والباحثون من حقائق ، فى عصرنا الحديث هذا ، وفى العصر العباسى على امتداده الطويل !

ولكن الواقع كان على غير هذا ، فإنه حيث كان يلتفت المسلمون التفاتا قويا إلى مناقشة قضايا الشريعة الإسلامية ، وتحليل نصوصها — كانوا حينئذ يتشاغلون ، ويُشغَلون عن تمثّل هذه القضايا ، والاستقامة عليها ، والعمل بمقرراتها ! .

* * *

وقداسة القرآن الكريم ليست بالتى تجعل بينه وبين الناس — كل الناس — حجبا وأستاراً ، يقوم عليها سَدَنة وحجاب ، وينطق باسمها كهان ورهبان، وإنما هى قداسة حِيَاطة لكلماته ، ومحافظة على نصوصه من التحريف والتبديل . . وإنه لكى لا يكون لأحد يد على تلك الرسالة الخالدة فقد تولى الله سبحانه وتعالى حفظها ، وضمن بقاءها ، بهذا الوعد الصادق الذى وعد به سبحانه فى قوله : إنّا نَحنُ نَزّلْنَا الذِّكرَ ، وإنا له لَحافِظون » . . فحفظ نصوص القرآن ، وحياطته من التبديل والتحريف هو مما تولاه الله عن المسلمين، ليصرفوا عنايتهم وجهدهم للنظر فيه وتدبّر آياته . . ولهذا تعبّدهم الله سبحانه بتلاوته ، وجعل دعاءهم وصلاتهم من كلماته وآياته ..!

وليس كذلك الكتب السماوية الأخرى ، فقد جعل الله سبحانه حفظها إلى رسله الذين حملوها ، ثم جعل إلى أتباعهم حفظ ما حفظهم الرسول إياه، دون أن يغيّروا أو يعدّلوا ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « إنّا أنزلْنَا التوراة فيها هُدًى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والرَّبانيونَ والأحبارُ بما استُحفِظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شُهَدَاء[1] » .

فالربانيون والأحبار هم الذين إليهم حفظ ما أنزل الله إلى رسلهم ، يؤدونه إلى عبادِ الله كما تَلَقّوْه ، من غير تبديل أو تحريف .

---

(١) سورة المائدة : ٤٤ .

هذا ، ونود أن نُلفت النظر إلى ما قد يثار من اعتراض هنا على تلك الدعوى التى يدّعيها الإسلام من صلاحيته لكل زمان ومكان — هذا الاعتراض الذى يدفع تلك الدعوى بالواقع المشاهد ، الذى يبدو فى عجز الإسلام عن تلبية حاجات العصر، والاستجابة لمطالب الحضارة والمدنية ، وأنه بقصوره هذا قد حجز أتباعه فى هذا الأفق الضيق المجدب من الحياة، فأمسك بهم عن التطور، وقيّد خطواتهم بقيود ثقال.. وكان من ذلك أن تعثروا فى الحياة ، وتثاقلوا عن النهوض إلى تلك المجالات الفسيحة ، التى تعمل فيها يد العاملين ،من أمم الحضارة والمدنية ! !

قد يقال هذا أو نحوه .

فكيف يكون للإسلام بعد هذا أن يغيِّر أوضاع أتباعه ، وأن يقيم لهم فى الحياة طريقاً قاصدا مستقيما ، وأن يدفع بهم فى مزدَحم العاملين فيها ؟ أذلك ممكن من غير أن تتبدل نصوصه ، وتتغير أحكامه ؟ وإذا كان ذلك مما يمكن أن يقع فى الشريعة الإسلامية ، أفيكون ذلك — بعد هذا — هو الإسلام كما جاء به القرآن ، وبلّغه الرسول ؟ أو أنه دين جديد ، يحمل دعوى جديدة ،لم يقم لها شاهد يشهد بصدقها ؟ وإذن أفلا يكون من حق الناس أن يَلْقوا هذا الوجه الجديد للدين بالشك والارتياب ؟ أو بمعنى آخر : ألا يقع فى حساب المتدينين بهذا الدين . . أنه ليس مما جاءت به السماء، وإنما هو مما اصطنعه أصحاب الأهواء ليتسلطوا به على الناس، وأنهم إنما خرجوا به عليهم من أفق الدين ليُلقوا فى روعهم شيئاً من الاحترام له، وليظلوا هم محتفظين بما لهم على الناس من سلطان روحى من جهة الدين !

هذه النظرة إلى الدِّين قد وقعت فعلا فى نفوس أصحاب الأديان التى ذهب بها أربابها وأصحاب الكلمة فيها مذاهب شتى ، من التأويل والشرح . والمثل الماثل أمامنا الآن هو المسيحية ، وما تسلط عليها من شروح وتأويلات باعدت بين الناس وبين ما تنطق به نصوصها . .

فأين مسيحيو اليوم من دعوة السيد المسيح ، وما وعته الأناجيل من وصاياه ؟

يقرأ المسيحيون كلَّ صباح ومساء قول السيد المسيح : « قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تَزْنِ .. وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فإن كانت عينك اليمنى ، تُعْثِرُكَ فاقْلَعْها وارمها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يُلْقَى جسدُكَ كلّه فى جهنم ! ! » .

ويقرءون كل صباح ومساء قول السيد المسيح أيضاً : « سمعتم أنه قيل : عين بعين ، وسِن بسنٍّ ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرّ ، بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضا . . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . . من سألك فَاعْطِه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده . . ! »

وهم يقرءون ويرتلون دعوة السيد المسيح : « لا تَكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يُفْسِدُ السوس والصدأ ، وحيث ينقّبُ السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا ينقّب سارقون ولا يسرقون . . لا يقدر أحدكم أن يَخدُم سيّدين . . . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال . .[1] »

أين مسيحيو أوربا وأمريكا . . بل وكل مسيحيٍّ العالم من هذه التعاليم الإنسانية المثالية الرفيعة ؟

إن الناس فى واد وهذه التعاليم الواضحة الصريحة فى واد . . وهم — مع هذا — يحسبون أنهم على شريعة هذا الدين ، بما اصطنعوا له من تأويلات وتخريجات ! ولكنّ الذين يتصلون بالإنجيل ، ويعرضونه على عقولهم يرون ديناً غير الدين الذى هم عليه ، ويسمعون حديثاً غير هذا الحديث الذى يُسمعهم إياه الأحبار والرهبان ! !

ومن هنا كان مُستَنَد أولئك الماديين الذين يتشككون فى الأديان، ويستبعدون

---

(١) إنجيل متى : الاصحاح السادس .

إن تكون أصولها مرتبطة بالسماء ، إذ لو كان أمرها كذلك لما قبلت هذا التحوير والتبديل ، الذى يجريه عليه أتباعها ، بل وَلَمَا جَرُؤ أرباب هذه الأديان على أن يلعبوا بها هذا اللعب ، ويمسخوا وجوهها هذا المسخ ، الذى يبدل خَلْقَهَا ، ويضيّع معالمها !

يقول الماديون فيما يقولون هنا : إذا كان الدين — أى دين — يفرز عصارات حسب استدعاء الناس له ، لِسدِّ تلك الفجوات التى تحدث بينه وبين الحياة ، حتى يتقبل تطوراتها ، وحتى يتسع لاستيعاب كل ما تلده الحياة من حقائق العلم والفن — فإن ذلك معناه :

أولا : أن حقائق الدين ، التى تقبل مثل هذا « المط » ، وتتحمل هذا الجرى اللاهث بها إلى كل مجال ، ليس لها فى ذاتها قدرة على الإلهام والتوجيه ، إلى تلك الغايات التى دفع بها الدافعون إليها ، وإلا لكان لها ذلك من أول أمرها مع الناس ، ولأعطتهم كل ما فى كيانها منذ اتصلت بهم واتصلوا بها !

وإن أحسن ما يفترض لحقائق الدين هنا هو أنها ربما تُضمِر فى كيانها مضامين التقدم والحضارة التى تظهر فى كل عصر ، حتى إذا ما سعى الناس سعيهم فى الحياة وبلغوا غاية بعينها تلفت بعض المهتمين بالدين — أو المشفقين عليه — إلى مقررات الدين فشدوها شداً إلى تلك الغايات التى بلغها الناس فى العلم والفن ، وخَيَّلوا إليهم منها أن الدين هنا ! ! وأنه حيث تكون الحياة ، وحيث يبلغ الناس منها !

وهذا على ما به من شطط فى التكلّف والتعسف ، يجعل الدين مفسِّراً للحياة ووقائعها بعد أن تقع ، وليس هادياً أو موجهاً ، كما ينبغى للدين أن يكون !

ثانياً : لا يمكن أن يَسلَم هذا التأويل لمقولات الدين التى تُمَطُّ مطّاً ، حتى تتسع لمنطق العصر ومحدثاته وتتقبلها — لا يمكن أن يسلم من اتهام أصحاب هذا الدين ودعاته بتحريف الكَلِم عن مواضعه ، وإقحام مفاهيم جديدة للشريعة ، وربما إدخال نصوص عليها ، أو إخراج نصوص منها ، لتستقيم مع جديد الحياة ، الذى

فاتها ، ولتقيم منها شاهداً على حيوية الدين ، واستجابته لحاجات الناس ، واقتداره على امتلاك وجودهم الدينى والدنيوى جميعاً ، على مدى الأمكنة والأزمنة !

وهذا أقل ما فيه أنه يفسد الثقة التى ينبغى أن تكون قائمة على أوثق ما يكون، بين الدين وأهله ، حيث يرى الناس كل يوم للدين الذى يعتقدونه وجهاً جديداً ، مخالفاً لما عرفوه عنه .. الأمر الذى يصبح معه الدين ضرباً من الشكوك، تلتهب فى عقول الناس وقلوبهم ، وإذ يصل الأمر إلى هذا الحد تكون مجانبة الدين ومجافاته خيراً من صحبته ، والحياة معه ! !

ونسأل :

أيصدق هذا التصوير بمقدماته ونتائجه على الإسلام ؟ بمعنى أن استجابة نصوصه للتأويل والتفسير الذى يكشف منها عن وجوه جديدة فيه تتلاقى مع وجوه الحياة المعاصرة — هذه الاستجابة أيكون من معناها أنها تُدخل على الإسلام ما ليس منه ، أو تَعْدِل بنصوصه عن وجهها الذى من حقها أن تستقيم عليه ؟

والحق أننا فى الإجابة على هذا السؤال ينبغى أن نُفَرِّق بين موقفين يقفهما المسلمون من القرآن الكريم . .

فهناك موقف الذين ينظرون إلى القرآن على أنه كتاب علم ، حوى أسرار الوجود كلها ، ما علمه الناس ، وما سيعلمونه ، وما لن يعلموه . . وهم بهذا يفسرون القرآن الكريم تفسيراً علمياً . . وهم فى هذا بين مقتصد ، وظالم لنفسه ، معتد على كلمات الله !

وهذا الاتجاه بجميع صوره وأشكاله، ليس الوجه الذى قام عليه فهمُ المسلمين للقرآن ، وأخذ أحكام شريعتهم وتعاليمها منه . . وإنما هو دراسات خاصة لبعض المسلمين ، يريدون — عن نية حسنة — أن يقيموا للقرآن وللإسلام حجة فى وجه

المدنية الحديثة وعلومها وفنونها . وهذا العمل ، وإن بدا أنه يخدم القرآن ، فإنه معول هدم للقرآن من حيث لا يشعر الممسكون به ![1]

أما الموقف الآخر فهو الموقف الذى ينظر فيه الناظرون إلى القرآن الكريم من خلال دلالات اللغة ، ومعطيات ألفاظها وأساليبها على النحو الذى شرحناه آنفاً ، وقد عرفنا أن القرآن الكريم فى حياطة قوية من ذاتيته ، وفى ضمان وثيق من اللغة التى ظلت وستظل — إن شاء الله — قائمة إلى جواره ، تردّ عنه كل عادِيَة ، وتدفع كل نظر مريض ينْظر إليه .

هذا ، وينظر غير المسلمين من علماء المستشرقين إلى القرآن نظرتهم إلى الكتب السماوية الأخرى ، ويسوّون حسابهم معه على ما أسفرت عنه تجارب الحياة مع تلك الكتب، وما أجرى عليها رجال الدين من تحوير وتبديل، غيَّر معالمها، وعَدَلَ بها عن طريقها الذى كانت قائمة عليه . .

يقول « جولدتسيهر » : ومن الخطأ الخطير أن يُنسب للقرآن أكبر القيم فى بيان طابع الإسلام بوجه عام ، كما أننا من باب أولى لا نستطيع أن نؤسس حكمنا على الإسلام مستندين إلى هذا الكتاب وحده — المقدّس لدى المسلمين !

ثم يقول : « والواقع أن هذا الكتاب لم يَحكم الإسلامَ إلا فى خلال العشرين السنة الأولى من نموّه !

« ففى خلال حياة الإسلام التاريخية كلها ظل القرآن فى رأى أتباع دين محمد عملا أساساً محترماً باعتباره مُوحًى به . . كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى حد لم يظفر به أى عمل من الأعمال الأدبية العالمية !

ثم يتابع هذا القول :

« ولكن بالرغم من أن الإسلام فى أطوار نموه التالية قد اتخذ القرآن أساساً

---

(١) انظر رأينا فى هذا فى كتابنا إعجاز القرآن ـ الجزء الأول ص ٨ وما بعدها .

— وهذا أمر طبيعي — وبالرغم من أنه كان يُوزَن به جميع منتجات العصور المتأخرة، وبالرغم من أن كل شيء قد تُصُوِّر أنه متفق معه، أو حُووِل تصور ذلك — بالرغم من هذا كله فإنه لا يمكن أن نتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن يكفي وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية . . .

« إننا لا نفهم الإسلام بلا قرآن . . . ولكن القرآن وحده بعيد عن أن يكفي لمواجهة العقلية الإسلامية النامية في سيرها الطبيعي . .

«وهكذا يظهر غير صحيح ما يقال من أن الإسلام في كل العلاقات جاء إلى العالم طريقةً كاملة، بل على العكس، فإن الإسلام والقرآن لم يتمما كل شيء، وكان الإكمال نتيجة لعمل الأجيال اللاحقة ! » .(١)

وهذا هو بيت القصيد من هذه المقولات . . الإسلام ليس إلا مجرد حركة إصلاحية أدت دورها في بيئة خاصة، ولوقتٍ محدود .. ثم ظلت هذه الحركة واقفة حيث هي مجمَّدة في زمانها ومكانها . . على حين انطلق المسلمون يأخذون من الحياة وجودَهم ، وإن ظلت مشاعرهم تحمل لهذه الحركة ذكريات يطوف حولها المسلمون كما يطوف المرء بمقبرة ضمت على رفات إنسان عزيز عليه !

أفهذا هو التشريع الإسلامي ، وتلك هي كل معطياته التي يمكن أن يعطيها الناس وللحياة ؟ ذلك هو ظن من لا يفهم رسالة الإسلام ؛ ولا يدرك مافي كتاب الشريعة من قوًى حيّة متجددة ، تزيدها الحياة والحركة قوة وإشراقاً . .

يقول جولد تسيهر استكمالا لخطته التي اختطها .

« والقرآن نفسه لم يُعطِ من الأحكام إلا القليل ، ولا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلها مما جاء من الفتوح ،فقد كان مقصورا

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر ص ٤٤

على حالات العرب السَّاذجة ، ومَعْنِيًّا بها ، بحيث لا يكفى لهذا الوضع الجديد([1]) »

وهذه تهمة ترددت كثيراً ، ولا تزال تتردد هنا وهناك، على ألسنة الغربيين والمستغربين .. وقد تعرض لدفعها والردعليها كثير من العلماء والفقهاءوالدارسين.. ولـكن لم يخرج الأمر عن دائرة الجدل الخَطَابِي الذى لا يُنتج إلا مزيداً من الجدل والعناد !

وأستبيح لنفسى فى هذا الموقف أن أقول قولةً أراها تقطع هذا الجدل ،وتُنْهِى ما بين المتجادلين من نِزَال وطِعَانٍ . . فنقول : هذا هو القرآن وحده ، فى دلالة ألفاظه الصريحة ، وفى منطوق اللغة العربية ومفهومها ، غير مستند إلى تخريجات الفقهاء ، وتأويلات العلماء.. فلينظر فيه كل من عرف اللغة العربية ، وأدرك معطيات أساليبها ، ثم ليعرِضْ أى حكم من أحكامه ، وأية دعوة من دعواته على أعلى مستوًى بلغته الحياة اليوم ،فى أى مجال من مجالاتها، فإن وجد فى هذا الحكم أوتلك الدعوة عِوَجاً، أو انحرافاً ، أو قصوراً ؛فإن له أن يخرج من الإسلام إن كان مسلماً ، وأنا كفيل بحمل هذه المسئولية عنه ديانةً ، يوم يقوم الناس بين يدى الواحد الدّيان !.. شىء واحد فقط هو الذى اشترطه فى هذا الموقف، وهو أن يُخْلِيَ الناظر فى كتاب الله نَظَرَه من الهوَى ، وأن يجعل نظره قائما على المنهج العلمىّ ، الذى تُختبر به حقائق الأشياء ، اختباراً مستنداً إلى التأمل ، والفحص ، وتقليب وجوه النظر فى كل اتجاه ، ووزن كل صغيرة وكبيرة تقع فى دائرة نظره !

أقول هذا القول فى قوة وإصرار ، وأنا أقدّر أن بعض من لا يفهم الإسلام فهماً سليما واعياً — يشفق ، أو يفزع من هذه الدعوة ، ويرى فيها باباً يفتح لمرضَى القلوب والعقول مدخلا إلى التحلل من الإسلام ، وقطع ما بينه وبينهم من صِلات ..

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧ .

وأقول لهؤلاء المشفقين ، أو الفَزِعين : لا عليكم ؛ فإن مَعدِن الإسلام معدن كريم ، وجوهره جوهر نفيس ، يزداد على النظر روعة وجمالا ، وعلى التقليب كرماً ونفاسة . . فلتأخذه الأبصار من كل جهة من جهاته ، ولتتناوله العقول فى كل وضع من أوضاعه . . ثم ليقبل عليه من يُقْبِلْ وليُعرِض عنه من يعرض . . فإنه : « لا إكراه فى الدين .. قد تبيّن الرشد من الغَيِّ » .. وإنه لمن حق الإنسان ــ كل إنسان ــ أن يستوثق لدينه ، وأن يتعامل مع مبادئه وأحكامه على هُدًى وبصيرة ، وعلى استيقان واطمئنان . . وإنه بغير هذا لا يكون الدين ديناً ، ولا يكون المتدينون على دين : « ليهلِكَ مَن هَلَكَ عن بَيِّنةٍ ويَحيَا مَنْ حَيَّ عن بيِّنة » !

* * *

بقى بعد هذا أن ننبه إلى أن هذا العرض الذى سنعرض فيه بعض حقائق الإسلام ، ليس فيه جديد من أى وجه من وجوهه ، بل هو حقائق مقررة من أول يوم للإسلام ، وأن القرآن الكريم ، والسُّنة المطهرة هما اللذان يعرضان هذه الحقائق ، على ما عرفها المسلمون يوم التقوْا بالإسلام ، وارتضوْه ديناً .

وليس هذا العرض ــ كما قلنا ــ إلا تذكيراً بمبادىء الإسلام وبحقائقه ، فإن كثيراً من المسلمين قد نَسُوها ، وكثير من غير المسلمين قد فهموها على غير وجهها !

وفى هذا العرض سيتضح أن الرسالة الإسلامية رسالة خالدة ، وأن حقائقه وتعاليمه التى عاش بها وفيها أعراب البادية ، وأبناء الصحراء ؛ هى التى تعتبر الآن ثوباً فضفاضا لما يمكن أن تعيش فيه أرقى الشعوب حضارة ومدنية ، وسموًّا .. فى الحياة العقلية والروحية والنفسية جميعاً .

ونود أن ننبه أيضاً إلى أن حقائق الشريعة الإسلامية ليست مجرد نظريات فسفية ، أو قضايا منطقية ، تعيش لحساب العلم والمعرفة ، وإنما هى منهج تربية ،

وأسلوب تعليم وتوجيه ، ومادة غذاء للعقل والروح .. ومن هنا كان منظوراً إليها من خلال الإنسان ، محسوبة بحسابه ، مقدَّرة بتقدير ما فيه من خير وشر ، وقوة وضعف ، وعلو وإسفاف .. فهو ـ أعنى الإنسان ـ ليس مَلَكا من عالم الخير والنور ، وليس شيطاناً من عالم الشر والظلام ، وإنما هو من طين هذه الأرض التى تُنبت الحلو والمر ، وتخرج النافع والضار ، وتلد الطيب والخبيث !

لهذا ، فإننا قبل أن نلتقى بما نريد عرضه من حقائق الإسلام ، سنقف وقفة مع الإنسان ونظرةِ الشريعة الإسلامية إليه .. فإن النظرة إلى الإنسان فى أفراده وجماعاته لا بد أن تسبق عمل أى مُشَرِّع يشرِّع لأية جماعة ، حتى يجىء القانون الذى يريدهم عليه وافياً بالغرض الذى يهدف إليه من وراء هذا التشريع .. وإنه بقدر ما تتعمق نظرة المشرع فى أغوار النفس الإنسانية ، وبقدر ما تتعرف إلى أدواء الإنسان وعلله بقدر ما يكون لتشريعه من الأثر والنفع .

ولهذا أيضاً .. فإننا سننظر فى نظرة الإسلام إلى الإنسان ، وفى تقييمه له بين المخلوقات ، لنرى مدى ما بين التشريع الإسلامى وبين قوى الإنسان ومَلَكاته النفسية والروحية من تجاوب وتساند !

* * *



الباب الثاني

الإنسان ونظرة الإسلام إليه



الإنسان كائن أسمى من حيوان

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة ، تضعه فوق مستوى الكائنات الحية جميعها ، في هذا الكوكب الأرضي ، الذي جعله الله خليفته فيه ، حيث أن من مقتضيات الخلافة أن ينضوِيَ إلى سلطانها كل كائن يقع في دائرة مُلكها الذي تقوم عليه !

والقرآن يصرِّح بأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض ، وأنه إذ سوّاه ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بأن يسجدوا له ، احتفاء به ، وتكريماً لمولده .. وفي هذا يقول الله تعالى : « وإذ قال ربك الملائكة إني جاعل في الأرض خليفةً ، قالوا أتجعل فيها من يُفْسد فيها ويَسْفك الدماء ، ونحن نسبِّح بحمدك ، ونقدِّس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون،وعلم آدم الأسماء كلَّها ، ثم عَرَضَهُم على الملائكة فقال أنبِئُوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانَك لا عِلْمَ لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئْهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيبَ السموات والأرض ؛ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى،واستكبر وكان من الكافرين »[1] .

وفي هذا الامتحان الذي يُعْقَد للملائكة في الملأ الأعلى ينكشف عجزهم ، حيت لا يعلمون شيئاً إلا ما يعلِّمهم الله إياه ، ثم يُدْعى إليهم آدم ليعلمهم ما عجزوا عنه ، وليقوم فيهم هذا المقام الذي لم يعهدوه من قبل إلا من الله — وهذا الامتحان هو في الواقع تكريم فوق تكريم لآدم ، وإعلان عمليّ عن تلك القوى التي

---

(١) سورة البقرة : الآيات من ٣٠ ـ ٣٤

اودعها الله سبحانه وتعالى فيه ، واختصَّ بها ، والتى تستأهل فعلا أن يسجد له الملائـكة من أجلها سجود إجلال وإعظام ، بعد أن رأوْا من علمه ما رأوا !

هذه إحدى حقائق الإسلام عن الإنسان ، يعلنها الإسلام فى وضوح لا يقبل جدلا ، ولا يحتمل خلافا . !

فالإنسان فى نظر الإسلام ، هو بحق سيد ما على هذه الأرض من كائنات ، وأن إليه أمر سياستها وتدبير شئونها .. وليس هو هذا المخلوق الذى حَقَّت عليه اللعنة، ولبسته الخطيئة المتنقلة فى أبناء آدم جيلا بعد ،جيل والتى هى ميراث مقسوم بينهم، كل آخذ بنصيبه منه ! كما تقرر ذلك بعض الديانات التى تحـكم على الإنسانية هذا الحـكم القاسى ، الذى يُدين الإنسان من غير جريرة اقترفها أو ذنب جناه ، والذى يجعل مواليد الإنسانية كلها ؛ كائنات معطوبة مشوَّهة ليس فيها إنسان واحد ولد سليما معافى من هذا الداء الخبيث.. فأين هذا من نظرة الإسلام إلى الإنسان ، ووضعه بهذه للمنزلة الرفيعة التى تجعل الملائـكة فى مقام الساجدين له ؟

وأين هذا مما يصف به القرآنُ الـكريمُ الإنسانَ ، وكيف قام خَلْقُهُ على أجمل مثال ، وأحسن تقويم . . حيث يقول الحق سبحانه : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فى أحسن تقويم[1] » . . ويقول : « يأيها الإنسان ما غرَّك بربِّك الـكريم الذى خَلَقَكَ فسوَّاك فَعَدَلَك ، فى أيِّ صورة ما شاء ركَّبك[2] » . ويقول : « ولقد كَرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرِّ والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[3] » .. أفيلتقى هذا الخَلْق فى أحسن تقويم ، وهذه التسوية والاعتدال ، وهذا التـكريم والتفضيل على كثير من المخلوقات — أيلتقى هذا مع تلك اللعنة التى تَلبس الإنسان لباس الروح للجسد ؟ والتى تقضى عليه — سَلَفًا —

(١) سورة التين : آية ٤
(٢) سورة الانفطار : الآيات ٦ — ٨
(٣) سورة الإسراء : الآية ٧٠

بالضياع والبوَار ، فلا تستشرف نفسه لخير ، ولا تتطلع روحه إلى مشارف الخير والسرور ! ؟

بل أين من هذا تلك النظرات المريضة المتشائمة ، التى تنظر بها الفلسفات الحديثة إلى الإنسان ، والتى تراه أتعس المخلوقات وأشقاها ، وأنه حشرة حقيرة ، ودودة قذرة ، يعيش فى « مزبلة » الحياة . . أو أنه ليس إلا « قرداً » خلقه الله ليتلهى به فى أبديته الطويلة — كما يقول « نيتشه » ؟

إن هذه النظرة المتشائمة تقتل فى كيان الإنسان كل أمل وطموح ، وتسد فى وجهه منافذ الرحمة والرجاء فى الخلاص من أى سوء ينزل به . . بل إن عليه — بحكم هذه الفلسفة — أن يتقبل لطمات الحياة ، وأن يطلب المزيد منها ، فإنه ما خلق إلا ليُلْطَم ، ويعذَّب ، ويشقى ! وليس له من سبيل إلى الخلاص إلا اليأس من الخلاص ! وليس له من وجه إلى الراحة إلا أن يفقد هذه الحياة ، ويلبس ثوب العدم !

أما القرآن الكريم ، فإنه يتحدث إلى الإنسان حديثاً يملأ صدره بدفء الأمل وَسَعة الرَّجاء . . ويفتح عينيه على صفحات مشرقة للوجود ، تغريه بالوقوف عند كل موجود ، والالتفات إليه ، والتجاوب معه ، والافتتان به : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه »(١) . . « وسخر لكم الفُلْكَ لتجرى فى البحر بأمره ، وسخّر لكم الأنهار ، وسخَّر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كلِّ ما سألتموه ، وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها . . إن الإنسان لظلوم كفّار(٢) » . .

فحيثما تلفت الإنسان فى هذا الوجود ، وجد كل ظاهر وخفى منه؛ مسخراً له ، كأنما لم يخلق إلا من أجله ، ومن أجل تحقيق رغباته . . ومن هنا أحس الإنسان

---

(١) سورة الجاثية آية ١٣ .
(٢) سورة ابراهيم آية ٣٤

هذا الإحساس الذى أقام فى تفكيره أنه مركز هذا الكون ، وأن كل شىء فيه حوله . . هذا التفكير هو الذى كانت تقوم عليه الفلسفة القديمة ، تلك الفلسفة التى كانت تأخذ مادتها من أحلام الإنسان ورؤاه ، قبل أن تأخذها من عقله المعربد المثخن بجراحات الصراع بينه وبين الوجود . .

نقول إن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض !

ولقد أثبت الإنسان أنه أهل لهذه الخلافة ، وجدير بهذه الثقة التى أشهد اللهُ عليها ملائكتَه . .

فإن الإنسان منذ ظهر على هذه الأرض وهو يستخرج خَبْأَهَا ، ويفتح مغالقها ، ويملأ يديه من كل خير فيها . .

لقد غيّر الإنسان وجه هذه الأرض ، وأخضع كل ما فيها لسلطانه ، فنَسّقَها هذا التنسيق البديع ، وعمَّرَها بكل غريب وعجيب ، فأحال قفرها عامراً ، ووحشها مأنوساً ، وظلامها نوراً . . فكل ما على الأرض اليوم من معالم الحضارة والمدنية هو من صنع الإنسان ، ومن نِتَاج تفكيره ، وثمرة يده ، لم يشاركه فيه كائن آخر ، إلا على أن يكون مسخراً له ، خاضعاً لسلطانه .

لقد وَضَع الإنسان يدَه على هذه الأرض وهى عالم موحش فسيح ، ليس فيها إلا الأدغال والأحراش ، ثم ما زال معها فى صراع وكفاح حتى جعل منها اليوم هذا العالم الزاخر بألوان الحياة ومفاتنها .

ولو كان الإنسان مجرد حيوان لما فارق تلك المناطق التى تعيش فيها الحيوانات ، ولرضى أن يتخذ له مكاناً بينها على أية صورة من الصور ، بل إنه لو كان مجرد جسد حىٍّ لقنع بمطالب هذا الجسد ، من طعام وشراب وسكن ولباس ، ولما حاول أن يحمّل ذاته هذه المطالب ، وأن يكسوها ألواناً من الحسن والبهجة ليُرضِىَ من نفسه نوازع حب الجمَال ، وتعشّق الحسن ، من كل منظور وغير منظور .

إن المادية بمنطقها الجاف ، الذى بُنى منه العقل الحديث ، تفرض على الإنسان فرضاً أن ينفصل عن هذه المشاعر ، وأن يتخلّى عن هذه الأحاسيس التى ترُود موارد الروح ، وتحلق فيما وراء الحسّ ، لتتملّى فى وجوه هذا العالم السحرىّ ، ولترشف منه رَشَفَاتٍ ، يندَى بها القلب ، وتتفتح مغالقه .

إن الماديّة الحديثة لتقف للإنسان بالمرصاد ، تذود مشاعره أن تطلب غذاءها فى هذا العالم ، الذى تترقرق أمواجه وراء المحسوس .. من تأملات هائمة ، ونظرات مشدوهة والهة إلى هذا الوجود ، الذى لا تمسكه حدود ولا قيود . . فإن مثل هذه التأملات وتلك النظرات — عند الماديين — ليست إلا أوهاماً وخيالات وقَبْضَ الريح ، لا يحصّل المرء من ورائها شيئاً يجده فى يده ؛ وبين سمعه وبصره !

الإنسان فى هذا التقدير :

ولك أن تتصور الإنسان — أى إنسان — وهو يعيش هذه الحياة — فى مجال تلك النظرة المادية — منزوعَ المشاعر ، مسلوب الأحاسيس . . ! إنه يعيش فى سجن مظلم رهيب . . لا يبصر فيه بارقة أمل ، ولا لمعة رجاء . . إنه يعيش مغلقاً على نفسه ، فى لحظة عابرة ، منقطعة عن الماضى والحاضر جميعاً . . إنه إنسان لا تاريخ له . . فالماضى أحداث وذكريات بَلِيَت وتعفّنت لا تستحق الوقوف عندها والالتفات إليها . . والمستقبل أمانىّ ، وأوهام وخيالات . . فمن السَّفَه الاشتغال بها ، ووضع الأقدام على خَوَائها .

ولو كان الإنسان حيواناً من تلك الحيوانات الدنيا . . كدودة مثلا — لاحتمل هذا الوضع الذى يريده له أولئك الماديون . ولـكنه عالم صغير ، يقابل هذا العالم الـكبير ويناظره . فيه صفو هذا الوجود وكَدَرِه ؛ وسكونه واضطرابه ، وعلوه وانحداره ، وسمائه وأرضه ، ونوره وظلامه .. فهيهات أن يقبل طائعاً مختاراً هذا الوضع الذليل المهين ، أو يسكن إليه ويقنع به !

إنّ هذه الفلسفة المتشائمة السوداء ، التي تجلّل الحياة بهذا الظلام الكثيف في هذا العصر، إنما هي في الواقع وليدة هذه المآسي التي ولّدتها الحرب العالمية الأولى، ثم نمّتها وضاعفتها وزادتها شناعة وفظاعة الحربُ العالمية الثانية، وما خلّفت وراءها من ويلات وفواجع ، وما تركت في أعماق النفس الإنسانية من نُدوب وجروح لا تلتئم .

هذه الفلسفة المتشائمة السوداء قد جعلت الناس اليوم فريقين : فريقاً أخذ الحياة بواقعها، وتلقّاها بعقله التجريدى ، دون أن يُلقى عليها نفخة من روحه.. فإذا الحياة عنده ليل دامس ، لا تبرق فيه بارقة خير أو رجاء . . وقادة هذا الفريق هم العقليون العمليّون، الذى يحيلون كل شيء إلى أرقام وعمليات حسابية.. وفريقاً آخر تجاوز هذه الحياة الواقعة ، وأبى أن ينزل على حكمها فلقيها عابثاً هازئاً . . وعلى رأس هذا الفريق الإباحيون وأصحاب الدعوات التحلّلية التي تخلى الإنسان من كل قيد خلقى ، أو دينى ، أو اجتماعى . .

ومن هنا كان هذا التناقض الواضح فى سلوك الناس . . حيث تقوم الحياة المتزمتة المتشائمة ، إلى جانب الحياة المتحللة .. الهازلة .. وحيث يقوم اليأس المطبق الخانق ، إلى جوار الاستهتار الهسترى المسعور !

الدين والعداوات المضمرة له :

ولاشك أن هذه النظرة إلى الحياة فى صورتيها : المتزمتة المتشائمة ، والمتحللة الهازلة— هذه النظرة لاتحفل بالدِّين، ولا تقف عند مقرراته، بل إنها تلقاه بالعداوة ، وترميه بالشنآن والبغضة ، إذ تَعُدّه « مخدراً » تتبلّد به مشاعر البلهاء ، وتخمد به أحاسيس الدّهماء ! وهو لا يعدو أن يكون من حِيَل القادة والزعماء ، وذوى الأطماع والأهواء، يُنيمون به الناس عنهم ، حيث يقيمون لهم فيما وراء هذه الحياة عالماً مليئاً بالوعود الخلابة والأمانى العِذاب . . عالماً مفعما بموائد الطعام والشراب ، وألوان

المتع والملذات ، ليجدوا فى هذا عزاء لما فاتهم من هذه الحياة ، بل وليتخلع كثير منهم عما فى يده من حطام هذه الدنيا ، ليسعى حثيثاً خفيفا إلى تلك المائدة المعدّة له فى الملأ الأعلى ! . . من أجل هذا كان الدّين هو العدو الأول لأصحاب المذهب المادى بأطرافه كلها، لأنه — كاقلنا — يعارض الحياة العملية الواقعية، التى يحيون فيها على أى وجه يتقلبون فيه ، وعلى أية فلسفة يقيمون عليها نظرتهم إلى الحياة . . ذلك أن الدين — أى دين — يحمل فى صميم تعاليمه إيماناً بأمور غيبية وراء الحسّ ، كما يحمل وعودا وآمالا . . تتحقق فيما بعد الحياة الدنيا !

الإسلام والعقل الإنسانى :

العقل العلمى العملى الذى ولد لهذا العصر ، والذى مكّن للغرب من هذه الانتصارات التى تكاد تكون معجزات قاهرة ، يقف أمامها العقل نفسه مبهوراً مذهولا — هذا العقل نريد أن نضعه فى الميزان إزاء العقل الذى نشّأه الإسلام وربّاه ، لنرى أى العقلين أقرب إلى الكمال ، وأكثر حيوية ونشاطاً ، وأصفى مورداً ، وأطيب ثمرة !

ربما كان من العسير أن نضع عقلا إسلامياً فى عصور الإسلام الزاهرة إزاء عقل غربى فى العصر الحاضر أو عصر النهضة ، أو العصر اليونانى ، أو الرومانى ، فمثل هذا العمل لا يمكن أن تضبط فيه الحدود والملامح ولا أن تحدد فيه العناصر والوجوه التى توضع فى كفتى الميزان ، هنا وهناك ! . . ذلك لاختلاف الأزمنة والأمكنة ، والأحوال ، ومنازع الحياة .

ولعل خير ما يمكن أن نصنعه هنا ، هو أن ننظر فى المنهج الذى يربّى عليه كلّ من العقل الإسلامى ، والعقل الغربى المعاصر ؛ إذ كانت هذه التربية هى « البوتقة » التى يصنع فيها العقل ، الذى تتحدّد به مجالات النشاط الإنسانى، وتتشكل صوره وألوانه .

المنهج الذى رُبِّى عليه العقل الغربى الحديث قام على دعامتين : —

أولاهما : الحرية المطلقة ، فى تناول موجودات الوجود كلها ، والنظر فيها ، دون أن يكون هناك حاجز بينه وبين أى موجود .. ظاهر أو خفى ، سماوى أو أرضى .

وثانيتهما : وضع هذه الموجودات فى « بوتقة » التجربة الحسية ، وتفتيتها ، وتشريحها ، وتقليبها على جميع الوجوه الممكنة لها .

ولقد كان من هذا أن وقف هذا العقل من الوجود موقفاً حيادياً ، أشبه بموقف القاضى حين ينظر فى عناصر قضية من القضايا ، يجرّد لها عقله من كل عاطفة أو شعور، حتى لتتمثل أمامه عناصر القضية ، وكأنها أرقام فى عملية حسابية .

إنه ليس بين هذا العقل العلمى المعملى وبين الموجودات التى أدخلها فى معمله ، وأعمل فيها مشرطه وصُبّت عليها أحماضه — شىء من التعاطف الذى تخلقه الأحاسيس والمشاعر . . إنه ينظر إلى الوجود وموجوداته نظرة باردة فاترة ، ليس فيها شىء من هذا التوهّج الانفعالى ، الذى يولّد العواطف ، وينمّى المشاعر ، التى يتعامل بها الإنسان مع آيات الجمال ، وروائع الحسن المنبثة فى هذا الوجود .

أما النهج الذى رُبّى عليه العقل الإسلامى فإنه إذ يقوم على هاتين الدعامتين التى قام عليها العقل العلمى الحديث فإنه يستصحب معه هذه المشاعر والأحاسيس، التى تجعل رابطة التعاطف بينه وبين الموجودات قائمة لا تنفصم أبداً ، بل إنه كلما إزداد العقل اتصالا بالأشياء ، كلما زاد تعاطفه معها ، وإحساسه بها !

وهذه دعوى تحتاج إلى دليل فى جانب العقل الإسلامى . . إذ كان ما للعقل الغربى واقعاً ملموساً ، لا يحتاج إلى دليل !

والأدلة التى نقدمها لدعوى العقل الإسلامى هذه، إنما نقدمها من أوثق وثيقة،

ومن أصدق كتاب ، لا ينازع أحد فى صدقه ، وسلامته من التحريف والتبديل ، من يوم أن ظهر إلى هذا اليوم .. ونعنى بهذا القرآنَ الكريم .. دستورَ الشريعة الإسلامية وكتابها .

لقد دعا القرآن العقل دعوة قوية حارة ، إلى إعمال قوته وسلطانه فى هذا الوجود .. فكل شىء فى هذا الكون — من ظاهر وخفىّ — هو فى ولاء وخضوع للعقل ، إذا عرف العقل كيف يروضه ويقوده .. وليس هناك شىء محظور على العقل أن يدعوه إليه ، وأن يبسط عليه سلطانه ، من كل ما فى هذا الكون الرحيب ، فى أرضه وسمائه ..

فالكون كله كتاب مفتوح للعقل ، يقلب صفحاته ، ويقرأ ما يشاء من سطوره وكلماته .. فى جهر أو سر ، وفى وحدة أو اجتماع .

وفى هذا يقول الله سبحانه : « قل انظروا : ماذا فى السموات والأرض[1] » . ويقول : « وسخَّر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه[2] » ..

ولا يقف القرآن عند هذه الدعوة الآمرة : « انظروا » ، ولا عند حدود هذه النظرة التى تشمل الوجود ومافيه : « مافى السموات ومافى الأرض » ، بل إنه يعرض دعوته هذه فى صورة مغرية ، تتفتح لها أشواق القلب ، وتستجيش لها مشاعر الافتتان والإعجاب فيه .. استمع إلى قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزَيَّنَّاها ، ومالها من فُرُوج .. والأرضَ مددْناها ، وألقينا فيها رواسِىَ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تَبْصِرةً وذكرى لكل عبد مُنيب ، ونَزَّلنا من السّماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحَبَّ الحصيد ، والنخلَ باسقاتٍ لها طَلْعٌ نضيد .. رزقاً للعباد ، وأحْيَينا به بَلْدةً ميْتاً كذلك الخروج[3] » وإلى قوله

---

(١) سورة يونس ١٠١
(٢) سورة الجاثية : آية ١٣
(٣) سورة ق : الآيات ٦ — ١١ .

سبحانه : « ألم تر أن الله يُزجى سَحَابًا ، ثمّ يؤلّف بينَه . . ثم يجعله رُكَامًا . . فترَى الوَدْقَ يخرج من خِلاله ، وينزِّل من السماء من جبال فيها من برَدٍ فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنَا برْقه يذهب بالأبصار . . يقلّبُ الله اللّيلَ والنهار..إن فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار[1] » وإلى قوله : « وَهُوَ الّذى أنشأ جنات معروشات وغيرَ معروشات . . والنخلَ والزرعَ مختلفاً أُكُلُهُ والزّيتونَ والرمانَ متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثَمَرِه إذَا أثمرَ وآتوا حقّه يومَ حَصَاده ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين »[2] .. وإلى قوله سبحانه : « وفى الأرض قِطعٌ متجاورات وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل ، صِنْوانٌ وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضّل بعضها على بعض فى الأُكُلِ[3] » .

وفى القرآن الكريم مئات من هذه الآيات ، التى تفتح القلب والعقل معاً ، على الوجود وما فيه من روائع الحسن والجمال ، إلى جانب ما فيه من نعم وخيرات . . فالإنسان — فى دعوة القرآن — إذ ينظر إلى هذا الوجود فإنما ينظر إليه بوجوده كله . . بعقله وقلبه ، وسمعه ، وبصره ، وحواسه جميعاً . . وهذه هى النظرة المعطية حقًّا . . النظرة التى تأخذ من الموجودات أكبر قدر يمكن أن يُنال منها .

هذه النظرة التى يدعو إليها القرآن،هى نظرة إنسانية .. لا تَحرِم أحداً حقه فى هذا الوجود . .

فكل إنسان — أى إنسان — آخذ بحظٍّ مقدور من هذا الوجود ، إن لم يسعفه عقله ، أسعفته حواسه وما تحمل إلى قلبه من نبضات وخفقات ! فالطبيعة وماتحمل من ظاهرات ،ليست وقفاً على العلماء ، أو الفلاسفة أو الشعراء ، وإنما هى معرض مفتوح للناس كلهم . . يدخله الناس جميعاً ، ثم يخرجون منه بما قَدَرُوا على

---

(١) سورة النور: آية ٤٣ ، ٤٤ (٢) سورة الأنعام : ١٤١

(٣) سورة الرعد :آية ٤

حمله منه، كلٌّ حسب ما عنده من استعدادٍ نفسى، وروحىّ، وعقلى، وجسدى أيضا !

ومن هنا، كان الناس - فى مفهوم الدعوة الإسلامية - على حظوظهم من هذا الوجود. ليس هناك غاية يقف عندها النظر فى هذا الكون الرحيب. فبينما يقف بعض الناس على ساحل هذا البحر المحيط، يَتَنَسمون من نسماته، ويملؤون العين بجماله وجلاله.. إذ يغوص بعضهم الآخر فى أعماقه، ويملأ اليدين من جواهره، أو أصدافه، أو طينه ! !

والإسلام فى دعوته التى يدعو بها العقل إلى النظر فى الوجود لا يضع على هذا النظر قيوداً، ولا يرسم له حدوداً، بل هو نظر مطلق من كل قيد، مُرسَلٌ من كل حدّ.. فله أن يصحب هذا الوجود فى جميع المستويات.. بعقله، أو قلبه، أو حواسه، أو بهذه القوى كلها، مجتمعة ومتفرقة، فى حال، أو فى جميع الأحوال.

فمثلا قوله تعالى.. « ألم تر أن الله يُزْجِى سحاباً ثم يؤلِّف بينه ثم يجعله رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرج من خِلاَلِه، ويُنزِّلُ من السَّمَاءِ من جبالٍ فيها من بَرَدٍ، فيصيب به من يشاء، ويصرفه عمَّن يشاء، يكاد سَنَا بَرْقِهِ يذهب بالأبصار.. يقلّب الله الليل والنهار، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار.. والله خلق كل دَابَّة من ماء، فمنهم من يمشى على بطنه، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْلَين، ومنهم من يمشى على أربع، يخلق الله ما يشاء، إنَّ اللهَ على كل شىء قدير »(١)

فى هذه الآيات معارض متعددة لظواهر الطبيعة.. الرياح، والسحاب، والمطر والبرد، والبرق، والرعد، ثم حركات الليل والنهار وتعاقبهما على مدى الأزمان.. ثم هذه المخلوقات الحية التى تَدِبّ على الأرض، وصورها وأنواعها، وفصائلها..

هذه الظواهر، هى فى واقعها الظاهر: على مستوى النظر العام للناس جميعاً.. العالم، والجاهل، والشاعر، والفيلسوف.. والصغير والكبير، والبدوىّ والحضرىّ.. وللناس فيها نظر دائم متجدد، يعوده بَعدَ كل ناظر بمعطيات مختلفة، ومفاهيم متعددة.. ثم إنه

---

(١) سورة النور آية ٤٣، ٤٤

ليس على الناس حرَج بعد هذا النظر المجمل فى أن يغوصوا إلى أعماق هذه الظواهر، وأن يقلّبوها على وجوهها ، وأن يبحثوا فى الرياح وأسبابها ،والماء وعناصره،والبرق وكيف يحدث، والرعد وكيف يقع ، والأفلاك فى مداراتها،والنجوم والأقمار وطبيعة الحياة فيها وصِلاتها بالأرض .. والحياة وكيف نشأت على هذه الأرض ، وكيف تأصّلت هذه الأنواع وتمددت . . إلى غير ذلك مما بلغه العلم وما لم يبلغه .. فإن كل ما تتسع له دائرة العلم .. فى الفلك ، والطبيعة ، والكيمياء ، وعلوم الحياة ، وأصل الأنواع .. كل هذا وغيره يندرج فى مجال النظر إلى ما تعرضه الآية الكريمة، من معالم الوجود ، وما يظهره ويضمره كل موجود .

ومثل هذا يقال فى كل آية من آيات الكتاب الكريم ،التى تُلفت إلى ظاهرة من ظواهر الحياة . . فيقال مثلا إن النظر فى مجال الطبّ وفى علم الأجِنَّة بأوسع دائرة النظر ، تتضمنه الآية الكريمة : « ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ، ثم جعلناه نُطْفَةَ فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علَقَة ، فخلقنا العلقة مُضْغة ،فخلقنا المُضْغةَ عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر ، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين »[1] أو الآية الكريمة : « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خَلْقاً من بعد خلق .. فى ظلمات ثلاث »[2] .. وهكذا .

ونود أن ننبه هنا إلى أن هناك فرقاً كبيراً بين دعوة القرآن العقلَ إلى النظر المطلق ،المتحرر من كل تلقيات سابقة ، ومقررات مُعَدّة — وبين أن تحمل هذه الدعوة فى طياتها نظريات علمية ، وحقائق كونية . . فالقرآن ليس كتابَ علم ، لأن ذلكَ ينقض الدعوة التى يدعو إليها ، وهى إيقاظ العقل ، وحمله على أن يرتاد بنفسه وانفسه مجالات المعرفة ، وأن يجنىَ ثمارها ، ويَطْعَم ما يروقه منها ، وبهذا

---

(١) سورة المؤمنون : آيتا ١٣، ١٤

(٢) سورة الزمر : آية ٦

يكتسب العقل قوة ، ومِراناً ، وتقدماً مع الحياة ، حالا بعد حال ، وجيلا بعد جيل . !

ولو كان من تدبير الدعوة الإسلامية حملُ مقررات علمية إلى الناس لجاءت تلك المقررات فى صورتها الكاملة ، التى ليس وراءها نظر لناظر ، ولا بحث لباحث . . وفى هذا ما فيه من مصادرة للعقل ، ومصادمة لطبيعته ، وقضاء على شخصيته ، وتعطيل لوظيفته ، بهذه التغذية الصناعية ، التى تحرمه ذلك الجهد الذى تتفجر منه طاقاته ، كما تتفجر طاقات الحبة حين يُلقى بها فى باطن الأرض ، فتتجمع عند ذاك كل القوى الكامنة فيها لتنطلق من عقالها ، ولتتحرر من سجْنها ، وهنا تتصدع الجدُر المطبقة عليها ، ويتدسس إليها الضوء فى خفوت ، فإذا الحبّة قد هاج هائجها ، وفار فائرها ، وإذا ألسنة رقيقة حِداد تنطلق منها لتذوق هذا النور . . وعندها تثبت أقدامها فى الأرض ، وتطاول أعناقها لتصافح النور فى سماواته . . وإذ بهذه الحبة الصغيرة الميتة دوحة منداحة ، أو نخلة باسقة !

هكذا العقل فى غفوته وركوده . . ثم فى صحوه ويقظته . . إنه يظل راكداً هامداً مادام بعيداً عن المجالات التى تَهيجه وتُثيره .. فإذا دخل فى مناطق الهياج ، والإثارة ، والقلق ، حين يقف فى مواجهة ما فى الوجود من عجائب وغرائب — تحسس طريقه إلى الاستقرار ، والسكون والاطمئنان ، وعندها تتفتح له أبواب المعرفة ، التى تُسلمه من باب إلى باب ، وتدفع به من حال إلى حال . . فلا يجد سبيلا للعودة إلى مناطق الركود والهمود أبداً . . !

إن هذه المعاناة التى يواجهها العقل فى بحثه عن حقائق الأشياء هى التى تُبرز ملَكاته ، وتنبت لها أجنحة وريشاً ، يستطيع أن يحلق بها فى آفاق عالية ، ويرتاد بها مجالات جديدة كل يوم .

وعلى هذا التقدير ، وبهذا الحساب يتعامل الإسلام مع العقل الإنسانى ..

فهـــو :

أولا : يرفع للعقل معالم الحياة ، وظواهر الوجود لينظر فيها ، ويكشف عن مواطن الجمال والجلال منها ، ويطّلع على ما تحمل فى كيانها من نظام ، ودقة وإحكام .. ثم إن لهذا العقل أن يذهب بهذه الظواهر إلى أبعد من هذا ، فيعرف القوانين التى تخضع لها ، والنظام الذى يمسك بها : « الذى خلق سبع سماوات طباقاً .. ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر ، هل ترى من فطور .. ثم ارجع البصر كرّتين ينقلبْ إليكَ البصرُ خاسئاً ، وهو حَسِير »[1] .

ثانياً : يكشف الإسلام للعقل عن الآثار السيئة التى تنجم عن التهاون والكسل ، والغفلة ، عن ملاحظة ما فى الوجود من ظواهر وحركات .. فإذا نام العقل ولم يستجب لدعوة الحياة له ، ضعف ، وضمر ، وركبه الجهل ، والحمق ، ولفّه الظلام ، وكان ممن وضعهم القرآن بهذا الموضع المهين بين الناس فى قوله تعالى : « وكأيِّنْ من آيةٍ فى السموات والأرض يَمُرّون عليها ، وهم عنها معرضون[2] » . « ألَهُم أرجُلٌ يمشون بها أم لهم أيدٍ يَبطِشون ، أم لهم أعين يُبصرون بها ، أم لهم آذانٌ يسمعون بها »[3] .. وقوله سبحانه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ! وقوله : « مثل الفريقين : كالأعمى والأصم ، والسميع والبصير .. هل يستوُون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون »

ثالثاً : فى الوقت الذى يدعو فيه الإسلام العقل إلى البحث والنظر والانطلاق إلى أبعد غايات يستطيعها ؛ فإنه يحمى هذا العقل من الشرود والجموح ، ويحفظه

---

(١) سورة الملك : ٢ ، ٣ ، ٤

(٢) سورة يوسف آية ١٠٥

(٣) سورة الأعراف آية ١٩٥

من الغرور والبَطَر . . ذلك أنه مهما جَدَّ العقل وجَهِد ، ومهما تَمرّ وحصّل فإنه لايزال على ساحل هذا البحر الخضَمّ، الذى لاحدود له من العلم والمعرفة: « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(١) . . ثم إنه ليس فى الناس من يأخذ العلم المتاح لهم من جميع أطرافه ، فهو حظ مشاع بينهم جميعاً . . فأكثر الناس علماً وأوسعهم ثقافة ليس له أن يتعالى على الناس ، أو يتطاول على غيره . . إذ رُبَّ جاهل فى نظره أو نظر الناس، هو أكثر منه علماً فى باب من أبواب العلم .. « وفَوْقَ كل ذى علم عليم »(٢) وفى الأثر : « رُبَّ حامل علم إلى من هو أعلم منه » !

حجة داحضة :

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن الدعوى التى يدعيها الماديون ، أو العقليون على الدين من أنه « أفيون الشعوب » وأنه مادة تخدير للعقل ، وتنويم للملكات الإدراكية والتفكيريّة الكامنة فيه ، — هذه الدعوى كذب وافتراء على الدين — أعنى الدين الإسلامى بالذات ، الذى عرفنا موقفه من العقل ، وما حمل إليه من دعوة قوية حكيمة إلى التدبّر ، والتأمل ، والنظر ، والبحث ، إلى أبعد ما تدعو إليه أكثر الدعوات المادية التى تهتف بالعقل ، وتعيش معه ، وتعتز به هذا الاعتزاز الذى يدفع إلى الغرور ، ويسوق إلى التهلكة ، إذ لا يقوم وراء هذا العقل ما يمسك به فى مواقف الزلل ، أو يُلزمه جادّة الطريق إن هو شرد ، أو ضلّ !

الحقائق الدينية ، وكيف يعرضها الإسلام :

ومن احترام الإسلام للعقل وتقديره له ، واعترافه بالدور الكبير الذى له فى مجال الدعوة الإسلامية ، وما تحمل من تعاليم وأحكام — أنه لم يعرض حقيقة من

---

(١) سورة الإسراء : آية ٨٥

(٢) سورة يوسف : آية ٧٦

حقائقه ، ولم يَلْقَ الناس بدعوة من دعوات شريعته قبل أن يوقظ لها العقل الإنسانى من رقدته ، وقبل أن يطمئن إلى استكمال هذه اليقظة ، ويستوثق من ذهاب ما ران عليه من غاشية هذا النوم الطويل، فى خِدْر ثقيل من الجهالات والضلالات ، حتى يتلقى الحقائق الدينية فى يقظة كاملة ، وإدراك سليم .

ولهذا كانت المرحلة الأولى من مراحل الدعوة الإسلامية موجهة توجيهاً مباشراً إلى العقل الإنسانى ، توقظه من سباته العميق ، وتكشف عنه ما خيم عليه من ضلالات ، وحماقات ، وسفاهات ، وتضع بين يديه معالم الهدى ليسلكها وليعرف مواقع الخير والشر ،وليميِّزَ الخبيث من الطيب . . وبهذا يصبح أهلا لأن يحمل التكاليف الشرعية ، ويحاسَب على ما قصّر أو فرط فى جنبها .

ولهذا أيضاً — كان القرآن المكىّ كله تقريباً قائماً على هذه الغاية عاملا لها . . فكانت الظواهر الطبيعية ، والآيات الكونية، هى أكثر ما حمل القرآن فى هذه الفترة . وكانت الحجج المنطقية ، ومواقف الإقناع ، والإفحام هى الأسلوب الذى لقى به القرآن المخاطَبين فى هذه المرحلة من الدعوة ، التى كانت كلها لحساب العقل، ولتصحيح مقامه فى كيان الإنسان؛ وإعداده لأداء وظيفته فى لقاء الدعوة السماوية الموجهة إليه .

إن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى : « اقرأ باسم ربِّكَ الذى خَلَقَ، خلق الإنسان من عَلَق، اقرأْ وربُّكَ الأكرَمُ ، الذى علَّم بالقلم ، عَلّم الإنسانَ مالم يعلَمْ »[1] . .

وإنها لدعوة قوية هاتفة إلى إعلان الحرب على الأمية وعلى الجهل معاً . . تلك الأمية التى طمست على عقول الناس وقلوبهم ، وعاشت فى حياتهم عيش أمن واستقرار . . وهذا الجهل الذى ساقهم إلى متاهات الهلاك والدمار ، فأفنوْا أنفسهم

---

(١) سورة العلق

فى حروب طاحنة متصلة ، كادت تذهب بهم ، لولا أن تداركهم الإسلام برحمة الله : « واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حُفْرَةٍ من النار فأنقذكم منها »[١] .

وإنه لعبرة لمن يعتبر؛ أن تكون أول دعوة يتلقاها النبىّ من السماء ، هى هذا الأمر الكريم : « اقرأ » .. وقد عجِب النبىّ لهذه الدعوة الصَّادعة إلى مَنْ لم يكن يعرف القراءة ، وكان جوابه : « ما أنا بقارىء .. ! » .. ويتكرر الأمر والجواب .. حتى تكون الثالثة : فيؤمر : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق .. » الآيات .

إنها إذن ليست دعوة إلى قراءة مجردة — بل هى قراءة فاحصة دارسة متأملة فى هذا الكون .. «اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علَّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم » .. إنها قراءة فى صحف هذا الوجود كلها ، وهى قراءة يَقْظَى ، واعية ، تنظر بعين العقل الحر ، المتحرر من التقاليد ، والعادات .

ثم كانت الدعوة التالية ، وهى عرض صحف الوجود ، ودعوة الإنسان إلى تقليب هذه الصحف صفحة صفحة ، والنظر فيها سطراً سطراً ، وكلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً .. !

وهل تعرف الحياة دعوة إلى العلم كدعوة الإسلام هذه ، فى شمولها، واتساع آفاقها ، واعتدال منهجها ، واستقامة طريقها ؟ إن كل ذى مُسْكة من عقل؛ مدعوٌّ إلى رحاب هذا الكون الفسيح ، ليقطف ما شاء من ثمرات العلم والمعرفة ، غير منساق إليه بهوى ، أو ناظر فيه بعين غيره ، أو متابع فيه ذى رياسة دينية ، أو سلطة مدنية .. بل إنه هو وحده القائد والمقود .. إن شاء تقدم أو تأخر ،

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

وإن أراد مضى أو توقف . . ليس عليه مَن يحاسبه ، إن أصاب أو أخطأ ! : « إن هو إلا ذِكرٌ للعالمين ،لمن شاء منكم أن يستقيم[١] » .

استمع إلى بعض مافى القرآن الكريم من دعوات قوية متتابعة إلى مواطن العلم والمعرفة :

إنها ليست مجرد دعوة إلى نظر هائم حالم فى هذه الظواهر الطبيعية ، التى يعرضها القرآن ، وما تحمل فى كيانها من أسرار . بل هى دعوة إلى نظر متفحص ، دارس مستلهم ، يستكشف الأسرار ، ويستهدى إليها ، ليقيم منها شواهد تشهد للخالق المبدع المصور . . « الذى أحسنَ كلَّ شىء خَلَقَه[٢] » . . ولهذا لم يكن من عمل الرسول أن يأخذ الناس إلى دعوته بالإكراه والسيطرة ، فما هو إلا حامل دعوة يبلغها ، ويرفع بين يديها معالم التذكرة والتبصرة . . « إنما أنت مُذَكِّرٌ . . لستَ عليهم بمصيطر[٣] » .

انظر إلى قوله سبحانه: « أَلم يَرَوْا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز، فنخرِجُ به زَرعا تأكل منه أنعامهم ، وأنفسهم . أفلا يبصرون[٤] » .

وإلى قوله : «وآيةٌ لهم الأرضُ الميْتةُ أحييْناها وأخرجنامنها حباً فمنه يأكلون، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثَمَره ، وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ، سبحان الذى خلق الأزواج كلَّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون»[٥] .

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم،والقمرَ قدَّرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم،لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليلُ سابقُ النهار ، وكلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحون» .

---

(١) سورة التكوير : آيتا ٢٧ ، ٢٨
(٢) سورة السجدة: آية ٧
(٣) سورة الغاشية : ٢٠ ، ٢١
(٤) سورة السجدة : آية ٧٢
(٥) سورة يس ٣٣ — ٣٦

مثل هذه الآيات الكونية التى يدعو القرآن العقل إلى لقائها والنظر فيها، هى المدخل الذى ينفذ منه العقل إلى مطالع النور، التى يرى على سناها وفى ضوئها، الحقّ الذى يملأ القلب إيماناً وطمأنينة إلى هذا النظام الممسك بكل ذرة من ذرات الوجود، وبهذا الإيمان المطمئن يتعرف إلى الخلاق العظيم، ويؤمن به إيمانا قائماعلى بصيرة وهدًى . .

وفى هذا يقول سبحانه لنبيّه : « قل هذه سبيلى، أدعو إلى الله على بصيرة.. أنا ومن اتبعنى (١) » . . وليس أصرح من هذا فى بيان الأسلوب الذى قامت عليه الدعوة الإسلامية، وأنه أسلوب الحجة البالغة، والبرهان الواضح، بما يتكشّف للبصيرة النافذة من النظر فى آيات الله، واستشفاف روائع الخلق والإبداع فيها.

ولقد امتدح الله سبحانه أصحاب هذا النظر الباحث المتدبّر، وجعلهم فيمن رضى عنهم وأرضاهم، فقال تعالى : « والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يَخِرّوا عليها صُمًّا وعميانًا(٢) » .

هذه حقيقة مقررة مؤكدة، فى صميم الدعوة الإسلامية، إذ كانت مادة أساسية من مواد الدستور، الذى حمل مقررات هذه الدعوة، بل كانت فى مقدمة مواده، يعلنها القرآن فى كل مرحلة من مراحل دعوته، وفى كل موقف من مواقفها.. ولقد بلغ تدبير الحكيم العليم فى هذا؛ أنه لم يَدَعْ الرسول الكريم عند مفهوم هذه الآيات التى تُلزمه بأن يجعل أسلوب الدعوة قائما على الحجة والإقناع، بل وجه إليه هذا المفهوم فى منطوق واضح صريح، حتى لا يدخل على نفسه شىء من الترخّص فى هذا الأمر الملزم، الذى أصبح لازما لزوماً لا انفكاك منه، بعد أن نزلت مثل هذه الآيات : « إنما أنت مُذَكِّر، لستَ عليهم بمصيطر(٣) » .. « فإنما عليك البلاغ

---

(١) سورة يوسف : آية ١٠٨ (٢) سورة الفرقان : آية ٧٢
(٣) سورة الغاشية : آيتا ٢٠، ٢١

وعلينا الحساب[١] » . . « ما على الرسول الا البلاغ[٢] » . . « لا إكراه فى الدّين قد تبين الرشد من الغىّ[٣] » . . « أفأنت تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ؟ »[٤]

وبهذا الأسلوب الذى عرض به الإسلام حقائقه وقضاياه أمام العقل الإنسانى أقام أقوى دِعامة من دعامات الحماية للمعتقد الدينى ، من أن يَحْدُثَ فيه تصدع أو انهيار ، تحت ظروف الحياة ، أو بفعل مؤثرات الدعوات الباطلة ، والمفتريات المضلة ، التى يرمى بها المفترون والمضلون فى ساحة الدين ، وبين يدى المتدينين .

ومن جهة أخرى ، فإن الاطمئنان الذى ينبغى أن يجده المتدّين فى صحبته لدينه ، لا يقوم إلا إذا دخل إلى القلب عن طريق العقل ، الذى نظر بنفسه وجه الحقّ ، وعرف طريقه إليه ، مستهدياً بالأدلة الواضحة : والحجج المشرقة . . وإلا كان هذا المعتقد عرضة للاهتزاز ، أو التصدع والانهيار ، عند أول عاصفة تهب عليه من أية جهة .

يقول الفيلسوف المسلم محمد إقبال ، فى تقييم العقل ومكانته فى تثبيت المعتقد الدينى :

« لا نستطيع أن ننكر أن الإيمان أمر أكثر من مجرد الشعور . . فهو فى حقيقته يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة .

« الدِّين من حيث هو عقيدة : نظام أو مجموعة من الحقائق العامة ، لها تأثير فى تكييف الخُلُق ، إذا صَدَق الاعتقادُ بها ، وفهِمت فهماً واضحاً قوياً .

ثم يقول :

« وإذا كانت غاية الدين وهدفه الأسمى تكييف الإنسان وهدايته فى تدبير نفسه ، وفى صِلاته بغيره ، فقد أصبح من الجلىّ أن الحقائق التى يشتمل عليها الدين

---

(١) سورة الرعد آية : ٤٠
(٢) سورة المائدة : ٩٩
(٣) سورة البقرة : ٢٥٥
(٤) سورة يونس : ٩٩

ينبغى ألا تبقى غير مقررة . . فما من أحد من الناس يقامر بالإقدام على عمل ما ،على أساس مبدأ خاقى مشكوك فيه !

« فى الحق أن الدِّين — نظراً لوظيفته — أشد حاجة حتى من المبادىء العلمية المسلّمة ، إلى أساس عقلى لمبادئه الأساسية .

« إن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثة الملك ، ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام ، وإصراره على أن النظر فى الكون والوقوف على أخبار الأولين — من مصادر المعرفة الإنسانية — كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة !

« وعلى هذا ، ففكرة انتهاء النبوة ينبغى ألا يفهم أنها تفترض مصير الحياة فى النهاية هو إحلال العقل محل الشعور إحلالا كاملا ، فمثل هذا لا يكون ممكناً ، ولا مرغوباً فيه »(١)

وكلمات إقبال هذه تنفذ إلى الصميم من نظرة الإسلام إلى الإنسان وإلى الصلة التى ينبغى أن تقوم بينه وبين حقائق الدين ، تلك الصلة التى تجمع بين العقل المتحرر ، والقلب اليقظ .. بين الفكر والشعور . . إذ أن حقائق الدين لا تقع موقع القبول والاطمئنان إلا إذا واجهت العقل ، وتفاعلت معه ، وإلا إذا كانت بحيث تعطى كل عقل يلقاها،حجةً واضحة،وبرهاناً مبيناً . . وبغير هذا لا ينزل بها الإنسان إلى ميدان الحياة ، ولا يصحبها فى وجوده الخارجى ، بل تظل مشاعر غامضة ، وخواطر مضطربة : كأنها أحلام ، أو أضغاث أحلام .

الإنسان فى مواجهة الدعوة الإسلامية :

وواضح مما تقدم أن الدعوة الإسلامية لا تواجه الإنسان بأحكامها ومقرراتها إلا إذا كان مستصحباً معه وجوده كله : الذهنى ، الوجدانى ، والحسى .. إنها

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١١٤ وما بعدها .

دعوة لا تستولى على الإنسان بسلطان الإرهاب والتخويف، أو تأخذه على غِرَّة، فى غَفْوة أو نومة . . ، وإنما تريد أن يجىء هو إلى الدين منقادا له ، لائذاً بحماه ، مستظلا بظله ، بعد أن يكشف بنفسه ، ويستدل بعقله ، على الخير الذى يحصله ، والنفع الذى يحققه ، إذا هو أوَى إلى الدِّين ، ودخل فى حماه . . ولهذا لم يكن فى الدعوة الإسلامية شىء أبداً من تلك المعجزات المادية المذهلة، التى يفرّ العقل من بين يديها مذعوراً مقهوراً . . كما أنه لم يكن فى مقررات هذه الدعوة أسرار ربانية ، وخفايا علوية ، لا يعرف وجهها إلا الحواريون والسدنة الذين يُلقون فى رُوع الناس ما يُلقون ، من حق أو باطل ، دون أن يكون للإنسان قول أو مراجعة ! . . بل إن كل حقائق الإسلام فى معرض الرأى والنظر لكل متدين بهذا الدّين .. ليس لأحد اختصاص بمزيد من العلم إلا بمقدار ما يبذل من جَهد ، فى التحصيل والدرس .

وإذن فالذين استجابوا للإسلام، أو الذين يستجيبون له ، هم أحد رجلين: رجل نظر بعقله ، واستهدى ببصيرته ، فوجد شريعة يزداد بها عقله علما ومعرفة ، وتزداد بها بصيرته هدى ونوراً . . فصحب هذا الدين صحبة إلف ومودّة . . ورجل أخذ الدين ميراثاً عن الآباء والأجداد .. وهؤلاء وهؤلاء جميعاً قد صحبوا الإسلام، وعاشوا فيه ، فسعدوا به ، وجَنوْا من ثمراته أطيب الثمر وأوفره . . ثم إن هؤلاء وهؤلاء لا يشدهم إلى الإسلام قوة خارجة عنه ، ولا يمسك بهم سلطان روحىّ أو زمنىّ .. قائم وراءه ، وإنما الذى يشدهم إلى الإسلام ويمسكهم به، هو مشاعر ذاتية قائمة بينهم وبينه ، على اختلاف هذه المشاعر .. قوة وضعفاً . .

وليست هذه المشاعر التى تربط المسلم بدينه وليدة ولاء أعمى، أو استسلام مقهور، إلا أن يكون ذلك المسلم سفيهاً أو ضعيفاً ، ومثل هذا الإنسان ليس هو الرجل الذى يتعامل مع الإسلام معاملة كاملة صحيحة . . حتى يَرشُد ويبلغ أشدَّه .

ومن جهة أخرى فإن حقائق الإسلام — مع ما لها فى ذاتها من قدسية وجلال — ليست بالأمور التى قد حيل بين الناس وبين النظر فيها ، بل إنها — على ما بها وما لها من قدسية وجلال — واقعة فى مجال البحث والنظر ، لا تحتمى فى حَصَانة من جلالها وقدسيتها ، ولا تتعالى على الناس بعلو مُتَنَزَّلها : فللناس كل الناس — أن ينظروا فيها ، وأن يقلّبوا وجوهها ، باحثين ودارسين .. وللناس — دائماً . وفى كل وقت — الحق كل الحق فى أن يستأنفوا النظر فيما وقع لهم من حقائق هذا الدين ، وأن يراجعوا أنفسهم فيه ، وأن يقتربوا من هذا الدين ، أو يبتعدوا عنه ، حسب ما يقع له فى عقولهم من إقناع ، وما يجدون له فى قلوبهم من رضا واطمئنان !

إن حقائق الإسلام ومسائله واقعة فى تجربة الحياة اليومية يوماً يوما ، وفى محك كل عقل..فرداًفردا.. فمن شاء أن يأخذ بهذا الدين أخذ ، ومن شاء أن يتركه ترك ، إذ ليس من شأن ما هو حق أن يأخذَ الناسَ بالقهر والاعتساف «وقل الحقُّ من ربكم ، فمن شآء فليؤمنْ ومن شاء فليكفر »[1] . « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلَّ فإنما يَضِلُّ عليها ، وما أنا عليكم بوكيل »[2] .

* * *

أَفَبعد هذا احترام وتقدير ، بل وتقديس ، لإنسانية الإنسان ، ولكرامته ، وإرادته ؟ وهل فى الدساتير الوضعية ، أو المقررات المذهبية ما يسمح للإنسان بأن يتحرك فى مجالها بعقله ، وقلبه ، وإرادته ومشاعره؛ مثلَ هذه الحركة المطلقة المتحررة المنطلقة، التى يسمح بها الإسلام، لمن يلتقى به أو يتعامل معه ؟ ذلك ما لم يكن ، ولن يكون !

---

(١) سورة الكهف : آية ١٩

(٢) سورة يونس : آية ١٠٩

ذلك هو الإنسان الذى يتعامل معه الإسلام ، ويجعله مناط التكليف ، وأهلاً لحمل الأمانة التى عرضها الله سبحانه على السموات والأرض والجبال ، فأبَيْنَ أن يَحملنَها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان !

وحقيقة أخرى، نريد أن نقرّرها هنا ، وهى أن الإسلام قد التقى بالإنسان وقد بلغ رشده ، وجاوز مرحلة الطفولة والصبا ، وأصبح مهيئاً لأن يستقلّ بنفسه ، وأن ترفع عنه وصاية السماء . . فلا رسالةَ ولا رسلَ بعد رسالة الإسلام ، ورسول الإسلام !

وعلى هذا التقدير جاءت تعاليم الإسلام وأحكامه، لتمضى مع الإنسانية فى طريق الحياة إلى غايتها ، ولتصحب الناس ما كانوا فى هذه الحياة . وما كان لهم وجود فيها !

* * *

الباب الثالث

الإسلام وقضاياه



نظام ... لا كلام

نستطيع أن نسمى حقائق الإسلام « قضايا » . . فهذه التسمية أقرب شيء إليها ، وأدل الأسماء على حقيقتها ، إذ كان كل مافى الإسلام ، من مقررات العقيدة والشريعة آخذاً مأخذ القضايا العامة الشاملة فى الحياة . . فى ميادين العلم والفن . . تلك القضايا التى يعالجها العقل بمنطقه الاستدلالى ، ويختبرها بأسلوبه العلمى ، ثم يضعها فيه بمكانها ، من الصحة أو الاعتلال ، ومن القبول أو الرفض .

ومن جهة أخرى ، فإن هذه الحقائق ، التى ضُمّت عليها الشريعة الإسلامية ، ليست من الأمور التى تُدْرس دراسة نظرية مجرّدة ، غايتها الرياضة الذهنية ، أو المحاكات المنطقية ، أو الجدليّات الفلسفية ، التى لا تلد إلا صوراً تعيش فى الخيال ، وتغتذى من الوَهْم .. وإنما تَنْبُت حقائق الإسلام جميعُها على هذه الأرض ، التى يعيش عليها الناس ، وتتحرك معهم فى كل متجه ، وتعيش فى عقولهم وفى قلوبهم ، على مسرح الحياة التى يتقلبون فيها .

فالإسلام ليس مجرد مجموعة من التصورات ، يحتويها العقل ، أو مُثُل يتمثّلها الخاطر ، أو أحكام موقوفة التنفيذ ، وإنما هو معتقد ، يصحبه عمل ، وإيمان ، يصوّره سلوك موجّه بهذا الإيمان ، وأحكام ملزِمة ، واجبة التنفيذ ، وحقوق لا تبرأ الذمة إلا بقضائها !

ومن هنا كان الإسلام وتعاليمه على محكّ الحياة دائماً ، إذ كان فرضاً لازماً على من يدينون به أن يلقَوْا الحياة معه ، وأن يديروا معاركهم فيها ، بما معهم من أسلحته ومعداته ، التى دخل بها على عقولهم وقلوبهم . . فليس الإسلام مجرد معتقد ينطوى عليه كيان الإنسان . . وإنما هو — مع ذلك ، أو قبل ذلك — منهج

تفكير، ومنزع سلوك، يعيش الإنسان على هداه، ويتحرك على ضوئه، في خاصة نفسه، وفي صلاته بالناس جميعاً، أقرباء وأبعداء، وأولياء وأعداء!

وعلى هذا، فإن العقيدة الإسلامية وإن تكن أمراً ذاتياً، تتعلق بذات الشخص، وترجع إلى ضميره ووجدانه — فإنها لا تكون شيئاً إذا هي لم تصرح عن مضمونها، ولم تكشف عن معطياتها وثمراتها في الحياة!

استمع إلى قوله تعالى: « قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون .. أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »[1].

فهذه صفات المؤمنين الذين دانوا بهذا الدين، واستجابوا لتعاليمه وأحكامه، وهي صفات ذات معطيات عملية، تجري في واقع الحياة، وتؤثر في الأفراد والمجتمعات، تأثيراً طيباً، يزيد في حصيلة الحياة، من الخير والمودة والسلام.

انظر في قوله تعالى: « فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون[2] » . . تجد أن هذه الصلاة التي غفل عنها أصحابها، وأدوها في غير اكتراث، والتي هي ركن من أركان الإسلام — لم تثمر ثمرتها المرجوة منها، لأنها لم تقم في كيان صاحبها مقاماً مكيناً، فلم يحفل بها، ولم يفتح قلبه لها، بل سها عنها، وأداها — حين أداها — في كسل وفي تراخ .. أداء آلياً . . فكان أن حرم صاحبها هذا الخير الكثير الذي كان

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات من ١ – ١٠.
(٢) سورة الماعون . . والماعون: ما يستعان به في شئون الحياة.

يمكن أن يجنيه منها، لو أنه حرص عليها، وشغل نفسه بها، وملأ قلبه خشوعاً وخضوعاً بذكر الله فيها، فكان بهذا متعرضاً لرضا الله ورحمته: « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .. وإذا لم ينته صاحب الصلاة عن الفحشاء والمنكر فلينظر أيَّ خلل وقع فى صلاته، وأية آفة أتت على حصاده، الذى كان يتوقعه منها!

وهكذا الشأن فى كل عبادة تَعَبَّدَ الله بها عباده، وكل دعوة دعاهم إليها .. لا تنفصل أبداً عن الخير، ولا تُخلِف وعدها به، لمن أدَّاها على وجهها الصحيح، موقظاً لها قلبه، مستجمعاً لها مشاعره، مُخْلِياً لها صدره من خطرات السوء، ووساوس الشيطان!

ذلك هو الإسلام، فى أحكامه وتشريعاته.. إنه ليس فى عُزلة عن الحياة، وعن الأحداث الجارية فيها، بل هو إعداد للحياة، وتوجيه لها، ودفع إلى الغايات الكريمة، والمقاصد الطيبة النافعة فيها. بما يزرع فى عقول الناس وقلوبهم ومشاعرهم من مغارس الحق والخير.

وهذه الحقيقة قد شهد بها كثير من العقلاء، الذين لم يعتقدوا الإسلام، ولم يَدِينوا به . إذ كانت من الوضوح. بحيث يرى العاقل أن من الظلم لعقله، والإزراء به أن ينكرها، أو يشوش عليها!

يقول الفيلسوف « جب » .

« الحق أن الإسلام ليس مجرَّد نظام من العقائد والعبادات .. إنه أعظم من ذلك كثيراً . هو مَدَنيَّة كاملة » !

« ولو بحثنا عن لفظ مقابل له، لقلنا: « العالم المسيحى »، ولم يقل « المسيحية » »، ولقلنا « الصين » .. بدل أن نقول: « ديانة كونفوشيوس[1] » .

(١) وجهة الإسلام للفيلسوف « جب » ترجمة أبو ريدة .

وهذا يعنى أن الإسلام نظام إنسانى متكامل ، يضم إليه الدين والدنيا جميعاً، أى أنه يملك وجود الجماعة التى تدين به ، ويدخل فى فسيح الحياة التى يَحيونَها ، فلا تقوم حياتهم إلاَّ عليه ، ولا تتشكل وتتلون إلا بما يعطى من أشكال وألوان . على حين أن الديانة المسيحية . مثلا — تحكم أتباعها من جانب واحد ، هو جانب العقيدة فى مجالها الذاتى الفردىّ ، الذى يحتفظ به الفرد لذات نفسه ، كما يحتفظ بنظرية علمية أو مذهب فلسفى ، دون أن يمتد بصرُه إلى ما وراء ذاته ، ودون أن يَدْخل بهذا الرصيد من العقيدة إلى الحياة العامة ليشارك به مع الآخرين ، فى إقامة نظام سياسى ، أو اقتصادى ، أو اجتماعى ! !

العقيدة والمعتقدون :

وإذ كانت تلك هى طبيعة أحكام الإسلام وتعاليمه ، وتلك هى معطياتها فى الحياة حين تجد الفاقهين لها ، والعاملين بها ، فإنه ينبغى أن نقرر أنه فى اليوم الذى يواجه فيه الناس الحياة بأسلحة هذا الدين ومعداته ، ثم لا يكسبون معارك الحياة ، أو يتخاذلون عنها ، أو يعتزلونها — فلا يعدو الحال أن يكون ذلك ناشئاً عن أحد أمرين :

إما أن هذه الأسلحة وتلك المعدات قد امتدت إليها يد البِلَى، وعلاها الصدأ، فلم تعد صالحة للعمل فى الميادين الجديدة، التى فتحتها الحياة على الناس ، بعد أن بلغوا ما بلغوا، من العلم والمعرفة ، وبعد ما حصّلوا من مدنية وحضارة .

وإما أن يكون أولئك الذين يحملون هذه الأسلحة وتلك المعدات قد ضعفت قواهم عن حملها ، وتراخت أيديهم عن الإمساك بها ، وأنهم شغلوا بغيرها عنها ، وملئوا أيديهم بما وقع لهم من أسلحة الحياة .

وفى سيرنا على طريق هذا البحث سنرى أى هذين الغرضين أولى بالقبول ، وأحق بالتسليم له ، والأخذ به !

قضايا الإسلام . . ماهى ؟

القضايا التى ينتظمها دستور الإسلام ، وتحملها شريعته ، تقوم على مجموعتين كبيرتين : مجموعة عقَدِيّة ، ومجموعة تشريعية .

ويدخل فى مجموعة العقيدة كل ما يتصل بما وراء الحس ، أو ما وراء الطبيعة ، مما لا سلطان للعقل عليه مباشرة ، وإنما يتعرّف إليه العقل ، ويتعامل معه من وراء حجاب ، بتتبع الآثار التى تدل عليه ، وتحدِّث عنه ، وتكشف عن كثير من صفاته . .

وأهم قضايا هذه المجموعة : قضايا الألوهية ، والنبوة ، والكتب السماوية ، والملائكة ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنار .

ويدخل فى مجموعة الشريعة ، كل ما يتصل بالإنسان فى خاصة نفسه ، مع الله ، وفى صِلاته بالمجتمع الإنسانى ؛ فى أفراده وجماعاته ، وفى كل ما يدور فى شئون الحياة ، فى محيط الفرد والأسرة ، والمجتمع ، والإنسانية كلها . . وتضم هذه المجموعة : العبادات ، والمعاملات ، والأخلاقيات .

وطبيعى أنه ليس بين مقررات المجموعتين حدود فاصلة ، بحيث تعيش كل مجموعة منها فى عزلة عن صاحبتها فى كيان الإنسان ، بل إنها — فى الواقع — نظام واحد ، ومنهج مترابط ، يلتقى فى كيان الإنسان ، ويصب فى مسارب أفكاره ، وخلجات وجدانه ، فيعمل عمله ، فى تفكيره وفى تصوراته ، وفى مشاعره ، وفى سلوكه . . كما سنرى ذلك ، فيما سيأتى من مباحث هذا الكتاب .

والألوهية فى كل دين — وفى الإسلام على وجه خاص — تأخذ أهمّ وأقوى جانب من الدين ، بل إنها المحور الذى تدور فى فَلَكه كل مقررات الدين ؛ وبغيرها لا يكون دين ، فإن كان فهو أوهام وخرافات وأباطيل ، لا تلبث طويلاً

حتى يفضحها العقل ، ويدفع بها بعيداً ، لِيُخْلِىَ مكانها للإلـٰه الحق .. الله رب العالمين .

* * *

ولا نريد فى هذا البحث أن نستعرض قضايا الإسلام كلها ، فذلك أمر إن نحن تصدَّينا له خرج بنا عن الغاية التى نريدها ، وهى التعريف بالإسلام ، والدلالة على أحكامه وتعاليمه ، وما تقوم عليه هذه الأحكام وتلك التعاليم من دعائم ثابتة ، وأصول راسخة ، لاينال منها الزمن ،

والتعريف بالإسلام يكفى فيه موقف واحد مع حقيقة من حقائقه ، أو قضية من قضاياه ، بل ومع جزئية من تلك القضايا .. لأن شعاعة واحدة من أشعة الشمس تدل على الشمس ، كما تدل على أنها قطعة من ضوئها الغامر ، الذى لا يشتبه — بضوء غيره .

وعلى هذا ، فإننا سنعرض من هذه القضايا بعضاً ، وندع بعضاً ، وفيما نعرضه شاهد لما لا نعرضه .

هذا ، وسنجعل كل قضية نعرضها فى فصل خاص بها ، ليكون النظر إليها فى هذا الإطار المحدد لها .

* * *

الفصل الأول

الألوهيـــة

الإله . . ولماذا ؟

لماذا قام هذا الإله فى تفكير الناس ؟

ولماذا شُغلوا به هذا الشغلَ الدائبَ المتصل ؟

ولماذا لم يقع فى تفكير بعض الناس دون بعض ؟

. . فيكون وَهْماً من أوهام الدهماء !

. . أو وسوسة من وساوس الحمقى والمجانين ؟

. أو منزعاً من منازع الحكماء والفلاسفة ؟

. . أو وادياً من أودية الشعراء ؟

. . أو حلماً من أحلام القادة والمصلحين ؟

لماذا يقع التفكير فى الإله فى كل عقل ، ويشغل كل قلب ، ويملأ كل وجود إنسانى . . منذ قامت الخليقة إلى اليوم ، وإلى ما بعد اليوم ؟

ولماذا هذه الهيا كل ، والمعابد ، والمساجد . . التى تملأ وجه الأرض ، فى كل زمان ، وفى كل مكان ؟ والتى تمثل تاريخ الإنسان على هذه الأرض منذ أن وجد إلى اليوم ؟

ولماذا هذه الصلوات ، والتراتيل ، والأناشيد ، والابتهالات والدعوات التى تنطلق من كل فم ، وتدوّى فى كل مجتمع ؟

لمن كل هذا ؟ ولحساب أية جهة ؟

إن ذلك كله، وكثير غيره من نتاج العقل البشرى فى مجال العقيدة هو لهذا الإله الذى يطالع الناس وجهه مُصْبِحين ومُمْسِين، وفيما بين الإصباح والإمساء، والإمساء والإصباح — يطالعون وجهه، ويشهدون آياته فى أنفسهم، وفى كل موجود ومولود؟

إن أحداً من الناس فى مواليد الإنسانية كلها لم يقل إنه رأى الله، واتصل به اتصالاً مباشراً!

ومع هذا فكل إنسان — فرداً فرداً — منذ كان للناس وجود إلى اليوم — له موقف مع « الإله ».. أيا كان هذا الموقف.. حقاً أو باطلا، مستقيما أو منحرفا.. ذكيًّا أو غبيًّا!

هو موقف إيمان وتسليم ..إن كان من المؤمنين.

أو موقف إنكار وجحود .. إن كان من المنكرين الجاحدين!

أو موقف الشك والتردد .. إن كان من المتشككين المترددين!

وقد يأخذ الإنسان الواحد هذه المواقف جميعها من الإله. طرداً وعكساً .. يتقلّب فيها إلى أن يقف عند واحد منها، أو يظل هكذا حائراً متردداً بينها!

إن شعوراً مندساً فى كيان كل إنسان، يُملى عليه أن يعطى ولاءه لأقوى قوة فى الوجود .. قوة غير منظورة، لأن جميع القوى الواقعة فى مجال الحسّ ليس فيها قوة واحدة، تمسك زمام الموجودات كلها، وتسيطر عليها جميعها .. وأن أعظم وأقوى موجود يقع فى مجال الحس يبدو فى حال أو أحوال، مقهوراً، خاضعاً لقوة وراءه .. لا تُرى!

هكذا كان تقدير إبراهيم عليه السلام وتفكيره فى البحث عن تلك القوة التى لا قوة وراءها أو فوقها.. وهكذا يكون تقدير كل إنسان وتفكيره، إذا هو أراد —

فى إخلاص وصدق — أن يبحث عن القوة المطلقة التى يدين لها بالولاء، والخضوع والعبودية !

يذكر القرآن الكريم هذا الموقف الإنسانى، الذى وقفه إبراهيم عليه السلام فى بحثه عن الإله .. القائم على الوجود كله .

يقول الله تعالى :

« وكذلك نُرى إبراهيمَ مَلكُوتَ السمٰوات والأرضِ ، وليكونَ من الموقنين ، فلمّا جَنّ عليه الليل رأى كوكباً ، قال: هذا ربى ! فلما أَفَلَ ،قال : لاَ أحب الآفلين . . فلما رأى القمرَ بازِغاً قال : هذا ربى ! فلمَّا أَفَل ،قال : لئن لم يَهْدنى ربّى لأكونَنّ من القوم الضَّالين ، فلما رأى الشمس بازغةً قالَ: هذا ربى ، هذا أكبر ! ! فلما أفلتْ قال : يا قوم إنى بَرَىءٌ مما تشركون . . إنى وجَّهتُ وجهِىَ للذى فطر السَّموات والأرضَ . . حنيفاً ، وما أنا من المشركين »[1].

هذا هو طريق الإنسانية كلها فى البحث عن الإله . . قطعه أقوام فوصلوا إلى شاطىء الأمن والسلام ، وتعثّر فيه آخرون حين ركبوا أهواءهم ، واستجابوا للأوهام والوساوس ، فغرقوا فى رمال المتاهات والمجاهل ، وخرجوا بهذا عن أن يكونوا فى مجتمع الإنسانية الكريمة ، العاقلة ، الرشيدة . . « أرَأَيْتَ من اتَّخَذَ إلهَهُ هَوَاهُ ، أفأنتَ تكونُ عليه وكيلا ؟ أم تحسَبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقِلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً »[2] .

إن هؤلاء الذين يركبون أهواءهم ، أو تركبهم أهواءهُم ، قد تنازلوا — مختارين — عن إنسانيتهم ، وانتظموا فى سلك الأنعام . .

هذا هو حكم الإسلام فيهم . . لا يراهم أهلاً لأن يتوجه إليهم بخطاب . . ولهذا جاء خطاب الحق — سبحانه — بعد هذا مباشرة ، موجهاً إلى النبىّ الكريم ،

---

(١) سورة الأنعام: الآيات من ٧٥ ـ ٧٩ (٢) سورة الفرقان: آيتا ٤٣ ، ٤٤

وإلى من اتَّبع سبيلَه . . فيقول سبحانه : « ألَمْ ترَ إلى ربِّك كيف مدَّ الظلَّ ، ولو شاء لجعله ساكناً، ثم جعَلْنا الشمسَ عليه دليلاً ، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » إلى قوله: «وهو الذى خَلق من الماء بشرا، فجعَلَه نَسَباً وصِهْراً ، وكان ربك قديراً »[1] ففى هذا الخطاب لفتٌ للعقل وللعقلاء وحدهم، إلى مظاهر قدرة الله ، ودلائل حكمته، وعلمه . .

وماذا لو أخلى الناس عقولهم وقلوبهم من التفكير فى الإله ، والبحث عنه ، والاشتغال به ؟

ماذا لو فعلوا فأراحوا أبصارهم من التعلق والتحديق، فيما لا يمكن أن يصلوا إليه ، أو يتصلوا به ، اتصالا مباشراً محققاً ؟

إن أحداً لم يقل إنه رأى الإله عياناً ، أو تعامل معه مواجهة . . فالأمر بالنسبة للإله . . فى أحسن وجوهه ، وأقرب احتمالاته، لا يعدو أن يكون ضرباً من التأويل لأحلام العقل ، وتطلعاته إلى ما وراء الحّس .. بحثًا عن المجهول !

فماذا يشدّ الإنسانية ويربطها بهذا الرباط الوثيق ، الذى لا تستطيع الفكاك منه أبداً .. إن هى أرادت ذلك ، وبذلت جهدها له .

يسأل وليم جيمس . هذا السؤال :

« أى موجود يكون الإله » ؟

ويجيب على هذا بقوله :

« قد دَلّت كلمة الله على كثير من الأشياء فى تاريخ الفكر الإنسانى من « الزهرة والمشترى » إلى « الفكرة » التى يقول بها « هيجل » :

« لقد أصبحت القوانين الطبيعة المادية فى هذه الأيام — أيام للفلسفة الوضعية —

---

(١) سورة الفرقان : الآيات : ٤٥ ـ ٥٤

موضوعات مستحقة للتمجيد الذى لا ينبغى إلا للإله ، وبذلك اعتبرت الموضوعات الوحيدة التى يجب أن نحترمها ، ونقدمها » .

ولكن أيستطيع سلطان المادة — على طغيانه فى هذا العصر — أن يصفى حساب الإنسان مع الإله ، وأن يخلى تفكيره منه ؟[1]

وندع الفيلسوف الهولندى « إتيليه » يجيب على هذا السؤال . . يقول : « إن أصل الدين هو .. حيناً : الإدراك الفطرى فى الإنسان الخاص بالسببية ، وإنهاء الأسباب إلى سبب أخير ، وعلة نهائية .. وحيناً : شعور الإنسان تبعيته لقوة عليا .. وحيناً: حَدْسُ اللانهائى . . وحيناً : الزهد فى العالم واطراحه ، هذا الزهد الذى ترى فيه تأثيراً يسود المرء ويغلبه على أمره »[2] .

إن الشعور الدِّينى حقيقة من حقائق الوجود الإنسانى ، وطبيعة من طبيعته ، لا يمكن أن يَخرج الإنسان عن سلطانها ، إلا إذا خرج عن وجوده .

ومع هذا فقد حاول كثير من الناس أن يَفرّوا من هذا الشعور الخفىّ المتسلط عليهم ، وأن يتحرّروا من سلطانه ، حتى لا يفكروا فى الإله ، ولا يُجْروا له ذكرا .. بِدَعْوى أن ذلك ضروب من العبث والمعاناة ، لا يحصّل المرء من ورائها شيئاً ، ولا يمسك بيده منها على شىء . .

هكذا صوّرت الانحرافات العقلية ، والأمراض النفسية لبعض الناس ، أنهم قادرون على أن يُخْلُوا عقولهم وقلوبهم من البحث عن الإله والتفكير فيه ، وأن يقطعوا كل ما من شأنه أن يذكّرهم به ، أو يدعوهم إليه !

والواقع أن هؤلاء الذين يُغْمضون أعينهم عن الإله ، ويُصِمُّون آذانهم عن

---

(١) العقل والدين ص ٩

(٢) العقيدة والشريعة لجولد تسيهر ص ٩

الحديث عنه هم أكثر الناس حديثاً عن الإله، وأكثرهم تفكيراً فيه، وبحثاً عنه..
وأن هذا الموقف السلبي الذي يقفونه منه إن هو إلا أثر من آثار هذا الصراع
العنيف الذي يدور في كيانهم، بحثاً عن إله يريدون أن يروه رأي الحقائق العلمية،
التي تتكشف لهم من وراء تجربة ناجحة، في معمل من معامل العلوم الطبيعية
أو الكيميائية.. ثم إنهم حين يضنيهم البحث، ويرهقهم التطلع، ويطول بهم
الانتظار، وتلاحقهم الخيبة.. المرّة، بعد المرة، دون أن يطلع عليهم هذا الإله
المنشود في بوتقة أو قنينة، حينذاك يملأ اليأس قلوبهم حسرة وألماً، فيكون منهم
هذا التجديف، وذلك الهذيان، يترضّون به أنفسهم، ويداوون به جراحات
الخيبة التي مُنُوا بها، في تلك المعركة، ويُرضون كبرياء العقل، ويَعذِرون له عجزه
وقصوره في هذه السبيل، باعتبار أنه إنما كان يبحث عما لا وجود له! فلا عليه إذا
هو رجع ولا شيء معه!!

الإله في التفكير المادي:

إن البحث عن الإله بهذا العقل المادي، واختباره بمخابير المادة، لابد أن يصل
بالباحثين إلى مثل هذا الموقف الذي يُسلم العقل إلى اليأس، ثم الجحود والإنكار..
ثم التجديف والتخبط.. ثم الحيرة، والاضطراب، والقلق.. فلا يطمئن لهم
قلب، ولا تسكن لهم نفس.. بل هم أبداً في سخط، وتبرّم.. وفي اتجاه سريع
إلى التخلص من الحياة، ولو بالانتحار!

يقول «وليم جيمس»:

«لا يزال بعض رجال المذهب الوضعي ينادي اليوم قائلا: «هناك اليوم إله
واحد مقدّس، يقف في إجلال وعظمة، بين أنقاض كل إله غيره، وكل دين —
وهو الحقيقة العلمية.

«وليس له إلا أمر واحد، وقول واحد، وهو: أن ليس لكم أن تؤمنوا

بإله ، لأن الإيمان بالآلهة إرضاء للميول الذاتية ، وإرضاء الميول الذاتية يؤدى للهلاك العقلى . . !!

ثم يقول : « ويظن أرباب الضمائر هؤلاء أنهم استقلّوا بأنفسهم ، وحرّروا عقولهم من تحكم الميول الفردية تحريراً كاملا وأبدياً . . ولكنهم فى ذلك مخدوعون . . إنهم لم يفعلوا شيئاً ؛ إلا أنهم قد اختاروا من ميولهم المتعددّة الميول التى تنتج أبخس النتائج ، وأحطها قدراً ، بل وأكثرها إخالا . . وأعنى بذلك مجرد عالم ذرّى ، وضحوا بكل ما عدا ذلك من الميول[1] » .

يكشف وليم جيمس هنا عن طبيعة العقلية المادية ، وعن محاولتها الهروب من الوقوع تحت المؤثرات الذاتية للميول والعواطف، فى مجال البحث عن الحقيقة ، ذلك أن الإخلاص للحقيقة يفرض على الباحث أن يتجرد لها من كل ميوله وعواطفه ، حتى يستطيع أن يراها غير ملونة إلا باللّون الذى لها . .

وهذه التضحية بالميول الذاتية والعواطف الشخصية فى سبيل البحث عن الحقيقة عمل مبرور، لو كان فى إمكان الإنسان أن يحققه ، وأن يَبْلُغَه من نفسه . . ولكن الذى يحدث غالباً — وربما دائماً — هو أن ميول الإنسان ونزعاته كثيراً ما تغلبه على أمره معها ، وأنه فى أحسن أحواله قد يتخفف منها ، أو يعتقلها لحظات عابرة ، ثمّ لا تلبث أن تنطلق ، وتأخذ مكانها من تفكيره !

فالإنسان لا يمكن أن يتخلى عن ميول ذاتية تتحرك فى كيانه ، ولو افتقدها لحظة لافتقد ذاته التى يشعر بها ، ويرى من خلالها شخصه ووجوده !

وغاية ما يمكن أن يفعله الإنسان إزاء شعور ذاتى خاص هو أن يصرف هذا الشعور ويُحلّ محله شعوراً ذاتيا آخر . . يوازى هذا الشعور ، أو يناقضه !

وفى هذا الموقف الذى يقفه العقل المادى من الإله ، والذى يدعوه فيه جلال

---

(١) العقل والدين لوليم جيمس ، ترجمة الدكتور محمود حب الله ص ٩٩ .

الحقيقة التى يبحث عنها ، أن يتجرد لها من نوازعه وميوله وعواطفه ، حتى يراها رؤية خالصة من شوائب الغبار ،الذى تنفضه عليها هذه النوازع والميول والعواطف — فى هذا الموقف لا يعدو المرء فى تصرفه هذا أن يكون قد استبدل ميولا ذاتية بميول ذاتية أخرى ، فهو وإن يكن قد أخلى نفسه من تلك العاطفة التى تميل به إلى جانب الأمل، الذى يفسح له فى رحاب الكون مجالاً تسعد فيه نفسه بهذا التعاطف الذى يقوم بينه وبين الوجود—فإنه قد أقام فى كيانه شعوراً ذاتياً باليأس، فأوصد الأبواب التى بينه وبين هذا العالم الرحيب، الذى يقوم وراء العالم المادى ، واعتقل نفسه فى سجن المادة المظلم الكثيف !

فالقول بأن الإيمان بالإله ، ذلك الإيمان المستوحَى من وادٍ غير أودية الكشوف العلمية المتجردة تجرداً مطلقاً من النوازع الذاتية — القول بأن مثل هذا الإيمان هو إهدار للعقل ، واستجابة للغرائز الطفولية فى الإنسان — هذا القول إن يكن فيه اعتراف بالمنزلة التى ينبغى أن يحتلها العقل فى كيان الإنسان . فإنه فى الوقت نفسه فيه إخماد للعقل ، وإطفاء لجذوته التى لا تشتعل أبداً ، إلا إذا أمدتها الرغبات الذاتية والنزعات الشخصية بالقدر الكافى من الوقود ،الذى إن انقطع مدده خمد العقل وخبا ، وبرد، وأظلم !

إن أصحاب الفلسفة المادية الذين يؤمنون بالعقل هذا الإيمان المطلق على هذه الصورة التى يصورونه بها ، وبهذا الوضع الذى يضعونه فيه — إنهم يظلمون هذا العقل ظلماً بيِّنا ، ويقسون عليه قسوة قاتلة . . إذ أن عدم اعترافهم إلا به وحده أداة للتفكير ووسيلة لتحصيل العلم والمعرفة ، يقطعون هذا العقل عن أطيب مجانى العلم ، ويعزلونه عن أصفى موارد المعرفة ، ويسوقونه سوقا عنيفاً فى صحراء مجدبة ، محرقة ، تتلظى بلهيب الهواجر ، وتتقلب فى سمومها !

إن ذلك وضع لا يقبله العقل أبداً ، ولا يحتمل الصبر عليه يوماً أو بعض

يوم .. فإنه فى اليوم الذى يستطيع فيه إنسان أن يصير بعقله ، أو يصير به عقله إلى هذا المصير — هو اليوم الذى توصد فيه فى وجه الإنسان أبواب الرحمة ، وتُكظم فيه أنفاس الحياة ، فلا يجد المرء أمامه فى تلك الحال غير الانتحار طريقاً للهرب من وجه هذه الحياة الكالحة المكشّرة عن أنيابها . . فالموت وحده ، وليس إلا الموت هو وجه الخلاص من هذا البلاء ، الذى سيقَ إليه العقل ، وسيق لإنسان به معه .

« إن الصفة الجوهرية التى تميز الإنسان عن الحيوان ، هى تلك الثروة الطائلة من الميول الشخصية . . فلم ينشأ تفوق الإنسان إلا عن الكمية والكيفية الغريبة وغير الضرورية ، من رغباته وحاجاته المادية والأخلاقية والوجدانية والعقلية . . فلو لم تكن حياة الإنسان إلا عبارة عن بحث وراء الكماليات لما تمكن تمكناً لا يغالب من الحصول على الضروريات »[1]

فالكماليات ليست من مطالب العقل المجرد ، لأن العقل المجرد بمنطقه الجاف ، لا يستسيغ قبول هذه الكماليات التى يراها إضافات لا حاجة إليها ، وذيولا تضر ولا تنفع ، وإنما هذه الكماليات من مطلوب الرغبات ، والغرائز والميول . . وهذه الكماليات التى يزهد فيها العقل التجربدى هى التى تدفع الإنسان فى قوة ، وشوق ، وجِدّ إلى غاياتها ..وفى الطريق إلى تلك الكماليات يحصل على الضروريات ، ولولا السعى المشوق إلى الكماليات لوقف فى الطريق . . لا يصل إلى الضرورى ولا الكمالى جميعاً .

تلك هى جناية العقل المادى المجرد على أصحابه . . إنه يحرمهم ثمرات كثيرة طيبة من ثمرات الحياة المادية التى يدفعون به إليها ، ويتدافعون وراءه، متكالبين عليها . . لأنهم يُجْرونه بغير زاد ، فيعيا ويسقط بهم فى أول الطريق . .

---

(١) العقل والدين . لوليم جيمس .. ترجمة محمود حب الله ص ٩٩

واستمع إلى قول الحق جلّ وعلا ، وإلى هذا الإعجاز الذى تخضع له الأعناق :

« ومن الناس من يعبدُ الله على حرْف ٍ ، فإن أصابهُ خيرٌ اطمأنَّ به ، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه ، خَسِرَ الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين »[1] .

أليس ذلك هو صورة من صور العقل المادى الذى يقف بأصحابه هذا الموقف المخزى اللئيم مع الله .. إنه لا يتعامل مع الله سبحانه إلا على هذا الأسلوب النفعى النقدى المعجل . ! !

إن الغرائز والميول — كما قلنا — هى الوقود الذى تغلى به مراجل الكيان الإنسانى ، فيتحرك وينطلق إلى المدى الذى يمكن أن تبلغه إياه قوة الدفعة التى تدفعه بها غرائزه ورغباته وميوله .

يقول وليم جيمس : « إن كل القوى التى تعمل فينا متضامنة بالضرورة،حين نكوِّن آراءنا الفلسفية ، فيتضامن العقل والإرادة والذوق والشهوة فى المسائل النظرية ، كما تتضامن فى المسائل العملية .

« إن العملية الذهنية الجوفاء التى لا يعنيها إلا أن تجمع الأدلة ، وتقدر ما فيها من احتمالات مستعملة فى مقاييس دارجة ، ومتأثرة بحجم الأدلة ، وبمقدار من ماعتد بها من الناس — لعملية محالة من ناحية عملية ، وغير مناسبة من ناحية نظرية ! !

ثم يقول :

« ولست أدرى كيف يتأتى لهؤلاء الذين يشتغلون بالفلسفة أن يقولوا إنه من

---

(١) سورة الحج :آية ١١ .

الممكن تكوين فلسفة من غير مساعدة الميول الشخصية ، والاعتقادات الفردية ، أو اعتبار المستقبل ، وتبصر العواقب ؟ وكيف نجح هؤلاء فى أن يمنعوا حواسهم من أن تدرك الحقائق الحيوية من الطبائع البشرية ، ولم يتبينوا أن كل من كان له أثر فى تطور الفكر البشرى — كان قد اعتقد أولا فى أن الحقيقة لا بد أن تكون موجودة فى أحد الجانبين دون الآخر .. واعتقد ثانياً أن نظريته يمكن أن تنجح .. ثم بذل أخيراً كل ما فى وسعه ليجعلها ناجحة ؟

« إن تلك الميول العقلية المتباينة للأفراد هى الاختلافات الذاتية التى يُعتمد عليها التنازع العقلى من أجل البقاء ، فتخلد النظريات الصالحة،ويلمع معها فى المستقبل أسماء رجالاتها »[1]

فالتفكير الذى ينسلخ فيه العقل من العواطف ، هو تفكير مفتعل ، متحدّ للطبيعة الإنسانية ، ومن هنا تجىء معطياته معطوبة ممسوخة !

إن مثل هذا التفكير الذى يُغرق العقل فى التراب ، لا يمكن أن تلتمع فيه بارقة أمل أو رجاء فى حياة أفضل . .

ولكن من رحمة الله بالإنسان أن جعل العقل غير قابل للخضوع لهذا التفكير الأسود ، وإنما هو فى سعى دائم ، وفى تطلع مستمر لا ينقطع إلى هذا النور القائم وراء المادة المظلمة ،يراه بحدسه ، ويلمحه فى رُؤاه وأحلامه ، وآماله !

* * *

ونعود — بعد هذا — لنسأل : لماذا الإله ؟ ولماذا هذا البحث الدائب عنه ؟ وما الضرورة الحيوية التى ألجأت الانسانية فى جميع أزمانها ، وأطوارها ، وأجناسها إلى التفكير فيه ، ومعاناة الاستدلال عليه ؟

---

(١) العقل والدين : ص ٦٢ .

تُرى أيكون هذا الاجماع المطبق المتواصل بين أبناء الجنس البشرى ناجماً عن ضلال تواصَوْا به ، وتوارثوه جيلا عن جيل ؟

إن ذلك بعيد لا يقبله العقل ، ولا يزكّيه الواقع — فإن تاريخ الانسانية كله لا يعرف أمراً واحداً غير هذا الأمر ، شَغَل الناس جميعاً ، وواجه الحياة الإنسانية كلها على امتدادها زمانا ومكانا . . ولو حدث شىء من هذا لكان له دورة من دورات الحياة ، ثم لا يلبث أن يختفى غير مخلف وراء إلا أثراً أو خبراً ، وقد لا يترك أثراً ولا خبراً ! !

أفيكون ذلك البحث المتصل عن الآلة وجهاً من وجوه المعرفة، يطلبه الناس، ليحققوا من ورائه نفعاً ماديا ، بتسخير قوى الطبيعة ، وفتح مغالقها ؟

ذلك غير مقبول..إذ لو كان كذلك لما وقف الناس منه إلا أفراداً أو جماعات، وإلا كان الوقوف إزاءه لا يتجاوز مرحلة من الزمن، ثم ينتهون منه على أى حال.. سواء أكشفوا هذا الوجه أم عُمّيت عليهم السّبل إليه !

إن أمراً واحدا لا غير هو الذى شغل الإنسانية على هذا الوجه الذى شمل وجودها كله ، من أول يومها إلى اليوم ، ثم هى لا تزال فى شغل به ، لا تفرغ منه أبداً .. ذلكم هو البحث عن الإله .

والإله الذى يبحث الناس عنه ، ويُشغَلون به ، لابد أن يكون — فى مفهوم هذا التصور — ذا خصائص ينفرد بها عن كل ما نظر فيه الإنسان وشغل به ، من شئون الحياة ، ومن مسائل العلم والفنّ .

ومن هذه الخصائص :

أولا : التفرد .. الذى يقطع كل مقاربة أو مداناة بين الإله ، وبين أى شىء آخر . . وإلا لتوزع الناس بين هذه الأشياء التى تقاربه أو تدانيه . . ولكن الناس جميعاً لا يطلبون إلا الأول المتفرد ، ولا يجدون مقنعاً أو رضًى فيما هو دونه .

ثانياً : أن يكون خالداً ، وإلا افتقده الناس يوماً ، ثم لا يجدون له فى كيانهم مكاناً يدعوهم إليه .

ثالثاً : أن يكون ملء هذا الوجود . . بحيث يجده الناس أين كانوا ، ومتى كانوا . . وإلا كان شغل الناس به محدوداً بزمن ، أو محصوراً بمكان !

هذه صورة منطقية للصفات التى ينبغى أن يكون عليها الإله الذى تبحث عنه الإنسانية ، وتتطلع إليه .

أما الإله الذى وجدته الإنسانية فى ضميرها فهو أكبر وأعظم من هذه التصورات . . إنه لا يقايس بالانسانية وحدود زمانها ومكانها . . وإنما يُنظر إليه من خلال هذا الوجود كله . . المحسوس ، وما وراء المحسوس . . ما يدركه العقل ومالا يدركه .

فالإله الذى يسكن إليه وجدان الناس ، وتطمئن له قلوبهم إنما هو هذا الموجود الذى يحيط بهذا الوجود ، ويصرّفه بلطفه ، وعلمه ، وحكمته . . !

يقول الفيلسوف وليم جيمس : « إنه يبدو لى — وتلك نتيجتى النهائية — أن العالم الخُلقى المستقر المنتظم الذى يبحث عنه الفيلسوف الخلقى لا يمكن أن يوجد كاملا إلا حيث توجد قوة مقدسة ذات مطالب عامه شاملة . .

« فإذا وجدت هذه القوة ، فإن منهجها فى إخضاع أحد المُثُل الآخر سيكون المنهج الصحيح لتقدير القِيَم »[1]

ثم يقول : « إن إضافة صفة القداسة لله ، تجعلنى أعتقد أن الله لا يريد إلا الخير . .

« ولإضافة العلم الكامل لله أثر على سلوكى ، لأنها تجعلنى أعتقد أنه يمكن رؤية أفعالى فى الظلام !

---

(١) وليم جيمس ص ١٨٢

وتصور العدل الإلهى يؤثر على سلوكى حيث أن عقابى أمر محتم حين يرى منى عصياناً .

« وحب الله العباد يحمانى على الاعتقاد بأنه ميال للغفران وقبول التوبة .. وهكذا »[١] .

فهذه الصفات الكمالية التى يتمثلها الإنسان فى الإله الذى يعبده ذاتُ موحيَاتٍ قوية ، لها سلطانها فى سلوك الإنسان ، وفى تقويم هذا السلوك ، وإقامته على الوجه المقابل لهذه الصفات .

ويرى « وليم جيمس » أن هذه الصفات العالية التى يتصف بها الإله ، لا تقطع الصلة بينه وبين الإنسان ، ولا تجعل الإنسان فى وضع ذليل مهين . إذا هو نظر إلى الخالق العظيم فى سلطانه المطلق وبطشه وجبروته ..

فالله هو خالق هذا الوجود ، وهو الذى — بمقتضى هذا الخلق — يرعاه ، ويحفظه ، ويدفع عنه عادية الفساد والاضطراب . .

وإذن فالإنسان — وهو مخلوق كريم عند الله — قريب من الله ، مأنوس برحمته ، مطمئن إلى عدله وحكمته » ..

يقول جيمس فى هذا :

« لِمَ يكون الله مَلِكا متعالياً على كل قوة ، إننا نريد مواطنين أحراراً فى جمهورية كلية !

« إن العالمَ شبيه بدولة جمهوريّة شعبية ، يقدّس كل عضو فيها أعمال الآخر . وفوقهم معين أكبر . . هو الله . . »[٢] .

---

(١) وليم جيمس ص ١٤٧
(٢) وليم جيمس ص ١٨١

مطلوبُ الإنسانية إذن هو إله ، أو معبود تجتمع عليه رغبات الناس جميعاً ، في جميع المستويات ، وفي مختلف الأحوال والأزمان ، لا تنقطع الصلة بينه وبينهم لحظة واحدة . .

ونسأل :

هذا الإله الذي يتحقق للإنسانية فيه هذا الإشباع لتفكيرها ، وتصوراتها ، ونوازعها ، ورغباتها ، وخوالجها ، وأحلامها . . ما هو ؟ وكيف يتصور ؟

الإله في التفكير المادى . . مرة أخرى :

المـاديون . . لا يقبلونه إلا أن يكون مما يستجيب لحواسهم أولا وقبل كل شيء ، فيبصرونه بأعينهم ، ويلمسونه بأيديهم ، ويخضعونه لمشرط التشريح ، ولمخبار المعمل !

وهذا الإله المادى ، لا يشبع — كما قلنا — إلا رغبة محدودة في جماعة محدودة من الناس ، ولوقت محدود عندهم . . فإن أيًّا من هذه المحسوسات التي تَفْتِن الإنسان ، وتملك عليه وجوده ، لا يمكن أن يظل هكذا بسلطانه القاهر المتسلط على الإنسان ، القاهر له ، المستبد بعقله ووجدانه . . بل إنه لا يلبث أن يذهب الزمن بما وقع على النفس منه ، من بَهَر ودهش وإعجاب ، ثم لا يلبث أن تتحول هذه المشاعر الملتهبة الوالهة به إلى مشاعر فاترة باردة . . تلقاه فلا تكاد تلتفت إليه ، أو تأبه له . .

هكذا كل شيء يمكن أن يكون له على نفس الإنسان سلطان يدعوه إلى الإعجاب به ، والوَلَه له ، أو الخضوع والولاء بين يديه . . لا تلبث النفس أن تتحول عنه ، وتزهد فيه ، بعد الإلف والصحبة ، فإن لم تتحول هى عنه تحول هو عنها ، حين يُبلى الدهرُ جديدَه ، وتُطفىء الأيام جذوته ، وتذهب بشبابه وجماله وجلاله .

وإذن فالإله الذى يُلتمس من وجوه المادة ليس هو الإله الحق الذى يستظل الإنسان بظله ، ويحيا فى كَنَفه ..لأنه ظل زائل ، وكنف مَهِيض ،صائر إلى الفناء !

لقد عبد الماديون كثيراً من هذه الآلهة ، وسجدوا لها ، وخشعوا بين يديها خشوع العابد لرّبه .

الطبيعة مثلا . . أليست إلهاً معبوداً فى قوانينها التى أسلم إليها العقل زمَامَه ، وجعلها ملاذه ومعاذه، فى كل تفكير وتقدير له ؟

والنظريات المذهبية — من سياسية واقتصادية — أليست ديناً ، تقوم فى كيان أصحابها بمبادئها وتعاليمها، كما تقوم الأديان السماوية بنشر تعاليمها وأحكامها فى عقول أتباعها وقلوبهم ؟

والفلسفات المادية ، بصورها وأشكالها ، من وجودية وبرجماتية وغيرها . . أليست معتقداً مستولياً على وجود أصحابه ، يؤدّون له ما يقوم عليه من طقوس وأعمال ، على نحو ما يؤدى أصحاب المعتقدات الدينية للإله ، من عبادات وقُرُبات ؟

وصُوَر الحياة المادية التى يغرق فيها الماديون ، ويفنُون وجودَهم فيها، فى فلسفة مجنونة — من مال ، وخمر ، ونساء ، وموائد قمار . . وغيرها ، وغيرها .. أليست هذه آلهة أو شبه آلهة يطوفون بها طواف العابد بوثنه ؟

فإذا كانت الطبيعة وقوانينها ، والنظريات المذهبية وسلطانها ، والفلسفات المادية وإغراؤها ، والمال وفتنته ، والمرأة وإغواؤها ، والقمار وسُمّاره ، والخمر ونشوتها — إذا كانت كل هذه وكثير غيرها مما يعبد الماديون ، ومما يترضَّوْن به نزعة العبودية الكامنة فيهم — أفيمكن أن تجتمع أهواء هؤلاء العابدين على معبود واحد من هذه المعبودات ؟

إن أيًّا من هذه المعبودات لا يسع هذه الأهواء المتخالفة ، ولا يشبع تلك النزعات المتفرقة ،التى لا يكاد يلتقى فيها إنسان مع إنسان ، لقاء دائما مستمراً .

وإذن فليس يصح أن تقوم لأىٍّ منها دعوة يُدعى إليها الناس جميعاً ، ويتلاقون عندها ، ليكون ديناً يعتقد ، أو إلهاً يعبد .

ولقد أشرنا من قبل إلى ما صوّر به القرآن الكريم هذه الأهواء المتسلطة على الناس ، حيث تقيم لها منها آلهة يعبدونها ، ويعطون الولاء المطلق لها . . وذلك فى قوله سبحانه وتعالى : «أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه ؟ أفأنتَ تكونُ عليهِ وكيلاً ؟ أم تحسَبُ أنأكثرَهُم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلاَّ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا»[1] . . ويقول سبحانه بعد هذا مباشرة : « أَلَمْ تَرَ إلى ربِّكَ كيف مدَّ الظِّلَّ ، ولو شاء لجعَله ساكِناً ، ثم جعلنا الشمسَ عليه دليلاً ، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا »[2] . .

وأنت ترى فى هذه الآيات كيف يفرّق الله سبحانه وتعالى بين العقل المادى الذى لا يخرج عن المادة ، ولا يرتفع عن غبارها ، وبين هذا العقل الإنسانى الذى يضع بين يديه آياتِ قدرته ، وحكمته ، وعلمه ، ثم يدعوه إلى النظر فيها ، ليرى من خلالها الإله الحقّ الذى ينبغى أن يعبد ، لا تلك الآلهة التى تتولد من نزعات الضلال والهوى التى تغشّى على البصر ، وترين على القلب . . « أفرأيت من اتخذ آلهه هواه ، وأضَلّه الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة »[3] .

هذا وليس يشفع للماديين ، أو يخرج بهم عن تلك الصفة أن يدّعوا أنهم لا يعبدون شيئاً من هذه الأشياء التى نقول إنها الآلهة المعبودة لهم من دون الله ، وإنما الذى يقوم بينهم وبينها هو إلف ومودة عن اقتناع واطمئنان . .

ونقول : إنهم عابدون لها ، رضُوا بذلك أم أبوْا ، شعروا به أو لم يشعروا . . وماذا تكون العبادة غير هذا الذى هم فيه من ولاء وتقديس ، أو فناء واستغراق لما يعبدون ، وفيما يعبدون ؟

* * *

(١) سورة الفرقان آية ٤٣ ــ ٤٤

(٢) الفرقان ٤٥ ، ٤٦

(٣) سورة الجاثية : آية ٢٢

الإله فى التفكير الإنسانى:

غير الماديين ، من لا يقيمون وجودهم فى إطار المادة ، ولا يعطون ولاءهم كله لها — هؤلاء يتمثلون الإله فكرة مجردة ، تعيش فى كيانهم أشبه بالخاطر المسعد الذى يملأ وجود الإنسانية سعادة ورضى .. على صورة دائمة ، لا تنقطع أبداً ، وإن تفاوتت درجات الإحساس به بين الناس ، وفى مختلف أحوال الإنسان الفرد ذاته .

وهذا التصور للإله لا يمكن أن يجد له العقل وجهاً يراه عليه ، لأنه يقوم على غير صفة معروفة يطلبه الإنسان عليها ، ويهتدى اليه بإشاراتها ووحيها .

ومن هنا كان مثل هذا الإله عرضة لأن يضل الإنسان طريقه إليه ، وأن يفتقده يوماً فلا يجده على الصورة التى عهده عليها ، أو يجد إلهاً آخر ، أو خاطراً جديداً حلّ محلّه ، وشغل مكانه !

وإذن فما الإله الذى يمكن أن تتجه إليه العقول والقلوب ، وتتلاقى عنده النزعات والرغبات .. فى الإنسان الفرد ، وفى الناس جميعاً ، ثم تجد فى رحابه المجالات التى تتحرك فيها إلى كل اتجاه ، وإلى غير مدًى ؟

الإسلام والإله الذى يدعو الناس إليه :

والإسلام يستطيع أن يجيب على هذا السؤال الإجابة الصحيحة، التى لا تنقضها الأيام ، ولا تغيّرها الأحداث ، ولا الأحوال .

* « قل .. هو اللهُ أحدٌ .. اللهُ الصَّمَدُ .. لم يَلِدْ ، ولم يُولَدْ ، ولم يكن له كفُوًا أحدٌ[1] » .

هذا وجه الألوهية ، تستطيع الإنسانية كلها أن تتجه إليه ، وأن تطالع فيه

---

(١) سورة الاخلاص

آمالها ، وأن تسند إليه وجودها، وأن تمدّ إليها يدها .. فتمسك بأوثق منه العُرَى ، وتلوذ بأقوى القُوَى . .

* * *

« الله لا إله إلا هو الحىُّ القيُّوم .. لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نوم .. له مافى السموات ومافى الأرض، مَنْ ذَا الّذى يشفعُ عِنْدَهُ إلا بإذنِهِ ؟ يعلمُ ما بين أيديهم وما خلْفَهم ، ولا يُحيطون بشىء من علمه إلاَّ بما شَآء ، وسع كُرسِيُّهُ السموات والأرضَ – ولا يؤودُهُ حفظهما ، وهو العلىّ العظيم (١) »

وهذا وجه آخر للألوهية ، يعرضه الإسلام فيرى فيه الناس القُدْرة القادرة القائمة على هذا الوجود ، الحافظة لنظامه ، والتى لولاها لاختل هذا النظام واضطرب، أو لكان عرضة لأن يختل ويضطرب ، فلا يمسى الإنسان أو يصبح إلا وهو مهدّد بالكوارث والمهلكات التى تزول بها السموات والأرض !

وكيف يقوم هذا الوجود ، وكيف تتحرك كائناته السماوية والأرضية بلا قائد ومدبر، دون أن تتصادم ، وتتهاوى ؟

أرأيت إلى ميدان من تلك الميادين القائمة فى المدن الكبيرة ، وقد انطلقت فيه السيارات إلى كل اتجاه . . ثم — وعلى غير إرادة — تراخت أيدى السائقين عن عجلات القيادة لهذه السيارات المنطلقة أو جمدت عليها . . فماذا يكون ؟ وما مصير الذين تقلّهم تلك السيارات؟ إنه التصادم المتفجّر الذى يذهب بالمراكب والراكبين !!

إن هذه الصورة التى يعرضها الإسلام للألوهية تعطى الناس جميعاً شعورَ الطمأنينة إلى النظام الممسك بالوجود . . ذلك النظام الذى تقوم عليه قدرة حكيمة عالمة ، لا حدود لقدرتها ، وحكمتها ، وعلمها .

ألم ترَ أن الله سخّر لكم مافى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسكُ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . . إن الله بالناس لرءوف رحيم (٢) » ..

إذ من رأفة الله ورحمته بعباده أن حفظهم من توقعات الاختلال لهذا الكون ،

(١) سورة البقرة آية ١٠. (٢) سورة الحج ٦٥

ومن تعرضه لضربة عمياء تذهب بكل شيء فيه ! فإن مثل هذا الشعور لو تسلّط على الناس لما أقامهم لحظة من ليل أو نهار على جناح أمن أو قرار .

* « هو الله . . الذى لا إلهَ إلاّ هو . . المَلِكُ . . القُدُّوس . . السَّلام . . المؤمنُ ، المهيمنُ . . العزيزُ . . الجبَّارُ . . المتكبِّر . . سبحان الله عما يشركون . . هو الله . . الخالقُ . . البارئ . . . المصوِّرُ . . له الأسماء الحسنى . . يسبّح له مافى السَّموات ، ومافى الأرض . . وهو العزيز الحكيم[1] » .

وجوه كثيرة لا حصر لها . . كلّها حُسْن ، وبهاء ، وجلال . . يتملاّها الإنسان فيرى فى كل منها مايملأ عليه وجوده طمأنينة ، ورضًى ، وسعادة . . إذ كانت حياته فى ضمان هذه الذات تتصف بتلك الصفات التى لا حدود لكمالها ، ولا نهاية لسلطانها !

* * *

إلى هذا المفهوم الواضح القويم ، الذى لا التواء فيه ولا غموض ، يحمل الإسلام إلى الناس الدعوة إلى الله ، ويقيم وجوههم إليه ، وبهذا يستطيع الناس جميعاً على اختلاف أفكارهم ومنازعهم ، وعلى تفاوت حظوظهم ومنازلهم فى العلم والمعرفة أن يروا الإله ، وأن يصل العقل ، والضمير بينهم وبينه ، صلة تقديس ، وولاء ، وحب ، وعبادة !

فمن غلبت عليه المادية كان هذا الوجود فى أرضه وسمائه ، وفيما فى أرضه وسمائه — مرآةً يرى فيها آيات الإله ، وما يتجلّى فيها من روائع العلم ، والحكمة ، والقدرة ، والتى تشهد شهادة قاطعة قائمة على سمت الواقع المحسوس أنه واحد لا يشاركه أحد ، فيما صور وأبدع :

وفى كلِّ شيء له آيةٌ تدلّ عَلَى أنه الواحـــد

---

(١) سورة الحشر آيتا ٢٣ ، ٢٤

وماذا يفكر الماديون فى هذا الموقف، الذى يقفونه بين يدى الله ، على مسرح الطبيعة، وفى مواجهة آياتها وروائعها ؟

إن الواحد من هؤلاء الماديين ليقف بين يدى مصنوع من تلك المصنوعات التى أودعتها يد عالم فنان .. فى لحن موسيقى ، أو تمثال ، أو صورة ، أو قصيدة .. فيتخاشع بين يدى هذا المصنوع ويتخاضع له ، وتحضره حال من الدَّهش والبَهَر ، وتستولى عليه مشاعر من الروعة والجلال أمام هذا العمل الرائع المعجب ، ثم لا يلبث أن ينتقل بمشاعره تلك ، وبالحال التى استولت عليه إلى صاحب هذا العمل ، فيتمثّله فى خاطره صورةً يتعشقُها ، وقد يعبدها !! .. وإن لم يكن قد رأى هذا الفنان ، أو سمع عنه ، أو استدل على ملامحه من صورة أو تمثال !

فلِمَ ينكر هؤلاء الماديون أن يقفوا بين يدى ربّ هذا الوجود ، وصانعه ، ومبدعه ـ هذه الوقفة التى يقفونها بين يدى مصنوعات المصنوعين ، ومخلوقات المخلوقين ؟

« أمَّن جعل الأرض قَراراً ، وجعَلَ خِلاَلَها أنهاراً ، وجعَل لها رواسِيَ ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإلَهٌ مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون »[1]

« أمَّن يَهديكم فى ظُلُمات البَرِّ والبحر ، ومَنْ يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بين يَدَىْ رحمتِه ؟ أإلَهٌ مع الله .. تعالى الله عما يشركون[2] » .

فهذه آيات من الفنّ الرفيع الذى لا تناله قدرة فنّان ، ولا تقوم عليه دعوى يدّعيها أحد لنفسه ، أو يقول إنها من عمل يده ، أو يد أحد من المخلوقات ، من جنسه أو غير جنسه !

فمَنْ صاحب هذه الآيات ؟ ومن صانعها ؟

« أإلهٌ مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم .. إن كنتم صادقين[3] » .

---

(١) سورة النمل : آية ٦١
(٢) سورة النمل : آية ٦٣
(٣) سورة النمل : آية ٦٤

فإذا لم يكن ثَمَّةَ برهان لأحدٍ عليها .. فلمن هى إذن ؟ وإلى أى صانع تَنْتسب ؟ إنها — بلا شك ، ولا امتراء — لهذا الخالق العظيم ، الذى تفرد بالوجود ،على تلك الصفات الـكمالية، التى أبدع بها ما أبدع ، وصور ما صور !

إنه إذن هو الذى ينبغى أن يكون له الولاء كله ، والحب كله ، والتقديس كله .. ثم ليـكن له من الأسماء الحسنى ما يليق به ، وبجلاله ، وعظمته .. « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ».. إنه ليست الماديين حجة تخرجهم من هذا الإلزام ، الذى يقضى عليهم أن يكونوا هم وما يعبدون من آلهة — مصنوعين للصانع العظيم ، وأن يكونوا هم وآلهتهم تلك مقودين له ، خاضعين لسلطانه : « إن كلُّ من فى السموات والأرض إلاّ آتى الرحمنِ عَبْدا »..(١)

أما غير الماديين ، أو الماديين الذين لم يغرقوا فى المادة إلى أذقانهم أو آذانهم ، فإنِ دعوة الإسلام لهم إلى الإله الذى أقام فيها وجوه الناس جميعاً إليه — هؤلاء وهؤلاء جميعاً سيجدون فى هذا الإله — كما يدعو إليه الإسلام — أكملَ كمالٍ يطلبونه، وأجمل جمال يتعشقونه، وأمنع حصن يلوذون به ، وأرحم راحم، وأسمع سامع، وأبصر مبصر ، وأكرم معط ، يمدون أيديهم له ، ويرفعون وجوههم وأبصارهم إليه !

ومن هنا لم يكن للناس جميعاً على اختلاف ما بينهم ، فى تصورات عقولهم وفى خَطَرَاتِ قلوبهم ، وفى خلجات ضمائرهم ، وفى منازع آمالهم ، وفى مَهْوَى أفئدتهم — لم يكن لهم انفكاك عن الاتجاه إلى الله، والالتجوء إليه ، أينما كانوا، وعلى أى حالٍ كانوا !!

فالإله الذى تبشر به الشريعة الإسلامية ، وتدعو الناس إلى الولاء والعبودية له .. هو قوة حكيمة عالمة ، قادرة ، مدبّرة ، . لا حدود لسلطانها ، ولا معقِّب لحكمها .. يراها الإنسان بعقله وقلبه جميعاً ، رؤيةً تسكن إلى كيانه ، وتملأ

---

(١) سورة مريم : آية ٩٣

وجدانه وشعوره إيماناً ويقيناً ، دون أن يكون للحواس — ومنها العقل — سبيل إلى لقائه لقاءاً واقعا مباشراً .

ومع هذا الوضوح المشرق لكل من ينشد الحق، ويطلب الهدى، فى غير لَجاج، أو عناد؛ فإن كثيراً من ظنون الإلباس والشك والضلال تدخل على بعض العقول، فتقيم بينها وبين هذه الحقيقة المشرقة حجبا من الغبار والغيوم، فَتَتَخبط فى الظلام ، وتضرب فى متاهات ، لا ترى فيها للحق وجها .

فمثلا . . فى هذا القول بالإلٓه المطلق ، المتفرد ، القائم على هذا الوجود، الآخذ بناصية كل موجود فيه — هذا القول من شأنه أن يُفقد الإنسان وجوده ويشُلّ تفكيره ، ويقيد خطوه ويمسك زمامه ، فلا يتحرك حركة ، ولا يعمل عملا إلا فى ظل هذا الإحساس، الذى يرى المؤمنون من خلاله يدالإلٓه تملأ الوجود كله، وتمسك بكل ذرة من ذراته .

وأين الإنسان إذن فى هذا الوجود الذى يصوَّر على تلك الصورة ؟ وهل للإنسان بوضعه هذا — من حيلة يحتالها ، أو من طريق يسلكه ؟ وكيف ؟ وقد سُدّت المسالك ، وبطلت الحيل ؟

تلك مقولات ، ومماحكات ، وتلبيسات يُلقى بها العقليون وأشباه العقليين بين يدى هذا القول الذى يقوله الإسلام فى الإلٓه ، ويصفه به ، ويصوره عليه !

وهذا الفهم الخاطىء لصفات الله ، وما ينبغى أن توصف به من كمال مطلق ، ثم قيام الشريعة الإسلامية فى ظل هذا الإحساس بكمال الله المطلق، وقدرته المطلقة — هذا الفهم قد أغرى بعض المستشرقين باتهام الإسلام بأنه دين استسلام ، وخضوع ، واستذلال . . وأن هذا الشعور الذى قام فى كيان المسلم تجاه الله قد ترك آثاراً سيئة فى المجتمع الإسلامى، أدت إلى هذا الركود والجمود، الذى يسرى فى كيان المجتمع الإسلامى كله ، حيث ألقى المسلمون بوجودهم كله فى ظل الإلٓه . .

مستسلمين لنوم عميق ، فى ليل طويل ، لا تطلع له شمس ، تبعث الدفء واليقظة فى هؤلاء النيام !

وقد أعان على هذا الفهمَ الخاطىء ما يعانيه المسلمون فى مواطن كثيرة ، من ضعف وفقر ، وذلة ، بعد أن دارت بهم دورة الحياة ، فأنزلتهم عن مكان العزة والقوة والغَلَب فيها . .

ولو نظر هؤلاء الناظرون إلى المسلمين فى أيام مجدهم وعزهم وغَلَبَتهم لما وجدوا لهذا الضلال وجهاً يخرج به إلى الحياة ، ويواجه الناس . .

يقول « جولد تسيهر » . . المستشرق المجرى :

« الإسلام معناه الانقياد . . انقياد المؤمنين لله . .

« فهذه الكلمة تركّز أكثر من غيرها الوضعَ الذى وضع فيه « محمد[1] » المؤمنين بالنسبة لموضوع عبادتهم — يعنى الله —

« إنها — أى الإسلام — كلمة مصطبغة فوق كل شىء بشعور التبعية القوىّ ، الذى يحس به الإنسان إحساساً قويا أمام القدرة غير المحدودة ، والتى يجب أن يخضع لها ، وينزل فى سبيل ذلك عن إرادته الخاصة » .

فهل حقاً أن الإسلام يسلب الإنسان إرادته وقوته ، إذا هو جعل لله وحده القوة والإرادة ، والعزة ، والعلم ، والقدرة ، وغيرها من صفات الكمال ؟

الإسلام يعترف اعترافاً صريحاً مؤكداً فى كثير من آيات القرآن الكريم بما ينبغى أن يقال فى شأن الله ، وما يجب أن يصفه المؤمن به ، من صفات الكمال ، وأنه سبحانه قائم على كل شىء « لا يعزُب عنه مثقالُ ذرة فى السموات ولا فى الأرض

---

(١) لا يريد المستشرقون أن يفهموا أبداً أن محمداً رسول الله ، وأن الإسلام وحى سماوى من الله إليه .. بل إن فهمهم للإسلام إنما هو على أنه عمل من عمل محمد ، وتدبير من تدبيره !

ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا فى كتاب مبين »[١] .. «ما يكون من نَجْوَى ثلاثة إلا هو رابِعُهم ، ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرُ إلا هو معهم أينما كانوا »[٢] . . « يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفى الصُدورُ »[٣] . . «وعنده مفَاتِحُ الغيب لا يعلَمُها إلا هُوَ ، ويعلمُ ما فى البرِّ والبحرْ ، وما تسقُطُ مِنْ ورقة إلا يَعلمُها ، ولا حبةٍ فى ظلُماتِ الأرض ، ولا رَطب ولا يَابِسٍ إلاَّ فى كتاب مبين[٤] » .

فهذه الآيات وكثير غيرها تحدّث عن الله سبحانه ، بأنه وحده مالك الوجود ، وإليه الأمر كله ، لا يَشْركه فيه أحد ، فى قليل أو كثير . « ألاَ لَهُ الخَلْق والأمر .. تبارك الله رب العالمين[٥] » .

ومع هذا كله الذى لله ، فإن للإنسان وجودَه الكامل ، كما أن لكل كائن وجوده الذى يقوم عليه فى هذا الوجود ، بما أودع فيه الخالق العظيم من قوًى مقدَّرة بحسب دوره الذى يؤديه . . « الَّذى أعْطَى كلَّ شىء خَلْقَهُ ثم هَدَى[٦] » .

ولما كان الإنسان على تلك الصفة الكريمة التى وصفه الله بها ، وفى تلك المنزلة العالية التى أحلّه فيها بين المخلوقات — فإنه يحمل قوًى كثيرة لا يملكها كثير غيره من الكائنات ، وكما وصف القرآن الإله بهذه الصفات ؛ وصف الإنسانَ بصفات تليق به كمخلوق كريم ، له وجوده الذاتى ، وله عقله ، وتفكيره وإرادته ، ومنازعه ، وسعيه فى الحياة !

فالإنسان فى القرآن ليس مجرد « شىء » مسلوب التفكير ، منزوع الإرادة ، مقيد الخطو ، بل هو « كائن » عظيم ، محمَّل برسالة كريمة ، إلى هذا الكوكب الأرضى ، الذى نعيش فيه ، وهو أن يعمُرَه ، ويوجِّه تلك القوى التى أودعها الخالق فى كيانه ، إلى امتلاك ناصية الموجودات التى سخرها الله له ، ووضعها بين يديه :

---

(١) سورة سبأ : آية ٣
(٢) سورة المجادلة آية ٧
(٣) سورة غافر : آية ١٩
(٤) سورة الأنعام : آية ٥٩
(٥) سورة الأعراف : آية ٥٤
(٦) سورة طه : آية ٥٠

« واللهُ جَعَلَ لكم الأرضَ بساطاً ، لتسلكوا منها سُبُلاً فِجاجاً [١] » .

« والأنعامَ خلقها لكم فيها دِفْءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون، ولكم فيها جَمال حين تُرِيحُون وحين تَسْرَحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفُس، إن ربكم لرءوفٌ رحيم،والخيلَ والبغال والحميرَ لتركبوها؛ وزينة [٢] » .

« وهو الذى جعل لكم النّجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر [٣] » .

« والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيلَ تقيكم الحرّ وسرابيلَ تقيكم بأسكم ، كذلك يتمّ نعمته عليكم لعلكم تُسْلِمُونَ [٤] » .

« ولقد كرّمنا بنى آدم، وحملناهم فى البرّ والبحر، ورزقناهم من الطيبات [٥] » .

فهذا الوجود كلّه — الوجود الأرضى على الأقل — هو مملكة الإنسان ، وهو المسرح الذى يتحرك فيه ، ويمثِّل عليه الدور الذى أُعدّ له ، وخُلق من أجله..

فكيف يقال مع هذا — إن الله — فى مفهوم الإسلام — لم يدع للناس مجالا يعملون فيه ، ولم يترك لهم فراغاً نفسياً أو عقلياً يفيئون إليه ؟ .

وكيف يستساغ هذا مع دعوة الإسلام للإنسان: أن يسعى ، وأن يعمل ،وأن يحصِّل ما يقدر عليه من الخير لنفسه ولمن حوله ، وللناس ، وللحياة كلها ؟ .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولُه ، والمؤمنون [٦] » .

« قل هل يستوى الذين يَعْلَمون ، والذين لا يعلمون [٧] » .

« من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربُّك بظلاَّم للعبيد [٨] » .

---

(١) سورة نوح : ١٩، ٢٠
(٢) سورة النحل : ٨
(٣) سورة الأنعام : ٩٧
(٤) سورة النحل : ٨٠
(٥) سورة الإسراء : ١١٠
(٦) سورة التوبة : ١٠٦
(٧) سورة الزمر : ٨
(٨) سورة فصلت : ٤٦

« كلُّ امرئٍ بما كسبَ رَهين (١) » .

فهذه دعوة بل دعوات إلى العمل والتحصيل ، فى مجال الحياة المادية والمعنوية جميعاً . . فمن عمل خيراً فقد ربح دنياه وآخرته . . ومن عمل سوءاً فقد خسر الدنيا والآخرة . . ذلك هو الخسران المبين » .

لقد رفع الإسلام عن الإنسان هذه اللعنة التى كانت قائمة على رأسه ، مستولية على وجوده ، كما صورتها بعض الأديان له ، فلم يكن له فى ظل هذه اللعنة أن يرفع رأساً ، أو يستشرف لخير ، أو يتشوف إلى أمل . ! فلما جاء الإسلام وضع الإنسان فى شريعته فى هذا الموضع الكريم ، فهو الذى سجدت له الملائكة ، حين طلع بوجهه فى هذا الوجود ، وهو إن أُخرج من الجنة ، فقد قام على ملك رحيب عظيم هو هذه الأرض . . قام عليه ، ليخلق بنفسه جناحين قويين يطير بهما إلى العالم العلوى ، الذى خرج منه !

وإذن فلا محلّ لمثل هذا القول الذى يقول به أولئك الذين ينظرون إلى الإسلام تلك النظرة التى لا تستقيم على حق ، ولا تقوم على واقع — ولكن الذين ينظرون إلى الإسلام بعين رمداء لا يرون فى الإسلام إلا أنه سجن مطبق أُغلق على أهله . . فلا يرون شمساً ، ولا يتنسمون هواء !

يقول فون جرونيباوم : « فقد اهتم الدين الجديد — يعنى الإسلام — بأن يؤكد ألاّ خالق إلا الله ، وأنه مطلق القدرة على كل شىء . . ولم ينس أن ينكر على الإنسان كل قوة تثير فيه الغرور بكفاية ومواهبه ، وتزعزع موقفه فى علاقته بالله (٢) » .

وهذا حق فى جملته . فالإسلام يجعل لله ما ينبغى له من كمال . . فهو الذى بيده ملكوت كل شىء . . « إليه يُرَدُّ علم الساعة ، وما تَخْرُجُ من ثمراتٍ من أكمامها ،

(١) سورة الطور ٢١ (٢) دراسات فى الأدب العربى ٤٤

وما تحمل من أنثى ، ولا تضع إلاَّ بعلمه»[١] . . وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُرِه إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير » .

وفى هذا الإيمان بقدرة الله وعظمته ما يعصم الإنسان من الافتتان بنفسه ، والاغترار بماله ، أو قوته ، أو سلطانه ، وفى هذا حماية للناس من أن يقوم فيهم المغرورون المتجبرون ، الذين يقومون فيهم مقام الآلهة ، ويقولون لهم قولةَ فرعون لقومه : « أنا ربكم الأعلى » ، وفى هذا أيضاً حماية لمثل هذا الإنسان أن يذهب به الاغترار هذا المذهب ، فيكون فى الناس شرًّا يُتَّقَى ، وبلاء يُحاذر ؟

هذا حق . .

ولكن ليس من الحق ما يقوله « جرونيباوم » بعد هذا ، أو تعقيباً على هذا . . إذ يقول :

« ثم إن الدين — يقصد الإسلام — وقف سدًّا دون الإيمان بقدرة الإنسان على الخلق ! ، وقد صور القرآن المسيح يخلق من الطّين هيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

« فالفنان الذى يخلق الأشكال قد يكون فى إحساس الناس منافساً لله فى أخص صفاته ، وفى يوم القيامة يسأل صانعو التماثيل أن ينفخوا الحياة فى تهاويلهم وتماثيلهم فيعجزون ، فيؤمَر بهم إلى النار خالدين فيها »[١]

فأى خَلْق ، ذلك الذى وقف بالإسلام سدًّا دون إيمان الإنسان بقدرته عليه ؟ أهو الخلق بمعناه الحقيقى ، أى خلق تلك المخلوقات الحية من إنسان وحيوان ؟ لا نظن ذلك يكون مرادَ هذا السيد ، لأن هذا مما استأثر به الخالق جل وعلا . . «يأيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له . . إن الذين تَدْعونَ مِنْ دُونِ الله لن يخلُقُوا

---

(١) دراسات فى الأدب العربى ص ٤٥ .

ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُف الطالب والمطلوب»[1] .. إن الإنسانية كلها فى أجيالها الماضية والآتية لن تخلق ذباباً .. وذلك هو الحق ، وهو الواقع ، لا جدال فيه .. ومع هذا فلم يحجر الإسلام على الناس أن يحاولوا ، وأن يجربوا ، وأن يُعمِلوا قواهم كلها فى هذا الاتجاه الذى ينزع بهم إلى الخلق فى صورته الحية .. فليحاولوا ، وليجربوا .. فإن التجربة آخذة بهم حتما إلى الإذعان لقدرة الله ، والاستسلام لسلطانه ! !

بقى أن يكون المراد بالخلق « هو المضاهاة لما خلق الله ، بالرسم ، أو النحت . والإسلام لا يقف سدا فى وجه الإنسان إذا اتجه لمثل هذا الخلق ، ما دام ذلك لا يَدْخل منه على قلبه شيء من مشاعر الوثنية ..

إذا كان للإسلام وقفة فى هذا ، فهى وقفة كانت موقوتة بوقتها ، يوم كان الناس حديثى عهد بعبادة الأصنام .. أمّا وقد عرف الناس حقيقة هذه المعبودات التى كانوا يتخذونها مما ينحتون أو يصورون ، فإنه لا ضير بعد هذا فى أن يَفْتَنّ الناس فى إخراج ما يُقْدرهم عليه فنهم من صور وتماثيل .. ولهذا فإن الإسلام لم يكن أبداً ليحول بين الناس وبين ماتتطلع إليه عقولهم ،وما تنزع بهم إليه نوازعهم ، إلاّ أن يكون فيه إفساد وتضليل .. ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ، وذلك فى أول الدعوة الإسلامية ، والناس قريبو عهد بالجاهلية وأوثانها ، وفى المقابر تتراءى صور الأوثان وأشباحها ، فأراد الرسول بهذا الحظر أن يحمى الناس — فى هذا الدور من حياتهم — من أن يحوموا حول هذه الشبهات فيقعوا فيها .. ثم إنه ما كادت العقيدة الإسلامية تستقر فى القلوب ، ويتعرف الناس على وجهها الصحيح ، حتى رفع النبى الكريم هذا الحظر ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ألا وقد كنت نهيتكم عن زيارة القبور .. ألا فزوروها ، فإنها تذكّر بالموت » .

---

(١) سورة الحج آية ٧٣ .

ومن ذلك أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم كان قد نهى عن الانتباذ[1] فى بعض الأوعية ، وذلك بعد تحريم الخمر ، ثم بعد أن استقرّ مفهوم الحكم الإسلامى فى الخمر ، فى نفوس المسلمين ، وعرفوا موقفهم منها — أباح الرسول الكريم الانتباذ فى هذه الأوعية التى تؤثّر فى الشىء المنتبذ فيها .. وهى « الدبّاء » — أى القرع — « والحَنْتَم » — وهى جرار مدهونة — « والنُّقّير » — وهو أصل النخلة ، ينقر وسطه — « والمزفّت » — أى المطلى بالزفت . .

وفى هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : « ونهيتكم عن الشرب فى هذه الأوعية ، فاشربوا ما شئتم إلا من أوْكَى[2] سقاءه على إثم »

أما الصور والتماثيل وما إليها فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له نهى عنها ، إذ لم يكن العرب ممن يمارسون هذه الأعمال فى جاهلية ولا إسلام ، وما عرف لهم شىء من هذا الذى عرف للفراعنة والرومان والفرس وغيرهم ، ممن عُنُوا بأعمال الرسم والنحت ، ولو كان للنبى صلى الله عليه وسلم نهى عن هذه الأعمال فى أول الإسلام لكان له قول فى رفع الحظر عنها ، كما فعل — صلوات الله وسلامه عليه — فى النهى عن زيارة القبور ! وأما هذا الحديث الذى يسوقونه فى هذا الشأن فهو من الأحاديث الموضوعة ، الذى يمكن أن يكون مما استعان به بعض أصحاب الوَرَع المريض ليحموا حمى الإسلام — كما يظنون — أن تدخل عليه هذا البدع الجديد ، حين اتصل المسلمون بفارس والروم ، ورأوا ما عندهم من الصور والتماثيل ، التى تملأ القصور ، وتزّين المحاريب ، والتى تعتبر جانباً من جوانب الحياة ، التى يهتم لها الناس ، ويقفون عندها ، ويقيمون الأسواق والمحافل لها !.

وإنها لقولة كبيرة تلك التى تقال عن الإسلام من أنه يقف سداً فى وجه قوى الإنسان وملَكاته ، فيما لا يجوز على شىء من دينه أو دنياه !

---

(١) الانتباذ أى نقع البلح ، والزبيب ونحوها ، فى عملية أشبه بعمل « الخشاف »

(٢) أوكى : أى غطى ، أو أغلق ، أو ربط

وما غاية الإسلام من مثل هذا الإعنات للناس ؟ أهو شهوة تسلُّط وقهر وتحكّم ؟ وكيف والله سبحانه وتعالى يقول : « ما جعل عليكم فى الدِّين من حَرَج » . . ويقول سبحانه فى صفة نبيه ، وفى صِفة الدعوة التى بين يديه وعلى فمه : « الذين يَتَّبِعون الرسولَ النبىّ الأمىّ الذين يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويُحلّ لهم الطيبات ، ويحرّم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصْرَهُم والأغلالَ التى كانت عليهم » .. فالإسلام إنما جاء ليفكّ هذه القيود ، وليرفع هذه الآصار، وتلك الأحكام، التى كانت تتحكم فى الناس ، وتأخذ منهم بالنواصى والأقدام .

ثم كيف يقف الإسلام فى وجه التماثيل — القائمة للفن ، لا للعبادة — هذه الوقفة ، ويتوعد صانعيها بالخلود فى النار ؟

كيف والقرآن يذكر لسليمان عليه السلام ما كان من فضل الله عليه — فيما سخر له من شياطين: « يعملون له مايشاء من محاريبَ وتماثيلَ، وجِفَانٍ كالجَوَابِ[1] ، وقدور راسيات » . . ثم ينبهه سبحانه إلى ما ينبغى إزاء هذه النعم من شكر المنعم : « اعملوا آلَ داود شُكْرًا ، وقليل من عبادِىَ الشَّكور » ؟ أفيصحّ أن يكون بين يدى نبىّ كريم كسليمان نعمة هى فى حقيقتها منكر يتنكر الإسلام له، وينهى عنه ؟ ذلك أمر يقع موقع الاستحالة منطقاً ، وديانة !

ولا يقف « جرونيباوم » عند حدّ اتهام الإسلام بالوقوف فى وجه المَلَكات الإنسانية بالنسبة للتماثيل والصور ونحوها ، مما كان حظره فى أول الإسلام ، للحكمة التى أشرنا إليها، ولكنه — أى (جرونيباوم) — يتهم الإسلام بالتحكم المطلق فى كل ملكات الإنسان ومنازع تفكيره ، فلا يسمح لشىء منها بالحركة والعمل . .

---

(١) سورة سبا آية ١٣

يقول « جرونيباوم » :

« والعالَم الإسلامى من حيث المبدأ كونٌ ثابت ، يسيطر عليه الوحى والسُّنة النبوية . . وبالضرورة يصبح العمل العلمى فيه جمعاً وترتيباً . .

« أما البحث والتفسير التحليلى فيمثِّلان مرتبة ثانية . .

« ولا يَعْتبر الدارس لمظاهر الطبيعة — وهو يرقبها منهمكا فى استطلاع طَلْعها — معرضاً أو تجليّات لحقيقة مخلوقة متولدة ، إذ أهمّ من ذلك عنده أن يستكشف الطرق الإلهَـية المعجزة ، لا أن يفهم طبيعة الحقائق الطبيعية ، ومدى صحتها » .

« وفى مثل هذه النظرة يحل التعجبّ التقىّ محلَّ الدهشة الحافزة ،التى كانت توجّه الإغريق وتستثير تفكيرهم ! ! »[٢]

ياسبحان الله !!

أىُّ أكثر إدراكًا للوجود ، وتعاطفاً مع الموجودات . . وأى أكثر عجباً ودهشاً لمـا تجنّ هذه الموجودات من عجائب وأسرار . . أذلك الذى ينظر إلى الوجود وموجوداته على أنها صنعة عليم حكيم خبير .. أم ذلك الذى ينظر إلى هذا الوجود وتلك الموجودات نظرة عنادية مادية باردة .. لا تعطى إلا إذا أَخَذَتْ ، ولا تعطف على شىء أو تنعطف عليه إلا إذا كان وراءه نفع عاجل ظاهر ؟

إن الفرق شاسع بعيد ؛ بين من ينظر إلى عمل فنىّ يعلم من صاحبه أنه صَنَاع مبدع ، يخلق الخالدات من بنات الفنّ — وبين من ينظر إلى هذا العمل فى عُرْض الطريق ، دون أن يعرف له صاحباً ، أو صانعاً ؟

ثم يقول « جرونيباوم» بعد هذا : « ولو قارنَّا الإسلام بما لدينا من حضارة

---

(١) دراسات فى الأدب العربى ص ٤٦

— يقصد الحضارة الأوربية — لو جدناه لا يعتبر معرفة الكون فى ذاتها غاية من غايات الثقافة . .

ولذلك السبب تظل العلوم الطبيعية والتطبيقات لها ، على هامش الدراسة . . وليس معنى هذا أن ما أداه الأفذاذ العلماء فى هذا المجال لم يكن بارزاً ساطعاً . [١]

ونسأل : إذا كان الإسلام قد دعا إلى النظر فى هذا الوجود فى مجال التعرف على الله .. فهل قابل هذه الدعوة بدعوة أخرى تحظر على الناس أن ينظروا فى هذا الوجود لحساب حياتهم ، ومن أجل منفعتهم ؟ وهل كان على الإسلام أن يدعو الناس إلى ما تدعوهم إليه الحياة، وتلحّ فى دعوتهم إليه لتحصيل المنافع من كل وجه من وجوه الحياة ؟ إن ذلك لا يليق بتشريع يخاطب إنسانية عاقلة رشيدة ، لها آمال ، ومطامح فى الحياة ، ولها سلطان وقدرة عليها . . لقد بلغ الإنسان رشده ، وأصبح فى غير حاجة إلى من يأخذ بيده إلى الإيمان بالله ، والثقة به ، والعمل فى ظله .

* * *

وبعد ، فهل فى هذه الدعوة التى دعا بها الإسلام العقل إلى الله ، وبهذا الأسلوب الاستدلالى الذى حملته تلك الدعوة — يستطيع العقل أن يصل إلى نتيجة حاسمة فى هذا الأمر ، وأن يستدل على الله ، ويتعرف إليه ؟

والجواب يمكن أن يكون « نعم » ، وأن يكون « لا » فى وقت معاً . .

« نعم » لأن الواقع يشهد لهذا ، فبين يدى هذا الجواب تلك الملايين التى عرفت الله عن طريق هذه الدعوة ، وآمنت به ، وتعاقبت أجيالها عليه . !

« لا » لأن الوقع يشهد لهذا أيضاً . . وبين يدى هذا الجواب ملايين كثيرة سمعت هذه الدعوة فلم تُصِخْ إليها ، ولم تفتح لها قلبها ولا عقلها ، بل ظلت آخذة طريقها إلى غير الله !

---

(١) المصدر السابق

بقى بعد هذا أن نسأل : أين الحق إذن ؟ أمع أولئك الذين أصغوْا إلى العقل ووجهوه على نحو ما وجهته إليه دعوة الإسلام واستجابوا لها ، أم هو إلى جانب أولئك الذين أعطوْا هذه الدعوة آذاناً غير واعية ، وصرَفوا عقولهم وقلوبهم عنها ؟

وهنا يحتاج الأمر إلى وقفة نُدير فيها النظر بين الحقيقة الدينية التى يعرضها الإسلام ، وبين تلك العقول المتلقية لها ، والناظرة إليها . . فقد عرفنا أن هناك تركيبات من العقول يَقْسرها أصحابها قسراً على أن تلتزم حدود المادة ، ولا تخرج عنها ، كما عرفنا أن هناك عقولا أخرى لا يقف منها أصحابها هذا الموقف ، بل يطلقون لها الزمام ، لتنطلق فى كل اتجاه ، وتحلِّق فى كل أفق ! وبين هذه العقول وتلك أنماط من العقول تملأ الفراغ الذى بين هذين الطرفين ! !

والحقيقة التى يعرضها الإسلام لمفهوم الألوهية لا تخضع لمنطق المادة ، ولا توزن بميزان المحسوسات . . وإن العقل مهما دار حولها وأجهد جَهدَه فى البحث عنها فلن يستطيع أن يضع يده عليها ، وأن يستيقن وجودها ، هذا الوجود الذى يشهده فى واقع الحسّ ، ويتناوله بحاسة أو أكثر من حواسه .

فالحقيقة الإلهية أكبر من أن تدركها العقول ، أو تحيط بها الأبصار كما يقول الله تعالى فى وصف ذاته سبحانه : «لا تدركه الأبصارُ ، وهو يدرك الأبصارَ ، وهو اللطيف الخبير» .. ذلك هو أعدل وصف ، وأصدقه فى صفة الخالق سبحانه وتعالى .. فإنه لو وقع فى مجال الإدراك الحسى لكان محدوداً محصوراً فى سلطان الحاسة المتسلطة عليه !

وعلى هذا فالعقل محجوز عن أن يرى شيئاً واضحاً محدوداً عن الذات الإلهية ، ولو وقع «الله» فى مجال الإدراك العقلى ، لكان محدوداً محصوراً فى مجال العقل ، الذى لا يخرج عن كونه حاسة فى هذا المجال المحدود ، الذى يدور فيه ، فيما بين التراب والسحاب .

وقد أدرك المسلمون هذه الحقيقة إدراكا واضحاً ، فتلقَّوْا ما جاء به القرآن الكريم عن الذات الإلهية بالتسليم ،دون النظر فى كيفيتها، أو البحث عن كنهها ، وجعلوا العقل بمعزل عن التطلع إلى شىء من ذلك ، إذ أن هذا التطلع لا يُسلمهم إلا إلى الشرود والضلال ..

يقول ابن عربى : « إن من يؤمن بانياً إيمانَه على البراهين والاستدلالات لا يمكن الوثوقُ بإيمانه ، لأنه مستمد من الفكر والنظر ، ولهذا فهو إيمان يتأثر بالاعتراضات »(١)

ويقول « العطار » :

« عندما تتجلّى الحقيقة — يريد الحقيقة الإلهية — يرتدّ العقل، لأن العقل هو الأداة التى تُستخدم لمعرفة العبودية ، وليس للوقوف على الكُنْه الحقيقى للربوبية »(٢) .

ويقول الغزالى: « فاعلم أن الساعى إلى الله لينال قربه،هو القلب ،دون البدن ، ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس .. بل هو سر من أسرار الله عز وجل.. لا يدركه الحس ! »(٣)

هذه مقولات لثلاثة من فلاسفة المسلمين ، الذين انتهت بهم الفلسفة إلى التصوف .. بعد أن استيأسوا من أن يبلغ بهم العقل شيئاً فيما كانوا يريدون أن يبلغوه بفلسفتهم ، من الكشف عن أسرار هذا الوجود ، والتعرف على النظام الممسك به .

وإن هذا الحِجازَ الذى بين العقول وبين الوصول إلى الله قد يظل هكذا

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر ص ١٧٢
(٢) تذكرة الأولياء جزء ٢ ص ٢٧٤ ، لفريد الدين العطار
(٣) إحياء علوم الدين للغزالى جزء ١ : ٥٤

قائماً أبداً يزداد كثافة وظلاماً كلما مَكَرَ الإنسان بعقله ، أو مكر به عقلُه ،فأبى أن يقبل أو يتقبل إلا الحقائق التى يبصرها بعينه ، ويلمسها بيده . . على حين أن الحقيقة الدينية الكبرى لا تبدو على هذه الصفة من الممالئة والمجاهرة ، بل هى محجبة وراء ستر ، تبدو رقيقة أو كثيفة ، حسب ما عند الإنسان من ميل ورغبة فى الوصول إليها ، أو إباء وعناد فى التحدّى لوجودها .

يقول وليم جيمس :

« إن النداء الدينى موجّه نحو إرادتنا الفعالة ، وإن أدلته ستُحجب عنا حتى النهاية ، إذا لم نقابلها فى منتصف الطريق[١] » . ويقول : « إن اعتقادك بوجود الله يبرر وجوده ويحققه[٢] » .

وهذه النظرة العميقة الصادقة إلى حقيقة الدين — أو بمعنى أصح إلى طريق الإيمان بالله — تكشف عن صميم المشكلة فيما بين الإيمان والإلحاد . .

فحيث تحركت فى الإنسان رغبة إلى الله ، واتجهت نيته للتعرف عليه ، وجد طريقه مأنوساً إليه ، ووجد فى كل شىء دليلا يدله عليه . . وهاتفاً يهتف به تجاهه . !

أما إذا قطع الإنسان — مقدَّماً — بألاّ إله ، أو وَكَلَ إلى عقله وحده البحثَ عنه ، دون أن يزوّده بالأشواق النفسية ، ويمدّه بهذه العاطفة المشوقة إلى لقاء الله ؛ فإنه لن يرَى الله أبداً ، ولن يرَى فى آيات الله لمعة من نور تَهدِى إليه . . وهذا ما أُحبّ أن أفهم عليه الحديث النبوى الكريم ، « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ! » . متفق عليه

إن دلائل الألوهية لا توقظ النيام ، ولا تفتح العيون العُمى ، ولا القلوب

---

(١) العقل والدين : ص ٣٠ . (٢) وليم جيمس ص ١٨١ .

الغلف، وإنها لا تلوح إلا لمن استشرف لها ، وتشوّف إليها ، وأطمع نفسه فى الوصول إلى مواقع الحق منها .

ويقول جيمس أيضاً : « إنه ليخيل إلىّ أن ذلك الشعور — يقصد الشعور الدينى — المفروض علينا من غير أن نعرف كيف ومن أين — هذا الشعور يكوّن عنصراً حيويا من جوهر الفروض الدينية »[1]

يريد أن يقرر أن هذا الميل إلى التعرف على الله، هو طبيعة متأصلة فى الإنسان، وأن من يحاول أن يخلىَ نفسه من هذا الشعور، إنما يغالب طبيعة لا تغالب إلا بتصدّع يصيب كيان الإنسان فى صميمه ، وإلا بانهيار يأتى على وحدته النفسية ، والعقلية ، والشعورية، ثم لا يجد بعد هذا سبيلا إلى القرار والاطمئنان .

الاطمئنان العقلى ، والاطمئنان القلبى :

الاطمئنان العقلى يلتمسه المرء فيما يختبر من شئون الحياة ، ويجده حين يتأكد له أن الشىء الذى بين يديه يجىء دائماً على صورة واحدة، كلما قامت علله، وتهيأت أسبابه . . فهو يطمئن اطمئناناً عقليا كاملاً إلى ما عنده من علم الأجنّة مثلا . سواء ذلك فى الإنسان أو الحيوان . . فهو يعلم بالاختبار والتجربة أن الجنين يولد بعد تسعة أشهر من حمله إذا كان إنساناً ، وكذا وكذا إذا هذا الحيوان أو ذاك . . وهو بهذا الاطمئنان العقلى القائم على التجربة والاختبار يواجه الحياة ، ويبنى حسابه وتقديره . . وهكذا فى كل شئون الحياة صغيرها وكبيرها ، بهذا الاطمئنان يعيش الإنسان مع الموجودات، ويتعامل مع ما بين يديه منها، فيأكل مطمئناً إلى ما اعتاد أكله ، ويمشى مطمئنا فى الأمكنة والطرقات التى عهدها ، ويستخدم فى تنقلاته الدواب، والسفن والقطارات، والسيارات، والطائرات. . وربما الصواريخ مستقبلا . .

---

(١) العقل والدين ص ٣٠

وكل هذا ، بعد التجربة ، وتطابق الأسباب والمسببات .. ومن هنا كانت هذه الأشياء وأشباهها تجرى فى حياة الإنسان على صورة آلية ، لا تثير فى كيانه مشاعرَ من سخط أو رضىً .

وأما الاطمئنان القلبي فإنه راحة يجدها الإنسان فى شعوره ، ورضًى يسكن وجدانه ، وسكينة تَعمُر كيانه .. وليس لهذا الاطمئنان ضوابط تحكمه، ولا أسباب وعلل يرجع إليه أمره فيها .. بل إن الإنسان ليستقبل أمراً من الأمور فيرتاح إليه ، ويجد ريح السكينة والرضا من جهته، دون أن يجد لذلك دليلا، بل إنه لو التمس الدليل فلربما جاءه بما يَنقض اطمئنانه ، ويُزعج سكينته .. ولكنه بهذا الشعور الخفى يكذّب كل الأدلة ، ويخالف كل الشواهد، ويمضى على حكم شعوره وما حدّثه به قلبه .. فإن للقلب حديثاً لا يكذب ، ووعداً لا يخلف ، وإن لم تظاهره شواهد الأحوال ، وملابسات الظروف .. وفى ظل هذا الشعور من الاطمئنان نطق الأديب الروسى المعروف، « دستويفسكى » بقوله : « لو أن أحداً قال لى إن المسيح يجافى الحق ، ولو أن هذا القول كان صحيحاً ، لآثرت البقاء مع المسيح على التزام الحق !! » .

على أنه مما يجب الالتفات إليه هنا هو أن ليس بين العقل والقلب هذه العزلة المحكمة، إذ هما فى واقع الأمر ينبوعان من ينابيع العلم والمعرفة، يصبان فى كيان الإنسان، فيرى بهما حقائق الأشياء رؤية كاشفة، أشبه بما يكون بين حاستى البصر واللمس ، إزاء قطعة من النسيج مثلا ، أو ما بين حاستى البصر والشم لوردة أو ريحانة !

وعلى هذا ، فإن الاطمئنان العقلى من شأنه أن يَرفد القلب بروافد قوية صافية من الاطمئنان ، وخاصة إذا كانت طمأنينة العقل منبعثة عن إدراك صحيح ، وتقدير سليم .. وكذلك الشأن فى الاطمئنان القلبى، فإنه يفتح للعقل منافذ كثيرة تجاه تلك المشاعر والأحاسيس التى دخلت منها الطمأنينة إلى القلب ، فيتجه إليها مستأنساً ، مهيئاً لاستقبال الحقيقة ، ملففة فى هذه المشاعر وتلك الأحاسيس .

وإنه إذا كان من الممكن أن يأخذ كلٌّ من العقل والقلب سبيلَه فى مواطن كثيرة من شئون الحياة ، وفى صور متعددة من صور المعرفة ، فإنه ليس من الممكن بحال أبداً ، أن يذهبا هذا المذهب فى شأن الحقائق الدينية ، التى لا يستطيع أى منهما أن يستقلّ باستقبال هذه الحقائق استقبالا يحقق له طمأنينة ، ذات ثبات ووضوح !

ولقد رأينا قصور العقل إزاء الحقيقة الدينية فى مجال التعرف على الله ، وأنه إذا ارتاد هذه المواطن وحده ، مستقلا بذاته، فإنه لن يرجع آخر المطاف إلا بالحيرة والشك والارتياب !

ولهذا فإن العقل هنا مفروض عليه فرضاً — إذا أراد أن يمسك بشىء من الحقائق الدينية — أن يصحب القلب معه ، وأن يجعله رائداً له ، وأن يطمئن إلى صحبته ، ويثق فى أنبائه وأخباره ، أو على الأقل ألا يكون متّهَماً عنده . . فإن سوء الظن هنا يفسد الصحبة ، ويقطع علائق الألفة ، بل ويقيم من الصداقة عداوة ، فى موطن تشتد فيه الحاجة إلى من ينصح ويعين .

ولكن العقليين ، الذين يصفون أنفسهم ، أو يحبون أن يصفهم الناس بأنهم أصحاب عقول متحررة ، أو عقليات تقدمية مستنيرة — هؤلاء أصحاب العقول المتحررة يرون أن من الإزراء بعقولهم ، والاستخفاف بذكائهم وعبقرياتهم أن يزّيفوا على العقل رؤيتَه ، وأن يدخلوا به فى هذا الضباب من الرؤَى ، وأن يخدّروه بخَدَر الحدْس والتخمين ، ليجىء إليهم آخر الأمر بمقولة يقول عنها : إنه رأى ؛ فاعتقد ، وعرف ؛ فآمن ! !

فهذا الاعتقاد وذلك الإيمان فى نظرهم لم يدخل على العقل إلا بعد عملية التخدير هذه ، وبعد أن « ابتلع » كثيراً من الأوهام والظنون ، التى ما كان ليسيغها لو لم تندس إليه هذه المشاعر ، وتصيبه بهذا الخِدْر الذى خدعه عن عقله !

يقول « كليفورد » [أحد علماء الإنجليز فى الطب والتـاريخ الطبيعى — ١٨٢٥ — ١٨٩٥] .. يقول :

« إن الاعتقاد يتدنّس إذا كانت مسائله غير مبحوثة ، وكانت غير مبرهن عليها ، وكان — أى الاعتقاد — لا يهدف إلا نحو تهدئة المعتَقِد ، وإدخال السرور عليه !! »[1]

فانظر إلى هذه « الشطحة » العقلية التى تُلزم الإنسان ألا يقبل من العقل أى معتقد ، إذا كان فى هذا المعتقد ما يبعث طمأنينة فى النفس أو رَوْحاً للقلب .. فذلك هو العسل الذى يحمل السم ، وهو الخدعة التى يُخدع بها العقل عن الحقيقة !! حتى لكأن معيار الحقيقة — عند صاحب هذه الشطحة وأمثاله — هو فى برودها ، وجمودها ، بل ومرارتها .. أما أن تكون مبعث طمأنينة ورضىً فهى — عنده — حقيقة مزيفة بهذا الطلاء الكاذب من المشاعر والعواطف .

ثم يقول كليفورد أيضاً :

« كل من يستحق تقديراً من أقرانه فى هذه الناحية لابد أن يَخفِر — أى يحرُسَ — طهارة اعتقاده ، ويكون متعصباً ، وعليه غيوراً ، خوفَ أن يعتمد يوما على مالا يستحق الاعتماد عليه من القضايا ، ويتدنس بما لا يمكن تطهيره منه أبداً !

ثم يقول : « وإذا اعتقد المرء اعتقادا ناشئاً عما لا يكفى من الأدلة ، ولو كان الاعتقاد نفسه حقاً ، فإن السرور الناشىء يكون سروراً مغصوباً .. إنه خطيئة ، لأنه مسروق ! ومناقض لما يجب علينا نحن بنى الإنسان .. ذلك الواجب هو أن نحمى أنفسنا من أمثال هذه الاعتقادات ، كما يجب أن نحمى أنفسنا من الأمراض الخبيثة ، التى قد تسرى إذا تُركت وشأنها فى الجسم كله ، ثم تنتقل فتنتشر فى أنحاء المدينة[2] ! »

---

(١) العقل والدين ص ١٠

(٢) العقل والدين ص ١٠

لم يبيّن « كليفورد » نوع الأدلة والبراهين التى يقوم الاعتقاد الدينى عليها ، وطبيعى أنه يريد أدلةً وبراهينَ علمية رياضية ، أشبه ببراهين النظريات الهندسية ، وأدلة الحقائق العلمية المعملية .

وهذا التحكم الملزِم ، من شأنه أن يَحْرِمَ الإنسانَ من أن يكون يوماً صاحب معتقد دينى — إذ كانت حقائق الدين، كما قلنا، لاتخضع لمثل هذه البرهنة ، ولاتنزل على حكم مثل هذه الأدلة !

وإذا كان من الحتْم اللازم على الإنسان ألا يفتح عينيه إلا على أشعة الشمس فإنه يقضى الجانب الأكبر من حياته أعمى أو شبه أعمى . . إن هناك أضواء كثيرة قد تكون خافتة ، أو خابية يمكن أن يفتح الإنسان عينيه فيها ، فيرى كثيراً من وجوه الحياة ومشاكلها ، بل إن الظلام نفسه لا يحول بين الإنسان وبين أن يفتح عينيه ، وأن يرى طريقه بالقدر الذى تسمح به الرؤية ، فذلك — أيا كان — خير من أن يُغْمض المرء عينيه ، وأن يتلمس طريقه بيديه أو قدميه !

إن الشكّ مرحلة من المراحل الموصلة إلى اليقين ، إذا قام من وراء ذلك عقل يستجيب لداعى الحق ، ويُقبل عليه . .

والإسلام لا ينكر هذا الموقف من الإنسان ، لأن ذلك طبيعة من طبيعة العقل، وطريق من طرقه فى اكتساب المعرفة . .

يتحدث جولد تسيهر عن المعتزلة ، وعن نظرتهم إلى العقل وثقتهم به فى اكتساب المعارف . . يقول :

« وقد ذهب بعض رجالاتهم وممثليهم الأكثر شهرةً إلى القول : بأن الشرط الأول للمعرفة هو «الشّك » !!

ومن مقولاتهم المأثورة فى هذا : إن خمسين شكاً خير من يقين واحد[1] ! »

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ١٠٢ .

وطبيعى أن الشك الذى يصطنعه للمعتزلة فى تفكيرهم هو الشك المنتج ، الذى يحرك العقل إلى البحث الجادّ ، والنظر الفاحص ، فلا يسكن العقل حتى يكشف جليّة الأمر الذى شك فيه، بقبوله أو رفضه ، وفى كلا الحالين وجه جديد من وجوه المعرفة القائمة على يقين أو ما يقرب من اليقين . . أما الشك المقيم ، وهو الشك الذى يكون وَسْواساً وهذياناً ، فهو مرض يقيم صاحبه فى سجن من الأوهام والخيالات، لا يملك معها أن يتحرك إلى الحق ، ولا أن يصل إليه، بل يظل هكذا حَيْرانَ يتخبط كما يتخبط الغريق فى ملتطم الأمواج . .

والإسلام — كما قلنا — يزكّى هذا الشكّ المنتج الذى أشرنا إليه ، وهو من أصول التفكير عند المعتزلة ، الذين استوحوا وحيه من القرآن الكريم فى دعوته إلى الإيمان بالله ، وبكتابه ، وبرسوله ، وذلك ليقوم هذا الإيمان على أصول ثابتة مستقرة فى ضمير الإنسان.. وفى هذا يقول الله تعالى: « ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بيّنة ، ويحيا من حَيَّ عن بيّنة[1] » . . فلا يرضى الإسلام من أتباعه إلاّ أن يكونوا على بيّنةٍ واضحة من دينهم، وعلى معرفة مدروسة محقَّقة، لما يأخذون أو يدعون، مما يأمرهم به الدين ، أو ينهاهم عنه !

هذا ، وإن الذين يحجزون عقولهم عن النظر فى الحقائق الدينية إلا إذا كانت بحيث تواجه العقل مواجهة الشمس للعين — هؤلاء يحرمون أنفسهم خيراً كثيرا، إذ يظلون هكذا فى عمًى، وفى ظلام عقلى.. فلا تكتحل عقولهم أبداً بذَرُور من نور الإيمان .

يقول جيمس ستيفن : « فى كل عملية مهمة من عمليات الحياة لابد لنا أن نقفز قفزة فى الظلام ، وعلى غير هدًى[2] !! » .. يريد جيمس أن يقول : إن كثيراً من المواقف تحتم على الإنسان أن يتخذ قراره فيها دون أن يكون معه أدلة قاطعة على

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٢ .

(٢) العقل والدين ص ٣٢ .

النتائج التى تنتجها ، بل كل ما بين يديه مجرد احتمالات يتظنّاها ، ولا يتحققها . .
ولو انتظر الإنسان اتخاذ قراره فى مثل هذه الأحوال حتى تأتيه الأدلة القاطعة ،
لانتظر طويلا ، بل لربما قضى عمره كله دون أن تأتيه هذه الأدلة !

والإسلام لا يطالب من أتباعه أن يقفزوا هذه القفزة ، كى يصلوا إلى حقيقته عن طريق تلك المخاطرة التى قد تندقّ فيها الأعناق ، وتتلف النفوس ، ولكنه إذ يدعوهم إليه فإنما يُسْمِعهم صوتاً هادياً ، ويرسل بين أيديهم شعاعات أشبه بشعاعات الفجر الوليد ، فلا يكادون يخطون خطوات معدودات حتى يغمرهم النور ، ويملأ عيونهم ضوء الشمس ؛ الذى يغمر الأكوان فى ضحوة نهار مشرق وضىء !

إن الذين تغلب على عقولهم نزعة الشك والارتياب ، فلا يتعاملون مع الأشياء، ولا يتعاطفون معها إلا إذا جاءتهم عارية تسعى بين أيديهم — هؤلاء — كما قلنا — يعيشون دائماً فى حرمان من كل خير يحصل عليه أولئك الذين لا ينظرون فى الأشياء هذا النظر القائم على التخوف والتوجس ، وعلى الاتهام والإدانة سَلَفاً .

والشك إذا كان فى قصد واعتدال ، وإذا كان للتثبت والتيقن فهو طريق من طرق المعرفة الصحيحة . وداعية من دواعيها ، ولكنه حين يكون وَسْواساً دائماً ، وحين يكون همّاً مقيما ، فهو داء يعطل كل ملكات التفكير ، ويوصد كل باب إلى المعرفة !

ويفرق وليم جيمس بين الحالات التى يكون فيها الشك محموداً ، بل ومطلوباً ، وبين الحالات التى يكون الشك فيها مذموماً مفوِّتاً للخير . . فيقول :

« كلما كان التخيير بين إدراك الصواب وعدمه تخييراً غير خطير الشأن كان لنا أن نضيّع فرصة إدراكه ، وننجّى بذلك أنفسنا من احتمال الاعتقاد فيما هو خاطىء ، ولا نعتقد حتى نعثر على الأدلة الموضوعية اليقينية ، وذلك هو الشأن الغالب فى المسائل العلمية . . وليست الحاجة إلى الفصل فى كثير من المسائل الإنسانية

العامة شديدَ المَسَاس دائماً ، بحيث نجعل الاعتقاد ولو فى الكاذب خيراً من عدم الاعتقاد ، ومن انتظار الأدلة الموضوعية .

ثم يقول : « وإننى أتحدث هنا طبعاً من وجهة الحكم العقلى المحض ، وأما وجهة الاكتشاف العلمى فإنها لا توحى بذلك الحياد ، إذ لا مِرَاءَ فى أن العلم كان يكون أقل مما هو عليه الآن لو لم تلعب رغبات الأفراد وميولهم دوراً مهماً فى محاولة البرهنة على عقائدهم . »(١)

الذى يريد أن يقرره « وليم جيمس » هنا فيما يمكن أن نرفضه من المعارف ، أو الحقائق إذا وقعت موقع الشك منا — هو تلك الأمور التى لا يترتب على فَواتها أضرار أصلا ، أو يترتب على فواتها أضرار يمكن تلافيها — هذه الأمور لاتستحق أن نقبلها بما تلبّس فيها من شك ، إذ لا بأس من أن نَدَعها حتى تنجلى عنها غواشى الشك ، وتصفو من أكداره . . وذلك هو موقف العقل من المسائل العلمية ، حيث لا نقبلها إلا مع براهينها القاطعة ، وأدلتها المستيقَنة . . . وحتى هذه المسائل العلمية لا تخضع لهذا الحكم إلا من الوجهة النظرية ، أما من الناحية العملية فإن العقل لا يقف إزاء أية مسألة علمية مجرداً من الرغبات والمشاعر التى تدعو صاحبه إلى النظر فى هذه المسألة أو تلك . . إذ لابد — كما يقول جيمس — من ملاحظة أن كل القوى الموجودة فينا تعمل متضامنة بالضرورة حينما نكوّن آراءنا الفلسفية . . فيتَضامن العقل والإرادة والذوق والشهوة ،فى المسائل النظرية ، كما تتضامن فى المسائل العملية . »(٢)

إن اليقين العلمى ، أو الاطمئنان العقلى — كما قلنا — ليس مطلوباً ، تحققه فى مجال الاعتقاد الدينى ، إذ أن هذا الاعتقاد يقف إزاء حقيقة لا يحيط بها عقل ، ولا يستوعبها فكر . . ومن هنا تظل العقيدة الدينية فى حركة وتماوج ، واضطراب

(١) العقل والدين ص ٢٣

(٢) العقل والدين ص ٦٢

حالا بعد حال ، وهذا هو الذى يَمدّها بالحرارة ، والحياة . . ولو أنها قامت على يقين ثابت ، وعلى اطمئنان مستقر لركدت وبردت ثم جمدت ، ولصارت قضية من تلك القضايا العلمية المسلّمة ؛ التى لا يلقاها الإنسان بعد أن يعرف وجهها إلا مرة واحدة ، ثم إذا هى تمر به ، فلا يلتفت إليها ، ولا يأبه لها .

وحتى الأنبياء والرسل ، وهم مَنْ هم فى القرب من الله ، وفى الاطلاع على مالا يطلع عليه غيرهم من البشر من دلائل قدرته وآيات علمه وحكمته — لا يخلو إيمانهم من هذه الموجات ، ولا تسلم عقيدتهم من القلق والاضطراب أحياناً . . وما اليأس والاستيئاس الذى يقع فى نفوسهم فى ساعات الضيق والكرب إلا أثرُ هذا الاعتقاد اليقظ المتنبه ، المتفاعل مع مهابّ الرياح و الأعاصير التى تطلع على الإنسان فى أوقات كثيرة .. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : «حَتَّى إذا استَيأسَ الرُّسُلُ وَظنُّوا أنَّهُم قَدْ كُذِبُوا جَاءَهم نصرنا [١] » فالرسل — وهم مَن هم ، فى قوة المعتقد ، وَوَثَاقة الإيمان تعرض لهم ساعات حرجة يهتز فيها إيمانهم ، ويتدسس اليأس إليهم .

وفى موقف إبراهيم عليه السلام من ربه ، وطلب الاطمئنان القلبى لإيمانه ، مايدل على أن أقوى درجة تبلغها العقيدة من الإنسان لا تبلغ حدّ الاستقرار الثابت والسكون الخامد : « وإذ قال إبراهيم ربِّ أرنى كيف تحيي الموتى ، قال : أوَ لَمْ تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئنّ قلبى ! [٢] » .. وكذلك كان شأن موسى إذ قال : « ربّ أرنى أنظرْ إليك ! [٣] » فما طلَبَ هذه الرؤية إلا ليزداد يقيناً وتثبيتاً . !

والرياضات الروحية ، أو العقلية ، أو الجسدية التى يعانيها بعض الناس ، وخاصة المتصوفة — ليست إلا وسيلة يُراد بها الاستعانة على بلوغ هذا الاطمئنان ، الذى ينشده القلب ولا يكاد يحصل عليه إلا بين الحين والحين ، وفى لحظات من الإشراق والصفاء ، ثم لا يلبث طويلا حتى يتزحزح عن موضعه .. قليلا أو كثيراً .

---

(١) سورة يوسف : آية ١٠٩ (٢) سورة البقرة : آية ٢٥٩
(٣) سورة الأعراف : ١٤٢

يقول وليم جيمس : « ويميل بعض العقول المتصوفة إلى محاولات معتدلة ، ويبحث عن الهدوء العقلى فى حالة الجذب والوجد حينما يُخفق المنطق . . فلا شك أن هناك لحظات يظهر فيها العالَم للأفراد المتدينين من جميع الأديان والعقائد فى غاية من الانسجام والاتساق الإلهى ، ويملأ ذلك المعنى قلوبهم ، فلا يبقى فيها محل لسؤال ، ولا يجدون شيئاً شاذاً يمكن أن يُسأل عنه ويقال : لماذا هو هذا دون ذاك ؟ وفى هذه الحالة تكون القوة العاقلة هادئة نائمة ، لأن الشعور قد رَبَتَ عليها فهدّأها » . . والإسلام يصل بأتباعه إلى هذا الهدوء العقلى عن طريق العقل نفسه . . العقل الحى اليقظ ، الذى تستوفزه مجالى هذا الوجود ، ويستجيشه هذا النظام الممسك به ، وهذه الحكمة المندسة فى كل ذرة فيه .. وليس العقلَ ، المادى الذى لا يستثيره جمال ، ولا يروّعه جلال ، ولا يحركه ما يحرك الهامدات ! ويوم يتلفت الإنسان ، فلا يجد فى كيانه غير هذا العقل الذى يعمل على إجلاء البسمة من فمه ، وقتل الفرحة فى كيانه — يومها ينكر نفسه ، ويتنكر لوجوده ، وينشد مع أبى الطيب :

أصخرة أنا ؟ مالى لا تحركى هذى المُدام ولا تلك الأغاريد ؟

وإذ يبلغ الإنسان إلى هذه الحال لا يَهنؤه طعام ، ولا يسوغ له شراب ، ولا يرى إلا الموت شفاء وراحة من هذا العذاب الأليم ، الذى يتقلب على جمراته .

إن استصحاب القلب فى كثير من الأمور يُعين العقل على الرؤية .. رؤية كانت متعذرة ، لو لم يكن القلب هو الذى أذاب بحرارته ضبابها المتكاثف ، ودفع بقوته سُحبها المنعقدة من حولها .

والإلهَ الذى يُرَى من خلال القلب يُشيع فى النفس رضىً ، وراحة ، وطمأنينة ، حيث يجد الإنسان ذاته ووجوده فى حماية قوة قادرة ، عالمة ، رحيمة ، محيطة بهذا الوجود ، آخذة بناصية كل شىء فيه . .

فلماذا يَحرِمُ الإنسانُ نفسه هذا الشعور ، ويجرّده منه ؟ وما حظّه من هذا

الموقف الذى ينعزل به عن تلك المشاعر ، ويخلو فيه إلى معطيات عقله المجردة، التى لا تعطى إلا أرقاماً حسابية ، ومعادلات جبرية ، دون أن يرى هذا الوجود ، وما فيه من آيات الجمال والجلال ! التى تفيض عليه السعادة والرضا ؟

إن الإله الذى يتعرف إليه الإنسان من خلال التعاليم الإسلامية إله يملأ قلب الإنسان ونفسه راحة وطمأنينة ورضى ، الأمر الذى لا تستطيع أروع آيات الفنون الجميلة كلها أن تثيرها فيه . . ولهذا خلقت هذه النظرة المريحة المسعدة فى كثير من النفوس مشاعر الحب الإلهى ، الذى سكر به كثير من المتألهين وانتشوا ، وقطعوا العمر فى هيام ، وأشواق ومواجد . . ووجدوا فى هذا الحب سعادة غامرة، استخفوا إزاءها بكل ما فى هذا الوجود من متع ولذاذات ، يتهالك الناس عليها ، ويقتتلون فى سبيلها . .

فلم يعدل الماديون عن هذا الطريق المأنوس الأمين ؟ ولم يحرمون أنفسهم هذا التفكير الذى يشيع فيهم البهجة والرضا ؟ إن ذلك ظلم للعقل نفسه ، وحرمان له من خير كثير ! .

يقول وليم جيمس : « إذا كان هناك نظريتان ترضيان بالتساوى كل المطالب المنطقية ، فإن ما يثير الدوافع الفعالة منهما ، أو يرضى الميول الوجدانية والذوقية منهما أكثر من الأخرى ، فإنها تكون أكثر منطقاً وأقرب للعقل ، وتكون لها السيادة فى النهاية » .

وهو يعنى بهذا أن الكون يمكن أن يرى بأكثر من عين ، وأن ينظر إليه من أكثر من جهة ، وكلها تمثل الواقع فى جانب من جوانبه .

وفى هذا يقول :

« أو ليست أنشودة أوتار « بيتهوفن » فى الحقيقة — كما قال أحد الناس — إلا توقيعاً بشعرات من ذنب الفرس على قطع من أمعاء القط ؟ نعم قد توصف وصفاً

شاملا بهذا ، ولـكن انطباق هذا الوصف عليها، لا ينفى انطباق وصف آخر مباين لذاك الوصف فى نفس الوقت ! »[١]

وقضية الألوهية هى أُولى قضايا الإسلام الـكبرى ، دعا إليها العقل والقلب ، بل دعا إليها الـكيان الإنسانى كله ، بما فيه من قوى التفـكير ، وما يقوم عليه التفـكير السديد من تذوق الجمال ، ومطالعة وجوه الحُسن ، والتحليق فوق هذا العالم الأرضى ، إلى حيث مطالع الحق والنور .

فمن أراد بعد هذا أن يصحب الحياة بلا إلّه يؤمن به ، ويتوكل عليه ، ورَضِىَ لنفسه أن يعيش فى هذه العزلة الباردة ، فليس لأحد عليه من سلطان : « لا إكراه فى الدين » . . « فمن كفر فعليه كفره ، ولا يَزيد الـكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يَزيد الـكافرين كفرهم إلا خَسَاراً »[٢]

إنه ليس فى هذه الحياة شقاء وراء هذا الشقاء الذى يكابده من حُرِم الإيمانَ بالله ، فعاش محروماً من كل بارقة من بارقات الأمل ، ومن كل نسمة من أنسام الرجاء ... « وَمَنْ يُشْرِكْ بالله، فـكأنما خرّ من السماء ، فتَخْطَفُه الطيرُ أو تهْوِى به الريح فى مكان سَحِيق »[٣]

* * *

الآخرة ، والبعث ، والثواب والعقاب :

ويَتبع الإيمانَ بالله الإيمانُ بملائـكته وكتبه ورسله، وبالبعث، والحساب، والجنة والنار، فهذه كلها من الغيبيّات أو السمعيات ، التى تحدثت بها الشرائع السماوية .

وإنه ليس من العسير على من آمن بالله أن يجد طريقه واضحاً مستقيما إلى الإيمان

---

(١) العقل والدين ص ٤٦

(٢) سورة فاطر ٣٩

(٣) سورة الحج: آية ٣١

بهذه القضايا الجزئية ! فجميعها قائمة على الإيمان بالله ، إذ كلها من واردات ما وراء الحس ، وهى مبلّغة إلى الناس فى محاميل رسالات سماوية ، وكتب منزلة ، اصطفى الله سبحانه بعض خلقه ليكونوا رسله بتلك الرسالات إلى الناس . !

وأول ما يدعو إليه الرسول فى مفتتح رسالته هو الإيمان بالله ، إيماناً خالصاً من أية شائبة من شك أو ارتياب . !

وبهذا الإيمان يتلقى المؤمنون ما يبلّغه الرسول من تشريعات ، وما يُخبر به من غيبيات . . وعلى هذا ، فإننا لن نتحدث فى هذا البحث عن الإيمان بالرسل ، والملائكة ، والبعث والجنة والنار ، وما يتصل بهذه المغيبات جميعها . . إذ أن من يؤمن بالله سينتهى به هذا الإيمان إلى الإيمان بها على الوجه الذى تحدثت به رسالات السماء .

* * *

الحياة الآخرة فى الإسلام :

ولا نريد أن ندع هذا البحث فى الإيمان بالغيبيات ، ومنهج الإسلام فى الدعوة إلى الإيمان بها — دون أن نقف وقفة قصيرة مع نظرة الإسلام إلى الحياة الآخرة ، وما يريد أن يقع منها فى نفوس المؤمنين . . فلقد اتهم المستشرقون الإسلام بأنه يقيم أتباعه على حياة يغلب عليها شعور الموت ، والبعث والحساب ، والجنة ، والنار . . وأن هذا الشعور لا يدع للمسلم فرصة للتفكير فى الحياة ، والعمل لها ، إذا هو صدَّق دينَه ، والتزم أوامره ! . . وإلى هذا الشعور يرجع السبب فى تأخر المسلمين ، وفى إفلات ما فى الحياة من طيبات من أيديهم ، إذ أذهلهم هذا الشعور المزعج الذى يهب عليهم من عالم الآخرة — أذهلهم عن الدنيا ، فعزلوا أنفسهم عن الواقع ، وأسلموا وجودهم للموت وما بعد الموت ! !

وهذا زعم باطل ، فالإسلام إنما جعل دعوته الملفتة إلى الحياة الآخرة فى مقابل

الأدواء الحيوانية التي طغت وتطغى على الناس دائماً، من تكالب على الدنيا، وما يتبع هذا التكالب من شح، وبخل، وقسوة، وظلم، وعدوان، وحروب .. كل ذلك في سبيل الاستكثار من جمع المال، والإقبال على الدنيا، والعمل لها، دون أن يفكر الإنسان في شيء وراءها، حتى إنه ليذهل في كثير من الأحيان عن نفسه، وعما ينبغي لها من الراحة بعد الجهد والإرهاق، فتفسد صحته، ويذبل شبابه، ويكون ذلك، من قبيل الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، والله سبحانه وتعالى يقول: « ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَة » ويقول: « ولا تَقْتُلوا أَنْفُسَكم .. إن الله كان بكم رحيما » .

فالتذكير بالحياة الآخرة يقضي على كثير مما يعاني الناس من أدواء، تنغِّص عليهم حياتهم، وتُلقي بينهم العداوة والبغضاء ..

سأل سائل السيدة عائشة رضي الله عنها فقال: يا أم المؤمنين .. إن لي داءاً فهل عندك دواؤه؟ قالت: وما داؤك؟ قال: القسوة! قالت: بئس الداء داؤك. عُدِ المرضى، واشهد الجنائز، وتوقع الموت! »

نعم، فإن هذه المشاهد أنجع ما يعالج به كل شر تحدّث به النفس، وأفعل ما يقضي على كل وَسواس سوء يُلِمُّ بها.

* * *

الفصل الثاني

العبادات

بين الخالق والمخلوق :

إذا تعرف الإنسان إلى تلك القوة التي يقع في تقديره أنها أكمل وأقوى وأعظم ما في الوجود، فإنه — تلقائياً وبغير تفكير — يرى وجوده منجذبا إلى تلك القوة، معجباً بها، مستغرقاً فيها، مفتوناً بجلالها وعظمتها . . ثم لا تلبث هذه المشاعر أن تعبّر عن وجودها في صور محسوسة، هي ذَوْب ما كان يَعْتمِل في كيان الإنسان من مشاعر، ووجدانات، وخلجات . . هي في الواقع خمائر الفنون الجميلة، وبذورها التي ألقت بها ليد الحياة، فنمت وترعرعت، وبلغت ما بلغت من نضج وكمال . .

فالرقص، والغناء، والموسيقى والنحت، والتصوير، كلها كانت تعبيرات ساذجة عبّر بها الإنسان الأول عن مشاعره، في مواجهة القوى التي بهرته، وسَحَرته!

وهكذا قامت بين الناس وبين ما يعبدون من معبودات — ظاهرة أو خفية — قامت علاقات مادية، هي ترجمة محسوسة لتلك العلاقات الوجدانية التي أشرنا إليها .. ثم أخذت هذه العلاقات المادية تصعد شيئاً فشيئاً في سُلّم التهذيب والنظام، حتى أصبحت أعمالاً مكتملة، ذات طقوس، تؤدّى في هياكل ومعابد، على نحو خاص، لا يجوز للمتديّن أن يخرج عليه!

يقول المستشرق «جب» : «إن بواعث الناس ومثلهم العُليا في حياتهم اليومية إنما تصدر عن عقائدهم المتغلغلة في نفوسهم[1]» .

(١) وجهة الإسلام لجب — ترجمة أبو ريده . ص ٨

وهذا يعنى أن العقائد الدينية ، بل وكل ما يدخل فى كيان الإنسان من آراء ومذاهب وتقاليد . . هى التى توجه الإنسان ، وتحدد اتجاهاته ، وتضبط سلوكه !

ولهذا عُنى الإسلام عناية خاصة بتصحيح العقيدة ، وتصفيتها من كل شائبة تشوبها ، حتى يضمن للإنسان فى ظلها حياة سليمة ، نظيفة ، كريمة ، تنزع عن رأى سليم ، ووجدان يقظ ، وإرادة مستبصرة !

ولم يقف الإسلام عند حدّ المعتقدات ، والآراء يجليها ، ويكشف عن وجهها ، بل امتد تدبيره إلى أبعد من هذا . . فتراه مثلاً يلتفت إلتفافاً قوياً إلى الكلمة الحاملة ، لأى معنًى . ولو كان جزئياً . . لأن الكلمة فى نظر الإسلام ، وكما هى فى حقيقتها — ليست مجرد حروف ، وأصوات . . وإنما هى رسالة موجّهة ، تحمل إلى سامعها آراء ، وأفكاراً ، وصوراً ، ومُثلا . !

إن مافى العقل من مدركات ، وتصورات ، ومافى كيان الإنسان من نوازع واتجاهات ، إنما هومن عمل الكلمات ، وإنه بقدر ما يتلقى العقل من كلمات يكون حظّه من العلم والمعرفة ، وإنه بقدر مافى هذه الكلمات من معانى الخير والشر يكون اتجاه الإنسان إلى الخير أو الشر .. فالإنسان لا يعطى إلا مما عنده . .

والكلمات هى الرصيد الذى يملكه الإنسان ، ويُنفق منه !

يقول الرسول الكريم : « لا يقُولَنَّ أحَدُكُم خَبُثَتْ نفسى ،ولكن ليَقُلْ لَقِست نفسى » واللفظان معناهما واحد ، وهو غثيان النفس ، ولكن النبىّ الكريم أخذ المسلمين بأدب الكلمة لحمى ألسنتهم من أن تعلق بها الكلمات السيئة ، فتتخلّق منها مشاعر خبيثة !

فإلى هذا الحدّ من التقدير للمؤثرات الخارجية التى تطرق وجود الإنسان من الداخل — إلى هذا الحدّ يبلغ تدبير الإسلام ، فيعمل حسابه لكل شىء يمسّ

تفكير الإنسان، حتى ولو كان مجرد كلمة عابرة، وذلك كله من عمل الفطرة الإنسانية، ومن تفكيرها، وتقديرها بما اختلط فيه من ضلالات، وسفاهات، وحماقات!

السماء تتدخل:

وحين بلغت الانسانية قدراً مناسباً من الإدراك والتمييز، جاءت السماء إليها بصورة عاقلة مهذَّبة من العبادات التى ترضى مشاعرها، وتعمُر قلبها بالسكينة والرضا!

وطبيعى أن تتخذ هذه العبادات التى تُوصِى بها السماء على لسان الأنبياء والرسل — صوراً متعددة، تختلف باختلاف الجماعات الإنسانية، وبالفكرة التى استطاع عقلها أن يتصور الإله عليها.!

ويكفى أن نذكر هنا أن بعض العبادات أو القُرُبات كان يصل إلى حدّ تقديم الإنسان نفسه قرباناً على المذبح! كما حكم الله سبحانه بهذا الحكم على بنى إسرائيل، حين خرجوا عن عقولهم، وعن إنسانيتهم، فتركوا عبادة الله، واتخذوا العجل إلهاً معبوداً.. فكان عقابهم على الجرم الغليظ، عقاباً غليظاً، إذ أمرهم الله سبحانه بقتل أنفسهم بأيديهم!!

وفى هذا يقول الله سبحانه: « وإذ قال موسى لقومه، يا قوم: إنّكم ظَلَمتم أنفسَكم باتخاذِكم العجلَ، فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا أنفسَكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم[1] ».

فهذه عقوبة مقابلة لهذا الجرم الغليظ الذى لا يكفّره إلا هذا الدم المباح.. فلقد ذكر المفسرون لهذه الآية أن بنى إسرائيل حين أُمروا بهذا أقبلوا على السيوف والخناجر يضرب بها بعضهم بعضاً.. حتى قتل منهم سبعون ألفاً!

فهذه صور من صور العبادات والقربات التى فرضها الله سبحانه وتعالى على بعض الأقوام.. تطهيراً لهم من الإثم، وتكفيراً للمعصية التى كانت منهم!

---

(١) سورة البقرة آية ٥٤

العبادات فى الإسلام:

ويعنينا هنا أن ننظر إلى العبادات التى تعبد بها الإسلام عبادَ الله ، الّذين يرتضون هذا الدين ديناً ، ويعبدون الله عليه .

وهذه العبادات هى :

الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج .

وهى جميعها مقدورة بطاقة الإنسان وباحتماله . . فليس فيها شىء ، يجاوز قدرة الإنسان . . من أوساط الناس !

ثم هى جميعها مشفوعة برخَص تُعفى الإنسان منها إعفاء كلياً أو جزئياً ، موقوتاً أو دائماً ، إذا لم تتوافر الشروط الموجبة لها . .

ثم هى أيضاً ليست أعمالاً آلية ، تؤدّى لمجرد القيام بواجب الطاعة والامتثال ! وإنما هى رياضة تربوية ، تطهر الإنسان وتزكّيه ، وتقيم وجهه على الطريق القويم ، فإن لم يكن من ورائها هذا الثمر الطيب ، كانت رِدًّا على صاحبها ، غير نازلة منازل القبول من الله ربّ العالمين .

ومِلاكُ الأمر فى هذه العبادات هو الإقبال عليها فى نيّة خالصة ، ورغبة صادقة ، وأن تلقاها النفس حفِيةً بها ، مشوقة إليها .

وهذا ما يجعل لهذه العبادات أثراً قوياً طيباً ، كلما تلبّس بها الناس ، وكلما اتصلت بينهم وبينها الأسباب . .

أما إذا خلت العبادة — أى عبادة ، بل أى عمل — من هذه المشاعر ، فإنها لن تترك فى كيان الإنسان شيئاً ينتفع به . . إذ مرّت به دون أن يلتفت إليها ، أو ينفعل بها !

فإذا بلغ الأمر إلى أن تُهمل هذه العبادات ، أو تؤدّى فى تكرّه ، وفى

استنقال — كان فى ذلك الخُسران والوبال . . إذ أنه يقيم الإنسان على شعور الجرأة على الله ، وإعلان المحادّة والقطيعة له .

ولهذا توعدّ الله هؤلاء المستخفّين بالعبادات ، وعدّهم فيمن كفروا به وبشريعته . . فيقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيَّه فى شأن هؤلاء الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم : « وما مَنَعَهم أنْ تُقْبَلَ مِنهم نفقاتُهُمْ ، إلاَّ أنَّهم كَفَروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسَالى ، ولا يُنفقون إلا وهم كارهون »[1] . .

* * *

ولسنا نريد أن نقف هنا مع العبادات التى فرضها الإسلام . . ولا أن نـكشف عن وجه الحـكمة فيها . ولا عن ملاءمتها للحياة الإنسانية فى مختلف أحوالها وأزمانها — لا نريد أن نقف هنا هذه الوقفة ، حيث يتجلى ذلك بوضوح فى « مبحث » : « سمات بارزة فى الإسلام » الذى سنلقاه بعد قليل !

ولـكن لا نريد أن نترك هذا البحث فى شأن العبادات ، دون أن نُلفت النظر إلى ما قد يقع لأول وهلة فى تفـكير مَن يأخذون الأمور على ظاهرها ، من غير أن يجاوزوا هذا السطح الظاهر منها ؛ إلى ما وراءه من أعماق بعيدة الغوْر .

فالذى يبدو للناظر فى المجتمعات الإسلامية من ضعف ، وتخاذل ، قد يُوهِم أن ذلك أثر من آثار الدين ، وثمرة من ثمراته ! وبذلك يكون الحـكم على الإسلام — نتيجة لهذه — النظرة — حكما ظالمـاً ، إذ لم يُنظر إلى الدين من حيث هو مبادىء وأحكام ، وإلى المتدينين من حيث هم متفاعلون أو غير متفاعلين مع هذه المبادىء وتلك الأحكام !

---

(١) سورة التوبة : آية ٥٤

والحق أن الأمر مختلف جداً بين الدين الإسلامى ، وبين كثير من المسلمين الذين ينتسبون إلى هذا الدين ، والذين يراهم الناس على تلك الحال السيئة فى الحياة . .

إن المسلمين اليوم فى وادٍ ، والإسلام، وتعاليمه ، ومبادئه، فى وادٍ آخر. المسلمون صور ممسوخة مشوهة للإنسان الكريم العظيم الذى عرفته الحياة لرجالات الإسلام فى مطالع الإسلام ، الذين خلقهم هذا الدين الخلاّق ! وطلع بهم على الحياة من أقفر مكان ،وأجدب بقعة !

ونعم.. الإسلام شىء ، والمسلمون شىء آخر . إذ بينما يقف المرء وقفة الإجلال والتقدير لمبادىء الشريعة الإسلامية وتعاليمها السامية ، وبينما يقوم فى يقينه أن الشريعة لابُد أن تبلغ من نفْس أتباعها مبلغاً يرفع شأنهم ، ويُعلى قدرهم ومنزلتهم فى الحياة ، ويجعلهم « شامة » فى الناس ، كما يقول النبى الكريم فى حديث شريف له — بينما يقدّر الإنسان فى نفسه هذا التقدير إذ تَفْجَأه مرارة الواقع ، وقسوة الحقيقة فيما يرى فى المجتمع الإسلامى ، من تخلّف وتخاذل ، واضطراب ، واختلال، فى موازين الدين والدنيا معاً ! !

فحيث التفت المرء فى محيط المسلمين وجد عُواراً ، ورأى مجتمعا تخلَّى عن كل مقومات الحياة الكريمة العزيزة، وقنع من دنياه بالقليل الخسيس، الذى يُساق إليه فى أية صورة ، وعلى أى وجه ، ولو كان بيد الذلة والمهانة !

هذا حق واقع ، يجب أن نقرره ، ونعترف به ، فإن من الحمق أن نُغمض أعيننا عما يفتك بنا من أدواء ، وإن من الجبن والخيانة معاً أن نفرّ من الواقع ، ونُشفق من ملاقاته ،على ما يكون فيه من مرارة وقسوة . . وإن من خور العزيمة ، وسقوط الهمة ألا تنزع بنا نفوسنا إلى التحول عن هذه الحال التى طال مقامنا فيها . . وإنه لمن الجرأة على الحق أن يقول قائلنا : أحْسنوا الظن ! فإن المسلمين

بخير ، وإنهم أحسن حالاً من المجتمعات الأخرى ! ! وإنه لمن الضلال فى الرأى أن يقول قائلنا : إن هذه النظرات المتشائمة من شأنها أن تبعث اليأس فى النفوس ، وتسوق الفتور إلى الهمم ، فتزداد ضعفاً إلى ضعف . . ولا . . فليس المسلمون بخير ماداموا على حالهم تلك ، ومادامت حياتهم قائمة على هذه التصورات المريضة التى يعيشون فيها ، وما دامت فسلفتهم فى الحياة قائمة على هذا الفهم السقيم للدين وأحكام الدين ، ومادام حظهم من الدنيا هذا الحظ التعس البخس !

من الحق والخير معاً أن نقرر هذا ، وإلا ظلمنا أنفسنا بما نخدعها به من أوهام كاذبة . . وإلا ظلمنا الإسلام ، وظلمنا مبادئه ، وألقينا عليه من حياتنا المظلمة مايسىء الظنون به ، ويَزوى الوجوه عنه ! وبهذا نشارك — من غير قصد — فى عملية صدّ الناس عن هذا الدِّين ، وحرمانهم الخير الكثير الذى كانوا سيحصلون عليه منه ، لو أنهم عرفوه ، وتعاملوا به .

إن المبادىء إنما تُرى على حقيقتها فيمن يؤمنون بها ، ويعيشون على وحيها ، ويأخذون الحياة بأسلوبها ، وعلى قدر ما يرَى الناس فى أتباع مبدأ من المبادىء من آثار بقدر ما يكون من إقبال المقبلين منهم عليه ، أو إعراض المعرضين منهم عنه !

* * *

ننظر فى هذا الصراع القائم اليوم بين المذاهب المختلفة فى العالم ، من ديمقراطية واشتراكية وشيوعية . . نجد هذا الصراع يستند فى كل مذهب إلى ما حققه لأتباعه من خير فى هذه الحياة ، وما مكّن لهم من أسباب العيش الكريم فيها ، ونجد ألوان الدعاية لأى مذهب منها ، لا تلجأ إلى عرض حقائق المذهب فى صور كلامية ، وقضايا منطقية ، أو جدل فلسفى ، وإنما تلجأ إلى مظاهر الحياة المادية التى حققها المذهب فى محيط أتباعه ، ومكّن لهم منها فتفرضها على الملأ ، وتواجه بها أعين

الناس ،من أولياء وأعداء . فإنها هى وحدها البرهان القاطع ، والدليل العملى الذى يُفحم كل منطق . . وهى الصورة التى يراها الناس رأى العين ، ويعملون حسابهم عليها فى التقدير والموازنة بين أمة وأمة ، ونظام ونظام .. ثم مذهب ومذهب !

ولو أننا ذهبنا فى التبشير بالدعوة الإسلامية هذا المذهب العملى — وهو الأسلوب المقنع من غير جدال — فعرضنا أنفسنا على العالم غير الإسلامى ، ودعونا الناس هناك إلى الدخول فى الإسلام ، والمشاركة فى مجتمعه — لو أننا فعلنا ذلك ، وقلنا للناس : هذا هو المجتمع الإسلامى ، فادخلوا فى الإسلام ، لتكونوا جزءاً من هذا المجتمع — أفتظن عاقلا من العقلاء يستجيب لهذه الدعوة ، ويرضى أن يدخل فى جماعة المسلمين ، ويشارك فى الحياة التى يحيونها ؟ لا أظن ذلك أبداً . . فالنفوس دائماً متعلقة بتقليد من هو أحسن منها ، أو من تراه فى مكان لا تصل إليه . .

ومجتمعنا اليوم أقل من أن تتجه إليه الأبصار ، وتهفو إليه القلوب . . فقد تأخرنا كثيراً ، وتقدم غيرنا كثيراً . . ومن العبث أن نهتف بالمتقدمين المشرفين على أصفى موارد الحياة ، ليشربوا معنا كَدَرها ومُرَّها ، ولينزلوا إلى هذا المستوى الدُون من الحياة التى تضطرب فيها المجتمعات الإسلامية اضطراب الديدان فى بركة راكدة !!

إن أحداً من العقلاء لا يرضى أن يلتقى بالإسلام ، وأن يدخل إليه عن طريق أتباعه . . وإن هذه الأعداد الوفيرة التى نراها تدخل فى الإسلام كل يوم إنما تجىء إليه من وراء ظهور المسلمين ، ومن غير التفات إليهم .. وإنما هم نظروا إلى مبادىء الإسلام وتعاليمه نظراً مجرداً ،بعيداً عن أتباعه والمنتسبين إليه ، فرأوا فيه ما رأوا من حق وصدق ، وهدى وخير .

* * *

وإن فى الأمر شيئاً !!

إن خللا واقعاً فى صَلاَتنا ، وصيامنا ، وعباداتنا جميعاً .. وإلاَّ لـكان لهذه العبادات ما لها من آثار محققة .. فى تقويم الأخلاق ، وتهذيب النفوس ، واعتدال السلوك !

والخلل الذى وقع فى عباداتنا هو أننا نؤديها فى صورة آلية جامدة ، بعيدة عن مشاعرنا وأحاسيسنا . . فلا يخفق لها قلب ، ولا ينفعل بها وجدان ، ولو أن هذه العبادات جاءت عن هذا الطريق الذى يملأ النفوس جلالاً وخشية ويصل القلوب بالملأ الأعلى عن يقين ومعرفة — لـكان لها فينا شأن غير هذا الشأن ، ولـكان لنا فى الحياة مكان غير هذا المـكان ، ولعرف الناس للدّين فضله ، وحمِدُوا له أثره !

وكيف لا يكون للدين هذا الأثر ، والله سبحانه وتعالى يقول فى الصلاة : « إن الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنـكر . » . يقول سبحانه وتعالى هذا بلفظ التوكيد ، ليبلغ الاطمئنان غايته من تلك الحقيقة إلى قلوب المصلين . . فإن الصلاة على وجهها الصحيح من شأنها أن تفعل فعلها فى النفوس ، فتنهى عن الفحشاء والمنـكر . . ذلك حق لا مرية فيه . . وهل فى كلام الحق سبحانه ، موضع لريبة أوشك ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

ولـكن أين هى الصلاة التى أمر الله بها ؟ وأين تقع من نفوسنا ؟ وكيف تلتقى بمشاعرنا ، وتلامس وجداننا ؟

وأين هو الصوم الذى يسلك فى نفوسنا هذا المسلك . ويقع من قلوبنا هذا الموقع ؟

وأين الزكاة التى نؤدّيها — إن أديناها — بلا وعى ، ولا تقدير ، ولا نظر نافذ ، أو مشاعر متدسسة إلى مواضع الحاجة والعوز فى المجتمع الإسلامى ؟

وأين . . وأين . . كل ما يأمر به الإسلام ، وينهى عنه ؟ وأين آثار هذا كله في حياتنا ، وفيما نأخذ أو ندع من هذه الحياة ؟

لا شيء !

لأننا لا نمسك من الدين — إذا نحن أمسكنا بشيء منه — إلا بالشكل دون المضمون ، وبالصورة دون الجوهر المضمر فيها ، ويوم تتحول الأعمال والعبادات إلى صور وأشكال يؤديها المرء في آلية عمياء فإنه هيهات أن يحصل العامل أو العابد على ثمرة ينتفع بها في مادياته أو معنوياته جميعاً . .

من أجل هذا كانت « النية » وراء كل عمل في الإسلام ، وملاكَ كل أمر من أموره . . وليست النية التي عناها الإسلام ، وجعلها مناط الرّضا والقبول لكل عمل ، كما يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » — ليست هذه النية كلمة تردد ، ولفظاً يقال بين يدى كل عمل ، وإنما هي قبل كل هذا عقد موثق بين الإنسان وبين من يُرفع إليه هذا العمل ، أو يُؤدّى لحسابه ، ومن شأن العقد الذى يقوم على تلك الصفة أن يستحضر له الإنسان وجوده كله ، وأن يربط به تفكيره ووجدانه !

فإذا وقع العمل — أى عمل — في صحبة هذه النية الموثّقة كان من شأنه أن يترك آثاراً واضحة فيمن عمله ، سواء أكانت تلك الآثار طيبة أم خبيثة ، على حسب العمل ذاته ، وما فيه من طيب أو خبث .

ونخلص من هذا إلى القول بأن العبادات التى تعبّدالإسلام بها أتباعَه تحمل في طبيعتها من معطيات الخير مامن شأنه أن يزكّى النفس، ويطهر القلب، ويقيم الإنسان على طريق الحق، والخير..وذلك لايكون إلا إذا خالط المرء وجوده كله بهذه العبادات حتى تنضح عليه من طيبها طيبا، ومن حسنها حسناً ! وإلا كان حظه منها إذا هو أداها هذا الأداء الرتيب الآلى حظَّ مَن يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه !

* * *

الفصل الثالث

المعاملات

والمراد بالمعاملات هنا ما يقع بين الناس من ضروب تبادل المنافع ، فى مجالات الحياة . . من أخذ وعطاء ، وبيع وشراء ، ورهن ، وهبة ، وقرض ، وتأجير ، وتوريث ، وغير ذلك ، مما تنتقل به الأشياء والمنافع ، من يد إلى يد .

العمل ونظرة الإسلام إليه :

والعمل هو المصدر الطبيعى لحصول الإنسان على ما يصلح أن يكون شيئاً يُتعامل به ، ويجرى فى الحياة مجرى النفع والتبادل .

ولم يكتف الإسلام بالدوافع الطبيعية التى تدفع الإنسان إلى العمل والضرب فى وجوه الأرض ، ليحصّل حاجاته ، ويحقق مطامحه وآماله — لم يكتف الإسلام بهذه الدوافع الطبيعية ، بل عمل على إيقاظها ، وحمايتها من آفات التواكل ، التى قد تتسلط على بعض النفوس الضعيفة ، فتمسك بها عن السعى والجد ، وتقيمها فى ظل الدعة والسكون الذى هو أشبه بسكون أهل القبور — فدعا الإسلام إلى العمل ، وأهاب بأتباعه أن يعملوا ، ثم لم يكتف بهذا ، بل رفع مكانة العمل والعاملين إلى مقام العبادة والعابدين . . وبهذا لا يجد المسلم فرصة يتحلل فيها من هذا الأمر الملزِم . . إن لم يكن عن داعية الدنيا ، فإنه من دواعى الدين !

فالعمل — فى الشريعة الإسلامية — ضرب من العبادة ، يُتَقرب به إلى الله ، وتُكفر به السيئات ، وتُغفر الذنوب !

العمل فى شريعة الإسلام عبادة ، والعبادة عمل !

فالصلاة ، وهى رأس العبادات ، والركن الثانى من أركان الإسلام ، أظهر ما فيها

العمل والحركة .. من وضوء تتكرر فيه عمليات الغَسْل للوجه ،واليدين والقدمين.. إلى قيام ، وركوع ، وسجود . .

إن فى هذه الحركات دلالة على ما ينبغى أن يأخذ به الإنسان نفسه من ممارسة عمل من الأعمال ، حتى فى مقام العبادة !

يقول الله سبحانه وتعالى فى الدعوة إلى قراءة القرآن الكريم ، وتَدَبُّر معانيه:
« فاقرءوا ما تيسّر من القرآن . . علِمَ أن سيكونُ منكم مَرْضَى ، وآخرونَ يَضْرِبُون فى الأرض ، يَبْتَغُون من فضلِ الله ، وآخرون يقاتِلونَ فى سبيل الله .. فاقرءوا ما تيسَّر منه[1] » .

فالضَّربُ فى الأرض معناه السعى ، والسعى بقوة حتى يزلزل الأرض ، ويوقظ نيامها .. وهذا السعى القوى يرفع الحرج عن المسلم الذى لا يعكف على قراءة القرآن، وإنه ليجزئه حينئذ قراءة ما تيسر منه . !

فالمسلم على جهاد ، ما دام فى سعى وعمل ، وقد أقام له العمل عُذْراً كعذر المجاهدين فى سبيل الله ، بل لقد قدِّم عذر العامل على عذر المجاهد ، وليس بعد هذا تنويه بشأن العمل ، وتكريم للعاملين !

عن رفاعة بن رافع رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم، وقد سئل :
« أى الكسب أطيب ؟ » فقال : « عَمَلُ الرجل بيده ، وكلُّ بَيْعٍ مبرور[2] » .

وجوه العمل فى الإسلام :

وإذ كان العمل فطرة مركوزة فى الإنسان ، فإن الإسلام لم يشأ أن يعترض

(١) سورة المزمل : ٢٠
(٢) بلوغ المرام من أدلة الأحكام ص ١٣٢

هذه الفطرة ، أو يحجر عليها . . بل ترك أبواب العمل ومجالاته كلها مفتوحة للإنسان ، يدخل من أى باب ، ويسلك أى مسلك ، فكل عمل يبلغ بالإنسان غاية ، ويحقق له نفعاً من غير أن يؤذيه ، أو يؤذى الناس معه ، هو عمل مبرور ، يزكّيه الإسلام ، ويجزى عليه الجزاء الحسن .

يقول ابن تيمية :

« وأما العادات فهى ما اعتاده الناس ، والأصل فيها عدم الحظر . . ويقول : « والعادات . . الأصل فيها العفو ، فلا يَحْظُر منها إلا ما حرّمه الله تعالى ، وإلا دخلنا فى معنى قوله تعالى : « قل أرأيتُم ما أنزل الله لكم من رزق ، فجعلتم منه حراماً ، وحلالا »[1] . . ولهذا ذمّ الله المشركين الذين شرعوا من الدّين مالم يأذن به الله . . وفى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : إنّى خَلَقْتُ عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وحرّمت عليهم ما أحللْتُ لهم ، وأَمَرَتْهُم أن يشركوا بى مالم أنزّل به سلطاناً » .

ومعنى هذا أن ما يجرى فى حياة الناس من مألوف عاداتهم هو وضع يحترمه الإسلام ، ويقر الناس عليه ، ولا يحرّم عليهم من هذا شيئاً إلا ما خفيت عليهم أضراره ، أو اشتبه عليهم أمره . . كالخمر ، والخنزير . .

أما ما عدا هذا فهو بين أيدى الناس ، ما ارتضوه لصالحهم أخذوا به ، وما بان لهم ضرره ابتعدوا عنه وتجنبوه . .

ويقول ابن تيمية أيضاً :

« البيع ، والهبة ، والإجارة ، وغيرها . . من العادات التى يحتاج إليها الناس فى معاشهم ، كالأكل ، والشرب ، واللباس . .

---

(١) سورة يونس : آية ٥٩

« فإن الشريعة قد جاءت فى هذه العادات بالآداب الحسنة ، فحرمت منها ما فيه ضرر ، وأوجبت مالابد منه ، واستحبت ما فيه مصلحة راجحة فى أنواع هذه العادات ، ومقاديرها ، وصفاتها »[١] .

فابن « تيمية » يسمى المعاملات باسمها الصحيح الذى تعرفه الشريعة لها . . إنها عادات اعتادها الناس ، وفرضتها عليهم الحياة ، كما فرضت عادات أخرى . . كالأكل والشرب ، واللباس ، والسكن . . اهتدى إليها الناس بفطرتهم ، ووقعوا عليها بغريزتهم .

وحين نستعرض موقف الإسلام من أعمال الناس فى شئون الحياة نراه لا يتدخل فيها إلا بقدر ، وفى أضيق الحدود . . يضع مبادىء عامة يسير الناس على هديها ، ويبصرون بها مَعاثر الطريق ، ثم هم بعد هذا وشأنهم ، يذهبون كل مذهب يرون فيه مصلحتهم !

يقول الله سبحانه وتعالى : « وأَحَلّ الله البيع وحرّم الربا[٢] » . . ويقول سبحانه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتُدْلُوا بها إلى الحُكَّام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثْم وأنتم تعلمون »[٣] . . ويقول : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسَيَصْلَوْنَ سعيراً »[٤] . .

هذه بعض المبادىء العامة التى وضعها الإسلام لتقوم حدوداً فاصلة بين الناس وبين بغى بعضهم على بعض ، وعدوان بعضهم على بعض !

فَلْيبعْ الناس ما شاءوا ، وليشتروا ما أرادوا ، وليعملوا فى كل ميدان ،

---

(١) القواعد النورانية الفقهية . . لابن تيميه ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٧٥
(٣) سورة البقرة : آية ١٨٨ .
(٤) سورة النساء : آية ١٠ .

وليغرسوا فى كل مكان . . على حسب ما اهتدت إليه فطرتهم ، وما اطمأنت به حياتهم . .

فما لم يجىء التصرف بعدوان على أحد فهو حِلّ مباح . . أما إذا نجم عنه ما يضر بأحد من الناس فإنه يكون قد خرج عن الطريق الطبيعى الذى يقيم ميزان العدل بين الناس . كالغش والتدليس مثلا، فإنهما عملان منكران فى البيع والشراء، حيث يلحق ضرراً محققاً بأحد الطرفين ، وإذن يكون هذا البيع قد تلبس بالظلم والعدوان ، وخرج على مبدأ عام من مبادىء الإسلام .

وهكذا كل عمل يجرى بين الناس ، فى صورة معاملة من المعاملات ، لا نجد الإسلام قد تدخل فى جزئياته ، ولا نظر إلى صوره وأشكاله ، وإنما ترك للناس فيه الحرية المطلقة ما داموا على طريق الحق والعدل !

* * *

وكما أجّلنا النظر فى حكمة العبادات ، وموافقتها للطبيعة الإنسانية على امتداد أجيالها ـ

ـ كما أجّلنا هذا إلى المبحث الذى سنعقده بعد هذا تحت عنوان: « سمات بارزة فى الإسلام » — فإنا نحيل إلى هذا المبحث نظرة الإسلام إلى المعاملات ، حيث تتجلى هناك سماحة الإسلام ويسره !

* * *



الفصل الرابع

الأخلاقيات

الغراس والثمر :

تنتظم الشرائع السماوية صوراً متعددة من الأحكام والتعاليم ، هى فى جملتها منهج متكامل ، للتربية الروحية والعقلية ، وضعته يد الحكمة والعلم والقدرة ، فى إحكام وتقدير ، بحيث يؤدى بالمستقيم عليه ، والعامل به ، والسائر على هداه — إلى غايات الخير ، وإلى حياة طيبة ، تتوازن فيها مطالب الإنسان المادية والمعنوية . . الجسدية ، والروحية جميعاً .

وإذا كانت تلك هى رسالة الرسالات السماوية فى الناس ، وغايتها التى تتغياها من وراء بعث الرسل بها ، ودعوة الناس إليها ، وإلى الأخذ بأحكامها وتعاليمها — إذا كان ذلك كذلك فإن حساب الدين فى المتدينين لا يقف عند الصور والأشكال التى يأخذ بها المتدينون من الدين ، وإنما حسابه فيما يترك الدين من آثار فى نفوس أصحابه ، وفى منازع تفكيرهم ، واتجاهات سلوكهم فى وجوه الحياة ، مع أنفسهم ومع الناس !

وقد أشار نبىّ الإسلام إشارة بليغة إلى حقيقة الدين ، وما يراد بالتعاليم والأحكام التى يحملها إلى الناس . . حيث يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » . .

الإسلام والتربية الخلقية :

الجانب الخلقى فى الشريعة الإسلامية هو الجانب الإيجابى منها ، وهو غاية

أحكامها ، ومرمى تعاليمها التى تدور حول تهذيب النفوس وتقويمها ، وتوجيه الناس إلى مقاصد الخير ومسالك النفع .

وبهذا كانت دعوة الرسول الكريم ، وكانت أوامر الشريعة ونواهيها، وبمثل هذا يتحقق قول الله تعالى فى نبيه الكريم : « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » إذ لا شك أن أهم مظاهر الرحمة الإلهية ، وأبرز آثارها فى الإنسان ، هو أن يُحمَد خلقه ، وتَحْسُن سيرته ، وتستقر حياته ، ويستقيم مع الناس خطوه . . وهذا بعض ما تشير إليه الآية الكريمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . . والمحسنون هم الذين فتح الله قلوبهم للخير ، وسلك بهم مسالك الهدى ، فحسن قولهم ، وصلح عملهم ، وطاب فى الناس ذكرهم .

تلك هى غاية الرسالة الإسلامية . . خَلْقُ الإنسان الصالح، فى المجتمع الصالح . . ولن يكون الإنسان صالحاً إلا إذا توازنت قواه المادية والمعنوية جميعاً ، وتلاقى بعضها مع بعض على دواعى الخير، وغايات الإحسان . . ولن يكون الإنسان إنساناً صالحاً إلا إذا كانت له شخصيته ومكانته وآثاره فى المجتمع الذى يعيش فيه، وذلك لا يتحقق إلا بسيرة طيبة ، وعمل نافع، وآثار حسنة بارزة . . فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعاً .

فرسالة الدين ، ومهمة رجال الدين أن يبعثوا فى الناس مشاعر الخير ، وأن يرسموا لهم صور الكمال ، ويُغروهم به ، وأن يدفعوا بهم إلى العمل لتحقيق هذه المعانى الكريمة، والصور الجميلة، التى تتراءى لهم من خلال مشاعرهم، التى يهزها الدين ، وتثيرها تعاليمه العالية الرفيعة .

والعادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأخلاق ، التى رسمتها الشريعة الإسلامية إنما غايتها تخريج نماذج طيبة للإنسانية ، فى صورة المسلم الذى تظهر عليه آثار الإسلام ، فتكسوه رُواءً يبهر العين ، وجلالاً يملأ القلب ، ويثير عواطف الحب والإجلال ، التى يجدها الإنسان فى نفسه ، حين يلتقى بمثل هذا النموذج الكريم من

الناس . . ولذلك يقول الرسول الكريم : « إنما بُعثت لأُتمم مكارمَ الأخلاق » . . ومن تمام مكارم الأخلاق فى الإنسان أن يَشِفّ ويصفو ، وأن ترتفع إنسانيته إلى المدَى الذى تنتهى عنده غايات الإنسانية ، فى أسمى مدارجها ، وأعلى مواطن كمالها . . هنالك تجد الإنسان الذى نعرفه الآن فى أرقى المجتمعات ، والذى يعدّونه مثلا للإنسان الكامل ، ويطلقون عليه لفظ « الجنتلمان » . .

وليس « الجنتلمان » إلا هذا الإنسان الذكىّ القلب ، الوضىء النفس ، المتين الخلق . . النظيف فى هيئته ، المتجمِّل فى زيه ، الملحوظ بتقدير الناس واحترامهم ، أين كان !

والذى لاشك فيه أن هذه الصورة الإنسانية قد امتلأ بها العصر الإسلامى الأول ، وعرف التاريخ فى ذلك العصر نماذج كثيرة منها ، فى المجتمع الإسلامى . . بل نستطيع أن نقول : إن المجتمع الإسلامى الأول يكاد يكون كله ذلك « السوبرمان » الذى يتخيله الفلاسفة ، وينتظرون ميلاد الحياة له ! فذلك هو حلم الإنسانية ، يراود خيال الفلاسفة والحكماء فى ظهور هذا الإنسان الفاضل ، كما كانوا يحلمون بالمدن الفاضلة ، التى تضم مثل هذا الإنسان !

وبهذه التربية الحكيمة التى أخذ بها الإسلام المسلمين ، والتى استجابت لها العقول والقلوب — استطاع المسلمون أن يدخلوا الحياة من أوسع أبوابها ، وأن يقيموا دولة ملكت أطراف العالم ، وزخرت بألوان المجد والعظمة ، وأرست قواعدها على أكرم المبادىء وأسمى الفضائل .

نعم ، قام المسلمون الأولون على ركب الحياة ، يوجهونها ، ويدفعون بها إلى الغايات النبيلة ، والمُثُل الفاضلة ، ويقيمون فى الناس موازين الحق والعدل ، بما ملأ الإسلامُ قلوبَهم به من مشاعر الخير ، وعواطف المودة والإخاء . . وهذا شرح عملىّ ، وشهادة واقعة لقول الرسول الكريم : « إن المرء ليدرك بحسن خلقه

مالا يدركه الصائم القائم » ! والمشار إلى إدراكه هنا ، إنما هو مما ترغب فيه النفوس الطيبة ، والهمم العالية من خير الدنيا والآخرة جميعاً . .

وإذا كان هذا فى واقع الإنسان الواحد ، فإنه فى واقع الجماعة أكثر حظًّا ، وأبلغ أثراً ، فإن الأمة ، أو الجماعة ، تدرك بحسن الخلق فى أبنائها مالا تدركه بالصائمين القائمين فيها، إذا لم يتحقق للصائمين القائمين ما من شأن الصيام والصلاة أن يبعثاه فى النفوس .. من الخُلُق الكريم ، والسلوك المستقيم !

وقد يدخل فى وَهْمِ واهم أن حسن الخلق يجىء بغير تربية وتوجيه . . كلا ، فإن الخلق الكريم نِتاج رياضة نفسية ، وتربية روحية ، أساسها العبادات الخالصة لله، والاتجاه إلى الخالق العظيم ، إتجاهاً يفتح القلب ، ويجمع أشتات النفس ، ويصل الكيان الإنسانى كلّه بالملأ الأعلى .. وتلك هى العبادة التى تقوّم المعوجّ ، وتصلح الفاسد ، وتستأصل أدواء النفوس ، وتغسل أدران القلوب ، وتنقّى الإنسان من شوائب الضعف والصَّغار ! . . تلك العبادة التى يقول الله جلّ شأنه فى واحدة منها وهى الصلاة : « إن الصلاة تنهى عن الفحشآء والمنكر » ، والتى يقول الرسول الكريم فى واحدة أخرى منها، وهى الصوم : « الصَّوم جُنَّة ».. ويقول: « من لم يَدَعْ قَولَ الزّور والعملَ به ، فليس لله حاجة فى أنْ يَدَع طعامَه وشرابَه » . . ويقول : « ربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوعُ والعطش » !

فما هذه العبادات المفروضة إلا منهجٌ ربّانىّ، للتربية الأخلاقية العالية ، التى من شأنها أن تخرّج النماذج العالية ، والقمم الشامخة من الناس . . فإن هى لم تثمر ثمرتها تلك فى تهذيب النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتعديل السلوك : فهى عَناء وجهد . . بلا ثمر ، وتعالت حكمة الله عن ذلك علواً كبيراً » .

* * *

الباب الرابع

سمات بارزة فى الإسلام

الفصل الأول

إنسانية الشريعة الإسلامية

الإنسان فى ذاته وفى مجتمعه :

نريد بإنسانية الشريعة هنا أمرين :

أولهما : نظرة الشريعة إلى الإنسان فى ذاته، من حيث هو كائن حىّ، له وجود ذاتى ، وله مكان فى هذا الوجود .

وثانيهما: نظرة الشريعة إلى هذا الإنسان، باعتباره وحدة من وحدات المجتمع الذى يعيش فيه ، ويتعامل معه .

وقد تحدثنا فى باب سابق عن الإنسان فى ذاته ، باعتباره عالماً ، مستقلا بحياة، ومنفرداً بوجود . . كما تحدثنا كذلك عن نظرة الشريعة الإسلامية إليه ، فى هذه الحدود ، وبتلك الاعتبارات . . وقد رأينا كيف وضع الإسلام الإنسان فى هذا الوضع الكريم من الوجود ، وزوّده بالقوى العقلية ، والنفسية ، والروحية ، ليؤدى دور القيادة ، والسياسة ، والبناء ، والإصلاح .. فى كل جانب من جوانب الحياة ، وفى كل منكب من مناكبها .

ونتحدث هنا عن الإنسان فى صلته بالإنسان ، وعن التربية التى تأخذه بها الشريعة الإسلامية ، لتقوم هذه الصلة على التعاون ، والتآزر، ولتجعل من الإنسانية كلها قوة مجتمعة ، للتغلب على قوى الطبيعة ، ثم إخضاعها لخير الناس جميعاً .

الصراع بين الإنسان والإنسان :

والإسلام ينظر إلى الإنسان من هذا الجانب الجماعى ، من خلال حقيقتين ، أو غريزتين فى الإنسان .. هما :

أولا: حاجة الإنسان إلى الجماعة .. تلك الحاجة التى تدعوه فى قوة، وفى إلزام إلى أن يعيش فى مجتمع ، حيث لا يتوقع فى حياة العزلة إلا الضمور ، والجفاف ، والهـــلاك !

وثانياً : أن الانسان حين يجتمع إلى الإنسان تقوم بينهما دواعى التنافس ، والحسد ، والعداوة ، والبغى ، والعدوان . . إلى جانب ما يقوم بينهما من تعاون وتساند !

وبهذا التقدير يضع الإسلام أحكامه ، ومبادئه ، وملزماته التى يدعو الناس إلى التزامها .. فى أنفسهم ، ومع غيرهم !

وكما اتضحت إنسانية الإسلام فى هذه الألطاف والنعم ، التى كشف للإنسان عنها . . من أنه مخلوق كريم ، خلق ليكرَّم ويمجّد ، لا ليهان ، ويشقى . . ومن أن هذه الموجودات التى فى واقع حسّه ، هى مما سخّر الله له ، ليحيا معها وبها حياة كريمة طيبة — كما اتضّحت إنسانية الإسلام فى هذه النظرة الكريمة إلى الإنسان ، فإنها تتضح كذلك فى هذه الرعاية التى يرعى بها الإنسان ، بما تحمل إليه شريعته من وصايا وأحكام ، غايتها جميعها حماية هذا الإنسان من كل ما من شأنه أن يفسد عليه وجوده، وينغص عليه حياته فى الحياة ، أو يقيمه فيها مقاماً قلقاً مضطرباً !

الشريعة والمدعوّون إليها :

وأول ما يبدو للناظر فى الشريعة الإسلامية ، أن كل ما حملت إلى الإنسان، من وصايا وأحكام ، ومن أوامر وزواجر ، وما رصدت من ثواب وعقاب ، وما وضعت من قيود وحدود — إنما كان ذلك كله لصالح الإنسان خاصة ، ولنفعه خالصاً ، غير مراد بشىء من ذلك إعناته ، ولا إرهاقه ، ولا الانتقام منه ، أو التلهى به ، كما تحدّث بذلك بعض الفلسفات — الحديثة — وكما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وكيف يفهم عاقل ، أن الخالق جلّ وعلا ، يخلق خلقاً للعبث والتلهى ؟

فمن فَهِمَ هذا الفهم الخاطىء فليستمع إلى قوله تعالى : « وما خَلَقْنَا السَّموات والأرضَ ، وما بينهما . . لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحقِّ ، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون »(١)

وليفكرْ مرة ومرة قبل أن يُلقى بنفسه فى هذا الضلال الآثم ، ويغرق فى هذا البهتان العظيم !

وإذا لم يكن فى هذه الآية الكريمة ما يفتح لتلك العقول المغلقة طريقاً إلى الهدى ، ومدخلا إلى الحق ، فليوجِّهْهَا أصحابها إلى قوله تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثًا وأنكم إلينا لا تُرْجَعُون »(٢) . . وإلى قوله سبحانه : « ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ »(٣) وإلى قوله : « إنّ إلى ربّك الرُّجْعَى »(٤) !

ولينظروا :

أيحرِصُ مَن عَبَث بشىء وحطّمه ، ورمى به فى « المزبلة » — أيحرص على أن يجمعه من جديد ، ثم يضمه إليه ؟

« مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ »

وهل عرف الناس عاملاً يعمل عملاً ثم يدمّره بيده ، ويفسده عن عمدٍ وإصرار ؟ أيكون ذلك الإنسان معدوداً فى الناس ، أو فى عقلاء الناس ؟

وهل عرف الناس فنّاناً مبدعاً خلق آية من آيات فنّه ، ثم لم يَحُطْه برعايته ، ويضّمه إلى كيانه ، حتى يصبح بعضه ، وبُضعة منه ؟

أفيكون الخلاق العظيم فى سياسته مع ما خلق ، دون الإنسان المخلوق مع ما ينشىء ويصور ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ؟

---

(١) سورة الدخان آيتا ٣٨ ، ٣٩
(٢) سورة المؤمنون ١١٥
(٣) سورة يونس آية ٣٠
(٤) سورة العلق آية ٨

فكيف إذن يتصوّر هذا الفهم السقيم، الذى تقوم عليه الفلسفات المتشائمة، التى ترى الوجود « مزبلة » ، يسبح فيها الناس كما تسبح الديدان فى الجيف ؟ !

لقد صحح الإسلام هذه النظرة السقيمة التى تنظر بها بعض الديانات والمعتقدات إلى الوجود عامة ، وإلى الإنسان خاصة — فجعل الوجود كلّ نعمة من النعم ، إذ الوجود — أيًّا كان، وعلى أية درجة كان — خير من العدم .. وبعملية الخلق والإيجاد هذه كان لله سبحانه الحجةُ على عباده . . إذ يقول سبحانه . « أفمن يَخْلُقُ كمن لا يَخْلُقُ أفلا تَذَكَّرون..وإن تَعُدوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها إن الله لغفور رحيم »[1]

وحيث يقول جل شأنه : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير »[2]

ثم كان خَلْق الإنسان على تلك الصورة الكريمة ، وعلى ما أودع فيه الخالق المبدع من قوى الإدراك والإرادة — كان هذا تكريماً آخر ، ونعمة فوق نعمة . .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق !..

« خلق الإنسان من عَلَق ..

« اقرأ وربُّك الأكرمُ ..

« الذى علَّم بالقلم . . علم الإنسان ما لم يعلم . »

فهذا أول ما أُفتتحت به الرسالة الإسلامية من كلام الله سبحانه . . وفيها تمجيد الله جل شأنه بهذه الصفة ، صفة « الخلق » التى هى اسم من أسمائه الحسنى ، وصفة من صفاته الكريمة . . حيث سمى سبحانه وتعالى نفسه « الخالق » و« البارىء » و « المصوِّر » . . فقال تعالى : « هو الله الخالق ، البارىء ، المصوِّر . . له الأسماء

(١) سورة النحل : آيتا ١٧ ، ١٨
(٢) سورة الشورى : آية ٢٩

الحسنى، يسبح له ما فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم[1]»وهذا التسبيح إنما هو عبادة المخلوقين ، وصلاتهم لله رب العالمين . .

نقول: إن الإسلام إنما جاء بأحكامه والتزاماته ليرعى هذا المخلوق الكريم — الإنسان — وليحفظ عليه نعم الله التى حباه بها . . فإن الإنسان إنما فُضِّل وكُرِّم بهذه الفطرة السليمة التى فطره الله عليها، فإذا لم يستقم مع هذه الفطرة ، وإذا هو لم يحمها من هذه الآفات العارضة — ارتكس ، وهوى إلى أسفل درجات المخلوقات ، إذ ليس كالإنسان سموا وإشراقاً حين يصفو ، وليس مثله إسفافاً وخموداً، حين يخبو ، وتنطفىء جذوة إنسانيته .. والله سبحانه وتعالى يقول : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »[2]

فالإيمان بالله أولا ، ثم العمل الصالح ثانياً — هما اللذان يحفظان على الإنسان إنسانيته ، ويصفيانها أولا ، فأولا من الأكدار التى تَعْلَقُ بها فى صراع الحياة ! ونسأل :

ماذا حملت شريعة الإسلام فى كيانها من قوى تستطيع بها أن تؤدى هذه الغاية التى جاءت لها .. من رعاية الإنسان ، وصيانة فطرته ، والسموّ بإنسانيته ؟

والجواب يقتضينا أن نستعرض الشريعة الإسلامية كلها، فى أصولها وفروعها .. وأن نقف عند كل مقررات مبادئها وأحكامها .

وهذا مالا يحتمله هذا البحث الذى نريد أن نذهب به مذهب الإيجاز، وحصر المسائل ، التى إذا تشعبت فقد تَمَل القارىء ، وخاصة جماعة الماديين ، الذين لا يصبرون طويلا على مثل هذه المباحث !

---

(١) سورة الحشر: آية ٢٤ .

(٢) سورة التين : آيتا ٤ ، ٥

والذى نودّ أن نعرضه هنا، هو ما يكشف عن المبادىء العامة فى الشريعة.. وليس كلّ هذه المبادىء، بل سنكتفى ببعضها، . ففى أى مبدأ من تلك المبادىء تتجلى الروح العامة للتشريع الإسلامى، ويُعرف بها وجه الإسلام . فى وضاءته وإشراقه ! .

وفى هذا التقدير الذى قدرناه سنكتفى بعرض هاتين الحقيقتين فى إيجاز، وهما :

* عموم الشريعة .

* ويسرها .

الفصل الثانى

عموم الشريعة الإسلامية

من أبرز ما تميزت به شريعة الإسلام — دون الشرائع السماوية كلها — أنها جاءت عامة للناس جميعاً . . ليست لقرية ، أو شعب ، أو جنس . . كما كان ذلك الشأن فى رسالات المرسلين السابقين . . وإنما هى رسالة عامة شاملة ، للناس جميعاً ، فى مختلف الأزمان ، والأوطان . .

وإنه لكى يكون للرسالة الإسلامية الحق فى أن تخاطب الناس جميعاً ، وتدعوهم إليها — كان لا بد أن تخرج بنفسها من أول يوم عن حدود الوطن ، والجنس ، واللغة . . إلى حيث الإنسانية جميعها ، فى أزمانها وأوطانها ، وهذا ما كان !

فقد كان أولَ مفتتح الرسالة الإسلامية هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » . . فالإنسان هنا ، هو الجنس الإنسانى كله . . حيث كان ، وحيث كان جنسه ، ولونه ، وموطنه .

وهذا الخطاب الكريم هو نبأ عظيم عن الإنسان ، وأنه مخلوق بقدرة الخالق العظيم وحكمته ! ، وأن خَلْقه آية من آيات الله ، ينبغى أن يلتفت إليها العاقلون .

ثم تجىء آيات القرآن الكريم شارحة هذه الحقيقة ، مؤكدة لها ، مثل قوله تعالى : « يأيها الناسُ إنّا خلقناكُمْ من ذَكَرٍ ، وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1]

ومثل قوله سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طين[2] » .

---

(١) سورة المؤمنون : ١٢

(٢) سورة الحجرات : آية ١٣

وقوله : « واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرضِ نَبَاتاً[١] » إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تحدَّث عن أصل الإنسان . . وأن الناس جميعاً لأب وأم .. فهم أخوة ، وأنهم من ماء وطين .. فهم عجزة ضعاف ، لا ينبغى أن يعلو ضعيف على ضعيف ، ولا أن يستبدّ عاجز بعاجز !

هذه العمومية التى جعلتها الشريعة الإسلامية عنواناً لها، ليست واقفة عند حد التسوية بين الناس فى الدعوة إلى مائدتها ، ثم يكون عند ذلك التفاضل والتمايز بين الناس ، فيما يتفاضلون فيه ويتمايزون من لون ، وجنس ، ومال ، وجاه ، وسلطان . . كلا . . فالناس على مائدة الإسلام سواء . . من جَدّ وسَبَق ، نزل منزلة المقَرَّبين المكرَمين ، بسبقه ، وعمله ، وجِدّه . . ومن أهمل وقصَّر نزل حيث وصل به خطوه !

« وأن ليس للإِنسان إلا ما سَعَى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزَاه الجزاء الأوفى ».

هذا هو ميزان التفاضل والتمايز بين الناس .. الاستقامة على الشريعة والعمل بها !

ومن أجل هذا جاءت أحكام الشريعة عامة . . فى أوامرها وزواجرها ، وفى ثوابها وعقابها ، وفى عباداتها ومعاملاتها ، فى رُخَصها وعزائمها . .

فليس لأحد ، ولا لطائفة ، ولا لشعب ، أى امتياز ، يُخْلِيه عن واجب ، أو أية حصانة تسقط عنه الحدود والتكاليف !

فقد فرض الإسلام العبادات على المسلمين بأمر واحد عام . .

« وأقيموا الصَّلاة وآتُوا الزَّكاة[٢] » . . « وأتِمُّوا الحجَّ والعُمرة لله[٣] » .

« فمن شهد منكم الشهر فليصمه[٤] » . .

---

(١) سورة نوح آية ١٧

(٢) سورة البقرة ٤٣ .

(٣) سورة البقرة ١٩٦

(٤) سورة البقرة ١٨٥

« والسَّارق والسارقة فاقطعوا أيديَهما[1] » « الزانية والزّانى فاجلدوا كلّ واحد منهما مئةَ جلدة[2] ».

وهذه — كما ترى — أحكام عامة مطلقة ، تضع الناس جميعاً على وضع واحد منها . .

وحسبنا من قولة الرسول الكريم : « لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطع محمد يدها » . . حسبنا من هذه القولة شرحاً عملياً لعمومية التشريع الإسلامى . إذ تناول هذا الحدّ أعلى ذروة ، فلن يَقْصُر عن تناول التلال ، والسفوح ، والوديان ، والقيعان !

ومن عمومية الشريعة الإسلامية أنها تتولى الإنسان بحياطتها ورعايتها ، وتأخذه بأحكامها وتعاليمها . . منذ أن يولد ، بل منذ أن يكون علقة فى بطن أمّه . . إلى أن يكون رجلا ، وإلى أن يصير ربّ أسرة ، وإلى أن يصبح عضواً فى المجتمع ، ثم إلى أن يموت ، وبعد أن يموت !

فأولاً : فرض الإسلام على المجتمع حرمة دم الإنسان ، ودينه ، وعرضه ، وماله . . فأى عدوان يقع على أى فرد من أفراد المجتمع ، كان على الجماعة ، أو على من تختاره من بينها إقامة حدود الله على من تعدّى هذه الحدود !

وثانياً : أوجب الإسلام على الفرد الانضواء إلى المجتمع الإنسانى ، بعد أن كفل له الحماية فى داخل هذا المجتمع ، وبعد أن أبقى على وجوده الذاتى فيه ، فلم يضيّع معالمه ، ولم يميّع شخصيته ، أو يذيبها فى المجتمع .

إن الحياة تتعامل على الإنسان بوجهيه معاً : الفردى والاجتماعى . . تستقبله فرداً ، فتعطيه وتأخذ منه ، وتستقبله مع المجتمع أو المجتمعات فى جميع مستوياتها ،

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٨

(٢) سورة النور: آية ٢

فتعطيه ، وتأخذ منه أيضاً . . وهى فى كلا الحالين ترى بكل مشخصاته ، تراه مرة كما يبدو من « عدسة » المصورة إذا كان بمفرده فى مجال العدسة ، وتراه فى الحالة الأخرى كما يبدو من خلال « عدسة » المصورة هذه ، وقد وقف فى مجالها مع ملايين الملايين من الناس .

كذلك شأن الإنسان مع الحياة ، ومع الناس . .

إنه يرى نفسه من خلال هاتين النظرتين . .

نظرة لا يرى فيها إلا نفسه هو ، ووجوده هو . .

ونظرة يرى منها نفسه عضواً — كبيراً أو صغيراً — فى المجتمع . .

فهو حين يكون فى مجتمع أسرته يبدو له كيانه واضحاً محدداً .

وكلما كبر المجتمع الذى ينظر إلى نفسه فيه من خلاله وجد وجوده يتضاءل ويبهت شيئاً فشيئاً ، ولكنه لن يضيع هذا الوجود أبداً ، ولن يختفى عن نظره !

وعلى هذا التقدير ، وبتلك النظرة — بجانبيها وعلى وجهيها معاً — كان تقدير الإسلام للإنسان ، وكانت نظرته إليه ، فى دعوته إلى شريعة هذا الدين ، وفى التعامل معه بهذه الشريعة .

إنه يلقاه بكل كيانه هذا الذى يعيش فيه . . فرداً ومجموعاً معاً .

إن تعاليم الإسلام — مع عموميتها — تعترف اعترافاً كاملاً واضحاً بذاتية الإنسان ، وبفرديته . . وأنها إنما تعمل — فى الواقع — من أجل الإنسان من حيث هو إنسان له مفهومه الذاتى . . إذ هو فى نظر الإسلام عالم صغير ، له فلكه الذى يدور فيه ، وله مشاعره التى يحيا بها ، وعواطفه التى يعيش فيها ، وضميره الذى يحتكم إليه .

وإن الذى يضمن للإنسان حياة طيبة مباركة ، هو أن يصحح وجوده فى الحياة

وأن يصل مشاعره وأفكاره ونزعاته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، ثم بالحياة كلها ، وبالوجود كله ،

من أجل هذا جعل الإسلام للإنسان أكثر من مجال يتحرك فيه ، وأكثر من لحن ينسجم معه ، على حسب طاقته وقدرته ، واستعداده .

فهو مع أسرته . . من زوج وولد . . نغم فى لحن .

وهو مع أهله وعشيرته ، وذوى قرابته الأدنين والأبعدين . . نغم فى لحن أكبر . .

ثم هو مع المجتمع الذى يدين بدينه ، ويعتقد معتقده . . نغم فى لحن .

وهو مع الإنسانية التى يلتقى معها فى أصله الأول . . نغم فى لحن أكبر .

ثم هو مع الوجود كله فى أرضه وسمائه . . نغم فى لحن أكبر . . من هذا اللحن . . نغم يصدح بتمجيد الخالق العظيم جل وعلا ، فيمن يمجده من عوالم وأكوان !

فى هذه المجتمعات جميعها يجد الإنسان وجوده ، ويجد الشريعة الإسلامية تحتفظ له بمكانه فيه ، وتدعوه إليه ، مزوداً بالزاد الذى يحفظه سليما سعيداً .

فى مجتمع الأسرة حددت الشريعة مكان كل فرد فيه . . الزوج والزوجة ، والآباء ، والأبناء ، وحددت الحقوق والواجبات لكل عضو من أعضاء هذا المجتمع .

وفى مجتمع الأهل والعشير دعت الشريعة إلى صلة الأرحام ، وبر الأقربين ، ورعاية الجوار .

وفى المجتمع الإسلامى جاءت دعوة الإسلام بالأخوة ، والتراحم ، والتواد والتعاون على البر والتقوى ، والدعوة إلى سبيل الله .

وفى المجتمع الإنسانى رفع الإسلام الحواجز المصطنعة الكاذبة القائمة بين الجماعات على مدعيات باطلة،من الاعتزاز بالدم، واللون، والمال ، والجاه، والسلطان . . تلك المدّعيات التى أغرت الناس بعضهم ببعض ، وقطعت أواصر الأخوة بينهم . . فأرجع الإسلام الناس إلى معدنهم الذى خُلقوا منه،وردهم إلى أصلهم الذى تفرعوا عنه ، ودعاهم إلى أبيهم الذى ولدوا منه :« إنا خلقناهم من طينٍ لازبٍ[1] »

وفى المجتمع الكونى دعا الإسلام الإنسان إلى الخضوع والولاء لله ، فيمن خضع له سبحانه من كائنات الوجود كله . . إن كلُّ من فى السموات والأرض إلاَّ آتِى الرحمَنِ عبدا[2] »

فمسئولية الفرد فى الإسلام مسئولية بارزة واضحة . . ومن هنا كان اندماجه فى المجتمع، قائماً — فى شريعة الإسلام — على أساس الاحتفاظ الكامل بذاتيته ، حتى يستطيع أن يحمل المسئولية التى حُمِّلها فى كل مجتمع يعيش فيه . .

والحقيقة البارزة التى يعلنها الإسلام فى جميع أحكامه ، وتشريعاته وتعاليمه — هى أن المجتمع إنما قام أو يقوم لصالح الفرد ، وللبلوغ به إلى غايات الخير ، والأمن والسلام.. وأن الفرد مقصود لذاته فى الخَلْق والتشريع ، وأن المجتمع ليس إلا عملا من أعمال الفرد ، وتنظيما من تنظيماته . . وما كان لعمل يعمله الفرد بيده أن يغل هذه اليد ، ويأخذ عليها !

وإذن فعموميَّة التشريع الإسلامى ، وسبك الإنسانية كلها بل والوجود كله فى بوتقة هذه الشريعة لا يذهب بشىء من ذاتية الإنسان،ولا يعطل شيئاً من قواه ولا يمسك مَلَكة من مَلَكاته . !

فالإنسان هو الإنسانية كلها مجتمعة فى شخصه . . فى صورة مكبرة .

والإنسانية كلها هى هذا الإنسان . . مصوراً فيها . . فى صورة مصغرة !

---

(١) سورة الصافات : آية ١١

(٢) سورة مريم: ابة ٩٣

الفصل الثالث

يسر الشريعة الإسلامية

اليسر والسماحة . . أوضح سمات الشريعة الإسلامية .. بل ذلك هو عنوانها الواضح ، الذى تُعرف به ، ووجهها المشرق ، الذى تطلع على النـــاس بجلالها وعظمتها فيه !

فأى أمرٍ يجىء إلى الناس باسم هذه الشريعة ، إن افتقدوا فيه تلك الصفات فهو دخيل على تلك الشريعة ، مفهوم على غير وجهه الذى تريده .

وليس هذا القول عن فرض وادعاء ، بل هو حقيقة من حقائق الإسلام ، تأخذ مكانها واضحاً بارزاً فى نصوص شريعته، حتى لـكأنها حكم ملزم من أحكامها التى يجب اتباعها والعمل بها !

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فى التشريع لفريضة الطهارة : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديَـكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلَـكم إلى الـكعبين ، وإن كنتم جُنباً فاطَّهروا ، وإن كنتم مرضَى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منـكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه .. ما يريد الله ليجعل عليـكم من حرَجٍ ، ولـكن يريد ليُطَهِّركم وليتم نعمته عليـكم ولعلـكم تشكرون »[1] . .

ويقول سبحانه ، فى الـكشف عن حقيقة هذا الدِّين كله :

« وما جعل عليـكم فى الدِّين من حرَجٍ . مِلّةَ أبيـكم إبراهيم ، هو سمَّاكم

(١) سورة المائدة : آية ٦ .

المسلمين من قبل[1] ».. وتقرر هذه الآية أن الحرج منفيّ فى مسائل الدين كلها . .
ويقول سبحانه : « يريد الله أن يُخَفِّفَ عنكم وخُلق الإنسان ضعيفاً[2] » . .
والإسلام هنا ينظر إلى الجانب الضعيف من الإنسان ، ولا يلتفت إلى ما فيه من غرور وادعاء . . وهذا الضعف هو داعية الرحمة ، والرفق ، والتخفيف عن هذا الإنسان ، الذى يغلب عليه الضعف ، وتتحكم فيه الضرورة ! وفى هذا يقول الرسول الكريم : « سيروا بسير أضعفكم » !

وهذا المبدأ من مبادىء الإسلام يكشف عن وجه الشريعة الإسلامية كلّه !

فوكب الإسلام موكب ملاحظ فيه جانب الضعفاء فى ماديات الحياة ومعنوياتها ، فلا يوطأ فيه الضعفاء بالأقدام ، ولا يتخطاهم الرَّكْب !

وهذا — بلا جدال — إعلان من نور ، وصفحة مشرقة ، مسطورة بيد الرحمة والحكمة ، تنبىء عن مكانة الإنسان ، وتحدّث عن عناية الله به !

فالإنسان شىء عظيم عند الله . . ينبغى أن يُصان ، وألا يضيّع بحال أبداً ! مهما يكن أمره من الضعف ، فإن على الجماعة الإنسانية أن تتقيّد به ، لا أن يتقيّد هو بها . . ومن حق الإنسان الفرد على الجماعة أن يحيا فيها ، وأن يُفسَح له مكان طيب منها ..أيًّا كان حظه من القوة ، أو الذكاء ، أو العلم !

فأين من هذا ما تدور عليه حياة كثير من الجماعات، التى تصف نفسها بالرقّ والحضارة ، فى عصر الرقّ والحضارة ؟

إن الانسان فى كثير من هذه المجتمعات لا يعدو أن يكون أداة من أدوات الإنتاج ، سواء أكان هذا الإنسان فى مجتمع الشيوعية ، أو المجتمع الرأسمالى ! فالشيوعية فرضت الآلية على الإنسان فرضاً، وجعلته ترساً فى عجلة الحياة ، يدور

---

(١) سورة الحج : آية ٧٨ (٢) سورة النساء : آية ٨٢

مع هذه العجلة، ويتحرك بحركتها ، بلا إرادة ! على حين قامت الحياة المادية فى المجتمع الرأسمالى على هذه الآلية ، فجعلت الإنسان آلة متحركة لجمع الأموال ، وتثميرها ، وعبادتها .. إنه عبد مسخر لنفسه ، لا يختلف كثيراً عن هذا العبد المسخر للجماعة !

إن إنسان هذا العصر المادى إنسان ضائع ، يعيش فى نفسه ، ولنفسه .. فى عزلة باردة ، لا تعطفه عاطفة على أحد ، ولا تتجه إليه هو عاطفة من أحد . !

وإن المجتمع الإنسانى المتحضر اليوم ، قد انحلت فيه كل رابطة تقوم على العاطفة ، أو تفيض من الوجدان . . فمن غفل عن نفسه فى هذا المجتمع أكله الناس ، كما تأكل الذئاب جرحاها !

واستمع مرة أخرى إلى هذه الكلمات، أو القذائف المدمرة، التى تنطلق من قواعد الفلسفة المادية ، فتهلك الحرث والنسل ، وتحرق كل عاطفة إنسانية كريمة فى الناس ..

يقول « نيتشه » فيلسوف المادية وحكيمها :

« إن الرحمة ، والتعاون ، والحب ، وكافة الفضائل المسيحية — يقصد مسيحية المسيح التى بشر بها — هى مجموعة من الدجل والخرافات ، تستهدف رعاية الغوغاء والدهماء والقطعان !

« وهؤلاء جميعاً — من فقراء ، ومرضى، وضعفاء — يعوّقون التطور الإنسانى ! ! فى حين أننا يجب أن نُخلص لنوعنا البشرى ، بأن نبقى على الأقوياء فى الذهن ، والجسم ، والروح ، ونعمل على إفناء الآخرين .. حتى نحصل فى النهاية على السوبرمان »(١)

هذا هو دين الفلسفة المادية ، يبشّر به نيتشه ، ويعيش به الناس فى القرن العشرين . !

---

(١) حرية العقل فى مصر . . لسلامه موسى .

وقد اعتنق هذا الدين كثيرون ، بل ودانت به شعوب . ! إذ شهدت الحياة دعوة « هتلر » التى تقوم على أساس هذا المبدأ ، الذى يجعل للعنصر الجرمانى السيادة والامتياز على الجنس البشرى كله . ثم يعود إلى العنصر الجرمانى نفسه فيقتلع منه الحشائش الضعيفة ، والنباتات المريضة ، حتى يستولد « السوبرمان » من هذا الشعب القوى ، المصفّى من المرضى والضعفاء !

أرأيت إلى هذا الوجود الذى يعيش فيه الإنسان اليوم ؟ ثم أرأيت إلى هذا الضياع الذى يعيش فيه الأقوياء والضعفاء على السواء ؟

إذن فاستمع إلى دعوة الإسلام ، التى يقيم عليها مجتمعه . . استمع إلى قول نبىّ الإسلام : « سيروا بسير أضعفكم » ، ثم قف خاشعاً بين يدى هذه الروعة ، وهذا الجلال !

وضَع هذا الهدى النبوىّ الكريم فى ميزان الحياة الغربية الذى اختل واضطرب — يَعُدْ إليه اعتداله وتوازنه ، وتنضبط فيه خطوات الجماعة والأفراد على الخير والعدل ، ويخفت فيه صوت هذه الدعوات المجنونة ، التى تعوى عُواء تستعدى به الأقوياء على الضعفاء ، ليتخففوا من أعبائهم ، وليسرع خطوهم فى الحياة!

وقد يسأل سائل :

كيف تمضى الحياة بهذا الركب الذى يدعو الإسلامُ الناسَ إليه ، ويُلزمهم فيه أن يسيروا بسير أضعفهم ؟

وهل يستطيع مثل هذا الركب السلحفائى أن يبلغ غاية ، أو يحقق مقصداً ؟

ثم أليس هذا هو سر تخلف المجتمع الإسلامى ، وسبب ضعفه ، وتخاذله بين المجتمعات الإنسانية — بما شاع فى تفكيره ، وتسرب إلى وجدانه من مثل هذه الدعوة ؟

ثم ماذا يُرجى لسائر يسير بهذه الخُطا الواهنة الواهية ، بينما الناس يجرون ،

ويَعْدُون ؟ ماذا يُرجى لهذا الإنسان ويتوقع منه غير التخلف والعجز عن أن ينال شيئاً من طيبات الحياة ، التى تمتلىء بها أيدى الجادِّين المنطلقين ؟

ونقول إن هذا الذى يدعو إليه الإسلام من أن يسير المجتمع الإسلامى بسير الضعيف — ليست غايته توهين قوى الأقوياء ، وإطفاء جذوة الحماس المشتعلة فى كيانهم ، بقدر ما هى حثٌّ للضعفاء على إطلاق القوى الكامنة فيهم ، وبعثها من رقدتها ، عن طريق الغيرة والتنافس ، والعدوى ، التى تَهُبّ عليهم من جهة الأقوياء !

إن من تدبير الإسلام فى هذه الدعوة هو أن يجعل من طاقات الأقوياء ، ومن حرارة العزم والحماس الذى يملأ صدورهم — دفئاً يملأ صدور الضعفاء بالأمل والرجاء ، ويطرد عن كيانهم ضباب اليأس الذى يلفّهم كما يُلفّ الميت فى كفنه !

إن الذى يريده الإسلام بهذا التدبير الحكيم هو استنقاذ هذا العدد العديد من ضعفاء النفوس ، أصحاب الهمم الفاترة ، والعزمات الخائرة ، حين يضمهم الركب القوىّ إليه ويهتف بهم إلى السير معه .

ولاشك أن فى هذا كسباً للجماعة ، وزيادة كبيرة فى رصيدها من القوى العاملة فى الحياة ، بهذا العدد الكبير الذى يضاف إليها من الضعفاء ، الذين كانوا — لولا هذا التدبير الحكيم — فى عالم الضياع والموات !

وانظر :

إن انطلاق الأقوياء انطلاقاً لا التفات فيه إلى الضعفاء يوقع اليأس فى قلوب المتخلّفين ، فيظلون حيث هم ، دون أن يتحركوا .. إذ لا فائدة من الحركة ، ولا أمل فى اللّحاق بالركب المنطلق !

وربما بدا لبعض القائلين أن يقول : ولم لا يقع عكس هذا ، وهو أن تجىء العدوى من الضعفاء إلى الأقوياء ، فيتحول الركب كله إلى « سلحفاة » لا تتحرك إلا فى مدار محدود .. فى تثاقل وتباطىء ؟ لِمَ لا يقع هذا ؟

ونقول :

إن هذا القول مردود لأمور .. منها :

أولا : أن الإنسان مدعوٌّ من جانب ذاته ، ومن غريزة حب تحصيل الخير لشخصه أن يسعى ، ويعمل ، وأنه إذا وَجَدَ الجادّين العاملين استولى عليه دافع التنافس ، فدفع به إلى مسامات السابقين واللحاق بهم . . وخاصة إذا استشعر أنه لن يداس تحت أقدام الركب الذى يسير فيه إذا خارت قواه ، وخذلته قدماه . . إنه سيجد أيديا كثيرة رحيمة تحنو عليه ، وتستنقذه ، ولا تدعه وشأنه ، يلقى مصيره المحتوم ! !

إن إلزام الجماعة بأن تسير بسير الضعفاء، يعطى الضعفاء إحساساً بأنهم لو اندفعوا وانطلقوا ، ثم أدركهم الجهد والإعياء فلن يُتركوا فى عرض الطريق ، ولن يرمى بهم على جانبيه . . وبهذا لا يتردد ضعيف فى الانضواء إلى الركب ، وفى الإقدام ، والمغامرة .

وثانياً : أن الإنسان فى الركب الإسلامى مدعوٌّ إلى العمل والكفاح ،وذلك إلى مافى الإنسان ذاته من دوافع العمل والكفاح ، حفظاً لكيانه ، ومنافسة لأقرانه — وأنه إذا قصّر فى ذلك عُدَّ مخالفا لشريعة دينه التى تجعل العمل عبادة وقُربةً ، يتقرب به إلى الله .. كما أشرنا إلى ذلك فى أكثر من موقف فى هذا البحث.

هذا ، وليست دعوة الإسلام هذه ، بالتى تأخذ على الأقوياء طريقهم ، فى الانطلاق إلى غايةِ ما تحتمل طاقاتهم . . فإن كل فرد — فى ظل هذه الدعوة — مطالب بأن يبذل كل جهده ، ويطلق كل طاقاته فى مجال عمله ، وأن يتحرك فى كل اتجاه ، ما دام آخذاً طريقاً مستقيما ، لا يعتدى فيه على أحد ، ولا يظلم أحداً !

فالناس فى مفهوم هذه الدعوة فى حرية مطلقة فى ميدان الأعمال ، حسب طاقاتهم واستعداداتهم . . ولكن الذى تقصد إليه تلك الدعوة هو أن تتّسق

حركات الجماعة ،حين تدعوها غاية ، ويجمعها عمل . . سواء أكان ذلك فى شئون الدنيا ، أم فى أمور الدين !

ففى السير إلى الجهاد ، وملاقاة العدو . . ينبغى أن تسير الجماعة فى ركب واحد ، وأن تنظر إلى الجانب الضعيف منها ، فلا تحمله على ماعند لأقوياء من قوة . . فإذا كان لقاء العدو فينبغى أن يعطى كل واحد من الجماعة ما عنده من قوة ،وأن يُبْلِيَ بلاءه فى المعركة ، فلا يقع -- مثلا — أن يسير علىّ بن أبى طالب فى محاربة العدو على حذر من هم دونه قوة ، وشجاعة ، وصبرا !

وفى الصلاة — صلاة الجماعة — مطلوب فيها شرعاً التخفيف ، وأن يراعى فيها حال الضعفاء والمرضى ، وأن تقدّر بالقدر الذى لا مشقة عليهم فيه . . فإذا كان الإنسان وحده فى صلاته أقام صلاته على ما يحتمل !

* * *

ومن جهة أخرى ...

فإن فى دعوة الإسلام هذه رحمة بالأقوياء أنفسهم أن يحرقوا كل طاقاتهم فى سكرة الانطلاق ، حيث التزاحم والتدافع والتنافس ، وحيث يذهل الإنسان — فى مثل هذا الموقف — عن نفسه ، وينسى ما ينبغى أن يكون لبدنه ، وعقله من حق فى الدعة والراحة ، بعد العناء والتعب . . إذ كثيراً ما يقع الإنسان فريسة هذا الانطلاق المجنون ، فتنحل قواه ، وتفسد صحته ، ويصبح غير صالح للعمل القليل ، فضلا عن الكثير !

ولعل فيما يُرى فى المجتمعات الأوربية والأمريكية التى جرفتها تيارات الحياة المادية ، وألهبتها سياط التنافس — لعل فيما يُرى من تلك الآثار السيئة التى أصيب بها كثير من الناس هناك ، من انحلال فى القوى الجسدية ،والعقلية ، فوق ما أصيبوا به فى حياتهم الروحية — لعل فى هذا شاهداً يشهد عن عيانٍ ،لصدق دعوة الإسلام

هذه ، وما وراءها من خير وفير ، في محيط الفرد والجماعة ، وفى جانب الأقوياء والضعفاء جميعاً .

* * *

وهذه الدعوة التي يدعو إليها الرسول الكريم : « سيروا بسير أضعفكم » ليست مجرد دعوة على سبيل الاستحباب أو الندب ، وإنما هى عن أصل من أصول الشريعة ، بل عن الأصل الذى تقوم عليه جميع أصولها ، وهو « الوسط » الذى انفرد به التشريع الإسلامى من بين الشرائع السماوية كلها . . وهو سمة الإسلام ، وسمة أهله . . قال الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً »[١]

والوسط من كل شيء هو مركز الاعتدال ،منه ، ونقطة التوازن فيه .

وطبيعى أن فوق الوسط منزلة أعلى منه ، وأنه ليس غايةَ الكمال . . ولكنه مع هذا خير — فى مجموعه — مما فوقه ، لأنه أثبت وأدوم ، ولأنه أقرب إلى متناول الناس . . إن لم يكن الناس جميعاً ، فالأغلب الأعمّ منهم .

إن الاعتدال فى أى شيء وفى كل شيء ، هو مما يحتمله الناس ، ويقدرون على الوفاء به ، ويصبرون على مايُكْرَه منه . . أما ما فوق الوسط فهو أمر لا تحتمله أكثر النفوس ، ولا تصبر عليه . . وقدير تفع الإنسان إلى أكثر مما يحتمل،فيختلّ توازنه ويسقط . . ولا تكون السلامة والعافية إلا حيث الاعتدال ، الذى يجد الإنسان فى مجاله القدرة على التحرك إلى فوق وإلى تحت . . وهو فى تلك الحركة لا يخرج عن المقام الكريم اللائق به ، حيث يظل بالوضع الذى يشرف منه على الأرض ، ويستشرف للسماء !

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣

وقد يقول بعض القائلين : إن الوسط لا طعم له ، ولا ذاتية لوجوده .. إنه أشبه شيء بالخيط الوهمى .. إنه ليس شيئاً ، ولا ضد شيء ! .

إن القسمة فى الأمور هى : الشيء وما يقابله : الخير والشر .. الأبيض والأسود .. الحلو والمر .. الجميل والقبيح ! .

والوسط الذى يفصل بين هذه المتقابلات ليس إلا خطاً وهميا !

ثم كيف يكون الوسط هو الطريق المحمود، والله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى التسابق فى مجال الخير، فيقول سبحانه: «وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضها السمواتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتقين .. الذين ينفقون فى السراء، والضَّرَّاء، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين[1]» .. لقد فتح الله المجال للتنافس بين المتنافسين فى الخير والإحسان على مصراعيه ، بلا حدود ، ولا قيود ! « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون[2] »

فما تأويل هذا ؟

ونقول : إننا لا ننكر أن فوق حد الوسط منازل كثيرة للفضل ، وأنه غير محجور على الناس أن يرقَوْا إليها ، وأن يتنافسوا فيها ، بل إن ذلك مندوب ، محمود .. فالطريق إلى الكمال مفتوح للناس جميعاً .. ليس عليه حارس .. فكل من وجد فى نفسه القدرة، وأنس منها الاستعداد على مجاوزة حد الوسط إلى ما فوقه — فله أن يسير إلى حيث يبلغ به جَهْده ، وتُسعفه قدرته .

ولكن هذا شيء .. والتشريع العام شيء آخر !

التشريع إلزام لا انفكاك منه .. وهذا عن تطوع واختيار .. التشريع عقد بين صاحب الشريعة ، وأتباع هذه الشريعة .. فهم مطالبون بالوفاء به ، إذا قَصَّروا حوسبوا على تقصيرهم ، وأُخذوا به ، ولا كذلك ما كان عن تطوع واختيار .. إذ يستطيع الإنسان أن يمضيه ، أو يُعفِىَ نفسه منه . ولا لوم عليه !

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٣٣ ١٣٤ (٢) سورة المطففين: آية ٢٥

والتشريع حين يكون عامًّا، تقتضى الحكمة فيه أن يكون قائمًا على معيار يسع الناس جميعًا . . الأقوياء والضعفاء . . فى جميع الأزمان والأوطان !

كذلك اقتضت رحمة الخالق بعباده فى دعوتهم إلى الإسلام، الذى أريد له أن يكون دينَ الإنسانية ومُختَتَم رسالات السماء — اقتضت هذه الرحمة الراحمة أن يكون التشريع فى شريعة هذا الدين مقدراً على ما يحتمل الضعفاء لا الأقوياء . . وأن يكون ما فى الأقوياء من قدرة على احتمال ما فوق التشريع هو فضل من فضل الله عليهم، يزدادون به كما لا فوق الكمال الذى بلغوه بأداء ما كُلِّفُوه به . . فإنه ما على المحسنين من سبيل !

وهنا يتضح معنى الآية الكريمة : « لا يكلّف اللهُ نفساً إلاّ وُسْعَها[1] » . . إذ أن أى نفس — فى مفهوم هذه الآية — لا تضيق بالتشريع الذى قُدِّ على قَدْر الضعفاء، وفصِّل على مدى احتمالهم، وما تسع نفوسهم . . حيث تتسع له نفوس الضعفاء، وتتسع له ولأكثر منه نفوس الأقوياء !

هذا، ويتجلّى يسر الشريعة، وسماحتها فى جانبيها النظرى والعملى معاً . .

ففى الجانب النظرى، نجد هذا الوضوح والتحديد لضبط مسائلها، وعرضها فى أسلوب سمح مشرق، تتكشف للناس منه حقائق الشريعة، دون أن يكونوا تحت سيطرة الكهان والأحبار، الذين يستبدون بالرأى فى حقائق الشريعة، ولا يدَعون لأحد معهم رأياً أو نظراً ! . .

وقد كشفنا عن هذا الوجه فى بحث مضى . . وسنزيده هنا كشفاً . . بعد قليل . .

---

(١) سورة البقرة ٢٨٦

أما الجانب العملى الذى يظهر فيه يسر الشريعة فيبدو فيه فى وجوه كثيرة . . منها :

أولا : التكاليف المفروضة .

وهى نوعان :

١ — عبادات : من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، وحج .

٢ — ومعاملات . . من بيع وشراء ، وأخذ وعطاء . . وغيرها .

والعبادات التى فرضها الإسلام على أتباعه ليس فيها ما يخرج عن طاقة أواسط الناس جهداً ؛ بل إنها فى مستطاع من هم دون المتوسط قدرةً وقوةً .

ثم إن هذه الفروض تخفف، أو تؤجل، أو تَسقُط . . حسب الظروف والأحوال.

فالصلاة مثلا . . تُقْصَر فى السفر . .

ويأتيها المصلّى قائماً، أو قاعداً ، أو مضطجعاً ، أو نائماً ، بحركة أو إشارة . . على حسب حاله الصحية ، أو على حسب الظروف المتلبسة به .

والزكاة . . تسقط إذا لم يملك المسلم نِصَابا معيناً من المال .

والصوم . . رُخّص فيه الإفطار للمسافر ، والمريض ، والحامل ، والمرضع والشيخ الهرِم . . على حسب التفصيل المعروف فى كتب الفقه .

والحج يسقط عمن لا يستطيع إليه سبيلا . . وهكذا .

ومن جهة أخرى . . فإن الرفق هو دعوة الإسلام التى تسبق كل عمل من هذه الأعمال ، التى يدعو إليها ، ويأمر بها .

ووصايا الرسول ، وسنته القولية والعملية فى هذا الباب تشرق بوجهها المشرق، لتردّ كل شارد عن القَصْد والاعتدال ، ولتمسك كل مُغال فى صلاة أو صوم أو زكاة ، أو أية قربة يُتقرب بها إلى الله . .

يقول النبىّ الكريم لصاحبين من صحابته بعث بهما إلى اليمن : « يسّرا ولا تعسِّرا » ويقول : « بُعثْت بالحنيفة السمحاء » ويقول : « إن هذا الدين متين، فأوغِل فيه برفق . . وإنه لن يُشَادّ الدِّين أحد إلاَّ غَلَبَه » . . ويقول : « إنّ هذا الدِّين ذَلول لا يرْكَبُ إلا ذَلُولا » .

وممّا يدخل فى هذا الباب ، ويحسب عليه فى يسر الشريعة وسماحتها — هذا الوضوح المشرق الذى صيغت فيه أحكام هذه الشريعة ، وحُملت إلى الناس به . .

وحسب هذه الأحكام وضاءة ، إشراقاً أن يحملها كلام الله ، وأن يتلقاها رسول الله فى هذا الكلام الكريم ، الذى أصبح قرآن المسلمين ، يتعبدون بتلاوته ، وترتيل آياته !

وإنه لكى يكون للتشريع — أى تشريع سماوى أو أرضى — الأمر المرجوّ منه فى مجتمعه، المدعوّ إلى التزامه ، والتعامل به — ينبغى أن يكون واضح العبارة ، محدّد المعنى ، بعيداً عن الرمز والتعمية ، مجانباً المسالك الوعرة ، والطرق المعوجّة ، آخذاً الناس إليه من أقرب طريق وأعدله ، وأيسره . . وإلاَّ تاه الناس فى دروبه ، وضلّوا فى مسالكه ، وتقطّعت بهم الأسباب، دون أن يقعوا على حقائق التشريع ، وأن يدركوا مقاصده ومراميه . . الأمر الذى لا يجعل لهذا التشريع أثراً فى نزعات الناس وفى سلوكهم ، وإن يكن له من أثر ، فهو الحيرة ، والبلبلة ، والاضطراب .

والتشريع الإسلامى الذى يحمل نصوصه القرآنُ الكريم والسنة المطهرة ، يمثّل أكمل وأدق تشريع عرفته الحياة . . فى وضوح المعنى ، وضبطه ، وإحكامه .

وقد أشرنا من قبل إلى تلك الخاصية التى انفرد بها التشريع الإسلامى من النص الصّريح فى صلب هذا التشريع ، على أنه « بلسان عربى مبين » كما أنه وصَفَ الكتابَ الكريم الذى حمل هذا التشريع بأنه جاء « قرآناً عربيًّا غير ذى عوج »[1] .

---

(١) سورة الزمر ٢٨

وقد أخذ أتباع هذه الشريعة أنفسهم من يومهم الأول معها على هذه الصفة ، وأنها عربية اللسان ، مُبينة عما تحمل إلى الناس من أحكام وتشريعات . . وأنه ليس فيها رمز ولا تعمية ، وليس لكلامها ظاهر وباطن . . بل هى اللسان العربىّ السليم ، المبين ، الذى يتعامل به العرب فى حياتهم العامــة ، فى الجاهلية والإسلام .. فمن عرف هذا اللسان ، وتعامل به عرف وجه الشريعة ، وفقه دعوتها !

وبهذا وقف المسلمون إزاء الشريعة الإسلامية على قدم المساواة ، ليس لأحد أن يقول فى الشريعة قولا لا يقوم له شاهد من دلالات اللغة ومفاهيمها .

وحادثة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه ، والمرأة العجوز تغنى عن كل قول يقال فى هذا المقام !

فقد دعا عمر فى إحدى خطبه ، وهو على مِنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — دعا إلى عدم المغالاة فى المهر ! وجماعة النساء فى أقصى المسجد يسمعن هذا القول ، فقامت عجوز من بينهن تردّ على عمر دعوته تلك ، وتحاجّه بكتاب الله ، وتقول : كيف هذا ياعمر ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مَكَانَ زوجٍ ، وآتيتم إحداهن قنطاراً ، فلا تأخذوا منه شيئاً . . »[1] ؟

وهنا تنبّه عمر إلى ما كان منه . . فقال : « أصابت العجوز ، وأخطأ عمر » ! يقول عمر هذا على المنبر ، وعلى رءوس الأشهاد . . ، وهو أمير المؤمنين . ! ويقف مع العجوز أمام الشريعة الإسلامية على حد سواء ، بل إنه ليعطى العجوز هنا حقّ السبق والتقدم عليه !

ومن أجل هذا ، فقد نزّه الله سبحانه وتعالى القرآن من أن يدخل فى نظمه شىء من أساليب الشعراء ، أو سجع الكهان ، كما حمى نبيّه وحفظه من أن يكون فى الشعراء أو الكهان .. فقال تعالى . « وما هو بقول شاعر .. قليلا ما تؤمنون ،

---

(١) سورة النساء : آية ٢٢

ولا بقول كاهن . . قليلا ما تذكَّرون . . تنزيل من رب العالمين »[١] وقال : « وما علّمناه الشعر وما ينبغى له . . إن هو إلا ذِكر وقرآن مبين »[٢] . . وذلك أن أساليب الشعر والكهانة أساليب محمّلة بكثير من الغموض ، والخيال . . الأمر الذى يسمح للناظر فيها بأن يخلطها بمشاعره ، وأخيلته وأوهامه . . قال تعالى : « والشّعراء يَتَّبِعهم الغاوُون . . ألم ترَ أنهم فى كلّ وادٍ يَهيمُونَ ، وأنهم يقولون مالا يفعلون »[٣] !

ولم تكن هذه الحماية التى فرضها الله سبحانه وتعالى على لسان الشريعة وعلى الرسول الذى بلّغها — إلا ليقيم هذه الشريعة على وجه واحد مفهوم للناس جميعاً ، ليس لأحد أن يخرّج مقولاتها كما تُخرّج مقولات الشعراء ، والكهان !

وقد يسأل بعض السائلين :

إذا كانت نصوص الشريعة الإسلامية على هذه الصفة من الوضوح والضبط، فكيف حدث هذا الخلاف الشديد البعيد بين علماء الشريعة وفقهائها فى استخلاص الأحكام منها ، وفى الوقوف على المفهوم المراد من عباراتها وألفاظها ؟ كيف يتفق هذا مع هذه المذاهب المختلفة ، وتلك الفِرَق المتعددة التى تدين كلها بالإسلام ، وتدّعى كلها أنها هى التى تقول قولة الحق فى النصّ الشرعى ؟

وجوابنا على هذا من وجوه :

أولا : لا ننكر أن هناك خلافات كثيرة وقعت حول فهم النصوص الشرعية من قرآن وسُنة .

ولكن ينبغى أن نفرّق فى هذا بين نوعين من الخلاف .

فهناك خلاف يقع عن نظر واجتهاد مجرَّدَيْن من الهوى ، خالصين من الغرض،

---

(١) سورة الحاقة : آية ٤١ — ٤٣

(٢) سورة يس : آية ٦٩

(٣) سورة الشعراء آية ٢٢٤ — ٢٢٦

وإنما يُبتغَى بهما وجه الحق ، والحق وحده ، دون أن يكون من وراء ذلك دوافع شخصية أو طائفية ، أو حزبية .

والخلاف الذى يقع فى هذا المجال ، ليس فى الحقيقة خلافاً بغيض الوجه، مكروه الصورة ، بل هو خلاف مبارك الطلعة ، ميمون النقيبة ، إذ كان من شأن هذا الخلاف الواقع فى دائرة الحق ، أن يوسِّع من تلك الدائرة ، وأن يسع طاقات الناس ، ويحتملهم بظروفهم وأحوالهم ، من غير أن يفتنهم أو يحرجهم ، ومن غير أن يحملهم جميعاً على خيط أحدّ من السيف، وأرق من الشعرة — كما يقولون .

كان من روعة التشريع الإسلامى ودقته ، وإحكامه ، ويسره — أن جاء فى هذا الأسلوب المعجز ، الذى يتسع منطوقه لمفاهيم متعددة ، متقاربة أو متباعدة ، دون أن يكون فى أى منها خروج على دلالات الألفاظ ومفاهيمها ، كما استعملها العرب فى شعرهم ونثرهم . . وهذه خِصِّيصة من خصائص اللغة العربية ، التى تخيرها الإسلام من بين اللغات جميعها، لحمل رسالته . وهى إعجاز من إعجاز القرآن، بل هى وجه بارز من وجوه إعجازه !

والخلاف الذى وقع بين المذاهب الأربعة هو خلاف من هذا القبيل ، الذى يحتمل فيه النص أكثر من مفهوم . . دون أن يكون فى أى مفهوم فُهِمَ عليه؛ خروج على أصل من أصول الشريعة ، أو مصادمة لنص صريح من نصوصها .

وهذا الخلاف فيه توسعة على الناس ، ولهذا عدّه المسلمون بابا من أبواب الرحمة، التى هى أصل من أصول دينهم ، ولم يروه سبب فرقة أو عداوة .. فكل وجه من وجوه الرأى المختلفة ،هو طريق مستقيم إلى الحق ، ومنهج قاصد إليه .

ومن أجل هذا ، لم يكن بين أتباع المذاهب الأربعة من مباغضة أو مباعدة، إلا حين يخيم الجهل على الناس ، أو تستغلظ فى نفوسهم نوازع التعصب الأعمى، الذى يملك عليهم أمرهم فى كل مجال . . فى السياسة والعقيدة .. على السواء .

ولهذا أيضاً كان كثير من كبار العلماء والفقهاء يتمذهب بأكثر من مذهب. بل كان بعضهم يتمذهب بالمذاهب الأربعة جميعاً . .

يقول المستشرق « جولد تسيهر » فى كتابه : « العقيدة والشريعة فى الإسلام » ، فى صدد هذا الخلاف المذهبى بين المجتهدين : « وقد اقتنع هؤلاء الرجال العمليون من أول الأمر بأنهم جميعاً على الحق ، وأنهم يخدمون مبدأ واحداً ، وعلى هذا الأساس كانوا يتبادلون الاحترام الواجب .

« وفى النادر أن يقع بين هؤلاء المغلوبين المبالغين فى الغيرة لهذه المذاهب أحكام قاسية .

« ولم يظهر التعصب المذهبى إلا عندما ازداد العُجب عند الفقهاء ، الأمر الذى كان موضع لوم أهل الجِدّ منهم ..

ثم يقول :

« وعلى العموم فقد طَبَع بالتسامح بين الجميع هذا الحديث : « اختلاف أمتى رحمة » .. وبيدنا من الأدلة ما يؤيد أن هذا المبدأ ، إنما يمثل وجهة التوفيق ضد الهجمات ، التى وجهها العدو فى الداخل والخارج ، لهذه الأعمال الفقهية المختلفة فى أشكالها غير القاطعة .

ثم يقول أيضاً :

« وقد بقى إلى يومنا هذا الاعتقاد السائد بأن الأعمال المتخالفة للمذاهب الفقهية يجب الاعتراف بأنها كلها مستحقة للتصديق على التساوى ، ما دامت ترجع إلى تعاليم الأئمة وأعمالهم ، أولئك الذين أجمع المسلمون على الاعتراف بإمامتهم وحدها ، حتى كان الانتقال من مذهب إلى آخر فى سبيل أغراض تراعى — أمراً سهل الحصول ، ولا يستدعى تغييراً فى الأعمال الدينية ، ولا يرتبط بشكل معين من الأشكال » .

ونقول مع هذا : إنه ليس ، صحيحاً أن تسليم المسلمين للمذاهب الفقهية بأنها مستحقة التصديق على التساوى ، لأنها ترجع إلى تعاليم الأئمة وأعمالهم ، وإنما كان التسليم لهذه المذاهب لأنها جميعها ترجع إلى الكتاب والسنّة ، وإلى ما عند المجتهدين من نظر إليها ، وفهم لها .

ويتابع « جولد تسيهر » الحديث فيقول : « ويستطيع أن يتمذهب الشخص فى نفس الوقت بمذاهب مختلفة . . وكان « محمد بن خلف » أحد علماء القرن الخامس الهجرى (١١٣٥ م) يلقب بلقب :« حنفش » لأنه غيّرمذهبه ثلاث مرات فى وقت قصير ، فكان« حنبلياً » ، ثم « حنفياً » ، ثم « شافعياً »،وقداختصرت فى لقبه أسماء هؤلاء الأئمة ! !

ثم يتحدث عن « أحمد بن عبد الحليم الدمنهورى» (١١٩٢ م »بأنه كان يفتى على المذاهب الأربعة ، وقد كتب على بعض كتبه إلى جوار اسمه : الحنفى ،المالكى، الشافعى ، الحنبلى .. ولم يجد أحد أن فى ذلك غضاضة ،أو أنه مخالف للقواعد ووجه الصواب » .

هذا ، وننبه إلى أن هذه الخلافات التى وقعت بين أصحاب المذاهب الأربعة لم تقع بحال أبداً فى مجال الأصول العامة للشريعة ، وإنما فى الفروع ، والجزئيات ، التى لا يمكن للتشريع العام ضبطها وحصرها .

وننبه أيضاً إلى أن تأويلات النصوص الشرعية وتفسيراتها — مع احتكامها إلى الوضع اللغوى — تستند أولا وقبل كل شىء إلى النيّة ، التى يعدُّها الإسلام ملاَك كلّ قول أو عمل ، وفى هذا يقول النبىّ الكريم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

فإذا خلصت النية لطلب الحق ،وجانبت الهوى والغرض ، كان كل ما يرد من صاحبها طيباً مقبولا ، ولو جانب الصواب !

فمن صحب تلك النية الطيبة السليمة فى فهم نص من نصوص الشريعة ، وكان من أهل العلم والنظر — ثم أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران . . سواء هذا فى فهم النص ، أو فى تطبيقه !

ثانياً : أن الخلافات الدينية التى قامت على الأهواء والأغراض تحت ظروف سياسية ، أو اجتماعية ، أو عقائدية — لا يمكن أن تحسب على الإسلام ، ولا ينبغى أبداً أن تضاف إليه ، وإنما هى لحساب أصحابها ، ولحساب ما يعملون له ، وليس للإسلام ، ولا لشريعة الإسلام شىء منها .

فكل مذهب ، أو نحلة ، أو عقيدة ، خرجت على مفاهيم النصوص الشرعية كما يعطيها اللسان العربى ، وكما يفهمها عليه أهل هذا اللسان ، هى مذاهب باطلة تمككت بالإسلام ، لتحتمى به ، ولتضلل وتخدع تحت رايته ، وما هى من الإسلام ، ولا شريعة الإسلام فى قليل أو كثير . .

فإذا أسقطنا هذه النزعات المنحرفة ، وتلك المعتقدات الفاسدة من حساب الإسلام، وجدنا الخلاف الذى وقع بين علمائه وفقهائه خلافاً عن اجتهاد ، كاجتهاد كل ذى عقل، فى مواجهة أى قول أو عمل ، لحسابه وخاصة نفسه .

نستطيع بعد هذا أن نقرر أن النصوص التى حملت شريعة الإسلام ، سواء ما كان منها فى القرآن الكريم ، أو فى الأحاديث النبوية — هذه النصوص تحسب من خصائص الشريعة الإسلامية ، ومن سماتها البارزة فى اليسر والرفق والرحمة ، حيث حفظت أحكام الشريعة من أن يعبث بها ذوو الأهواء ، ويتّجر بها المحترفون ، للتسلط على الناس وقهرهم ، وحيث أعطت الناس جميعاً وجهاً واحداً للدين الذى يدينون به .. يرونه بأعينهم ، ويصافحونه بأيديهم .. ليس بينه وبينهم حاجب ، أو سلطان !

وفى الإسلام كلمة رائعة ، غفل عنها كثير من الباحثين فى الإسلام ، من أتباعه وغير أتباعه . . وهى كلمة « الطهارة » أو « التطهير » وما يرادفها . . كالزكاة ، والتزكّى !

فلقد رصد الإسلام عبادات وأعمالاً وظيفتها تطهير الإنسان ، وتزكيته ، وإزالة ما علق به من آثام ، انزعج بها ضميره ، أو غامت فيها نفسه ، أو تبلدت منها مشاعره !

فما أكثر ما يواقع الإنسان الشر ، أو يقترف الإثم ، ثم يصحو ضميره ، وتستيقظ روحه . . ثم يحاول أن يخلّص نفسه من هذا الوحل الذى تلطخ به ، ويعود إلى السلامة التى كان عليها من قبل ، فلا يجد إلى ذلك سبيلا ، وحينئذ يستسلم لما هو فيه ، ويُسلم وجوده لهذا الطين ، يغوص فيه إلى أن يختنق !

وفى الإسلام يجد المسلم قوارب النجاة تخفّ إليه ، وأطواق الإنقاذ بين يديه ، كلّما وقع فى الإثم ، أو غرق فيه !

فالصلاة . . طهارة روحية ، وغَسْل داخلى . . على حين أن ما يسبقها من اغتسال ، ووضوء ، هو طهارة جسدية ظاهرية . . تمّهد لهذا التطهير الداخلى . .

وبهذا التطهير الروحى ، والجسدى ، تقوم عملية تنقية كاملة للكيان الإنسانى كله . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وأَقِم الصلاة طَرَفَيِ النهارِ ، وَزُلَفاً من الليل . . إن الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئات[1] » . . ويقول سبحانه : « وأَقِم الصلاةَ إنّ الصلاة تَنْهى عن الفحشآء والمُنْكَر[2] » .

ويقول النبى الكريم : « مَثَلُ الصلوات الخمس كمثل نهرٍ غَمْرٍ[3] جارٍ على باب أحدكم ، يغتسل منه كل يوم خمس مرات » « عن صحيح مسلم » . . وفى البخارى

(١) سورة هود : آية ١٤٤

(٢) سورة العنكبوت : آية ٤٥

(٣) نهر غمر : كثير الماء

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات . . هل يبقى من دَرَنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ! قال : فذلك مثل الصلوات الخمس؛ يمحو الله بهنّ الخطايا » . . وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما مِنْ مُسْلِم تحضره صلاة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لِما قبلَها من الذنوب مالم تُؤْتَ كبيرة ، وذلك الدهرَ كلَّه[1] » .

هذه هي الصلاة في الإسلام ،وتلك هي آثارها في تطهير الخطايا،وغَفْر الذنوب.

والزكاة . . لفظها الشرعي منقول عن اللفظ اللغوى ، ومدلولها واحد ، وهو « التطهير »[2]وفي هذا يقول الله تعالى :« خُذْ من أموالِهم صدقةً تُطَهِّرُهُمْ ، وتُزَكِّيهم بها[3] » . . ويقول سبحانه : « وسَيُجَنَّبُها الأتقى ، الذى يُؤْتِي مَالَه يتزكَّى [4] » .

والصوم . . وقاية وتحصين ضد الموبقات والمهلكات . . وفي هذا يقول النبيّ الكريم « الصّوم جُنَّة »، أى وقاية وحماية ، ويقول : « من لم يَدَعْ قولَ الزّور والعملَ به ، فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه » .

وفي الحج . . يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه . . « من حجّ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسق رجع كيوم ولدته أمّه » .

فهذه المطهرات التي يضعها الإسلام بين يدى المسلم ، هي رَحمَات من عند الله ، وهي كلّها في متناول الناس جميعاً . . لا يعجز أحد عن الوصول إليها ، والتمرّس بها ، والحصول على ثمراتها . . إنه ليس لأحد قوامة عليها ، أو تصرف فيها ، وإنما هي حظ مشاع ومتاح للناس كلهم . . من أبرار وأشرار ، وأتقياء وأشقياء .

---

(١) صحيح مسلم

(٢) يقال : زكا الشيء يزكو إذا طاب ، ورائحة زكية : أى طيبة .

(٣) سورة التوبة آية ١٠٣ (٤) سورة الليل آية ١٧ ، ١٨

ثم هى مع هذا كله ميسورة مقدورة .. يأتى الإنسان منها ما استطاع ..
« لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها .. » ..

انظر .. التطهر بالزكاة مثلاً .

ما أيسَره ، وما أقربه ، وما أقل الإنفاق وأعظم الكسب .. !

يقول النبى الكريم : « تصدَّقوا ، ولو بشقٍّ تمرة » .. !

فمن ذا الذى لا يجد شِقّ التمرة هذه ؟

ومع هذا فقد عرف الإسلام من الناس مالا يعرفون من أنفسهم ..
فلقد يجد الإنسان قناطير مقنطرة من الذهب والفضة .. ولكنه يضنّ ، حتى بشق التمرة !

أفيوصَد باب التطهير فى وجه من تغلبه شهوة الشح والحرص ؟

كلا ..

فإن رحمة الله أوسع من أن تضيق بأحد !

« الكلمةُ الطيبةُ صدقة » ! هكذا يقول من لا ينطق عن الهوى .

وهكذا يفتح الإسلام أبواب التطهير على مصاريعها .. فيدخل المرء إلى رحمة الله من أى باب شاء .. !

ثم ماذا ؟

أوراء هذا شىء ؟

نعم .. وأشياء .. فللإسلام خزائن لا توصد أبوابها ، ولا تنفد خيراتها ..
وللإسلام عينٌ تنفذ إلى الصميم من مداخل النفس الإنسانية ، وتستولى على أعماقها ..

وانظر ..

الكلمة الطيبة . . قد تضِنّ بها بعض النفوس ، وتأبى أن تتعامل بها فى سوق الحياة . . تماماً كما لا يحلو لبعض الأشقياء إلا التعامل بالنقد الزائف !

ولهذا جاءت رحمة الله الواسعة لتشمل هؤلاء الذين يضنّون على أنفسهم أن ينالوا هذه الرحمة بكلمة واحدة . !

استمع إلى نداء الحق سبحانه . . لهؤلاء الشاردين ، السّادرين فى غيّهم . . « قل يا عبادِىَ الذينَ أسرفوا على أنفسِهِمْ ، لا تقنَطوا من رحمة الله . . إنّ الله يَغفِرُ الذّنوبَ جميعاً . . إنّهُ هو الغفور الرحيم . . وأنِيبُوا إلى رَبِّكم ، وأسلِموا له[1] » .

رضيتُ بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً !

« وأَنيبُوا إلى ربِّكم ، وأسلِموا له . . من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » .

فالإيمان بالله ، والإنابة إليه ، والإسلام له ، هو رأس هذه الأعمال الصالحة كلها ، وهو الذى يرفعها إلى منازل القبول والرضا . . لا يصحّ منها شىء إذا لم تصدر عن قلب مؤمن بالله ، إيماناً يفرده بالوحدانية ، ويخصّه بالكمال المطلق !

ذلك أن الإيمان بالله شهادة قائمة للإنسان — عند نفسه ، وعند المجتمع الذى يعيش فيه — أنه ذو عقل ، يميزُ الخير من الشر ، ويفَرِّقُ بين الحق والباطل . . فهو بهذا العقل عرف الله ، ومن ثَمَّ عرف الأعمال الصالحة وأداها . . وإذن فهو أهل لأن يُجزى عليها الجزاء الأَوْفى . . !

أما من لم يفتح له عقلُه طريقاً إلى الله ؛ فهو أعمى .. لا عقل له .. أو لا اعتداد للعقل الذى معه .. لأنه عمى عن الحقيقة الكبرى ، وضل الطريق إليها .. فكيف

---

(١) سورة الزمر : آيتا ٥٣ ، ٥٤

يمكن أن يهتدى إلى حق بعد هذا ؛ وكيف يتعرف إلى خير بعد أن حاد عن الطريق المتجه إلى الخير ؟

« فماذا بعد الكفر إلا الضلال » ؟

إن الذى لا يعرف الله ، ولا يهتدى إليه قد أقام على نفسه شهادة بأنه ليس هذا الإنسان الذى اختصه الله بالعقل والبصيرة ..

ولهذا أهدر الإسلام آدمية هؤلاء الذين عميت بصائرهم ، وذهبت عقولهم فأنكروا الله ، وكفروا به . . وقد ألحقهم الله سبحانه بالأنعام ، وجعلهم فصيلة من فصائلها . . يقول سبحانه : « أم تحسبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون . ؟ إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »[١] . . ويقول جل شأنه : « أَلَهُمْ أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدٍ يَبطِشون بها ، أم لهم أعينٌ يُبصرون بها . . أم لهم آذان يسمعون بها»[٢] .

نعم . إنهم أضل من الأنعام ، لأن الأنعام لها فطرة تستهدى بها ، إذ حُرمت هذا العقل الذى يستهدى به الإنسان . . أما هؤلاء وقد حُرموا العقل فقد حرموا كل شىء . . حتى فطرة الأنعام !

ولهذا أيضاً أسقط الإسلام كل عمل يقع من هؤلاء الكافرين بالله . . حتى ولو كان ما يحسب فى الأعمال الصالحة . . لأنه صادر عن غير قصد ، ولا نية ، ولا فهم . !

يقول الله سبحانه :«والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعةٍ يحسبهُ الظمآنُ ماء حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً . . »[٣] ويقول سبحانه : « مثلُ الذين كفروا بربهم

---

(١) سورةالفرقان : آية ٤٤

(٢) سورة الأعراف:آية ١٩٥

(٣) سورة النور : آية ٣٩

أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريحُ فى يومٍ عاصفٍ ،لا يَقدِرونَ على شىءٍ مما كسبوا[١] »

فهذا إهدار لكل عمل يعمله الكافر بالله .. ما عمل من خير أو سوء ..

وذلك ما تنطق به الآية الكريمة : « وقدِمنا إلى ما عَمِلوا من عملٍ فجعلناهُ هباءً منثوراً »[٢]

فكما يَجُبُّ الإسلام ما قبله ، كذلك يحبط الكفر كلَّ مايُبْنى على أرضه ! !

أما الجريمة التى يُدان بها الكافرون يوم القيامة فهى « الكفر » .. وليس بعد الكفر ذنب !

ولا نحسب أن الإسلام قد باعد بين المسلمين والكافرين هذا البعد ، فحرّم على المسلم طعام الكافر ، ونكاح الكافرة .. وما إلى هذا ، على حين أحل المسلم طعام أهل الكتاب ، كما أحل لأهل الكتاب طعام المسلم ، وكذلك أحلّ للمسلم نكاح الكتابية — ما نحسب أن الإسلام فعل هذا إلا لأنه يرى أن الكافر بكفره قد شهد على نفسه أنه غير عاقل ، كما شهدت الدنيا كلها عليه بأنه على غير عقل .. وإذن فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، وما كان للإنسان أن يتعامل مع الحيوان معاملة مخالطة ، ومزاوجة ، تأنس فيه النفس إلى النفس ، وترتبط المشاعر بالمشاعر ، ويتسق العقل مع العقل . !

* * *

ومما يدخل فى باب التطهير والتزكية ، ويُحسب من الوجوه البارزة فى يسر الشريعة الإسلامية وسماحتها ، وإنسانيتها — « التوبة »،التى غفل عنها أيضاً كثير من الدارسين للشريعة الإسلامية ، والناظرين أحكامها .

ولأهمية هذا الموضوع،وللوفاء بحقه من النظر والتجلية،فإنا نفرد له مبحثاً خاصا به .

---

(١) سورة إبراهيم : آية ١٨

(٢) سورة الفرقان :آية ٢٣

الفصل الرابع

التوبة فى الإسلام

« والتوبة » — فيما نقدّر — أمر فريد ، انفرد به الإسلام بين التشريعات السماوية والوضعية جميعاً ، حيث جاء بها الإسلام على تلك الصورة التى أقامها عليها ، والتى مكّن المسلم منها: فما عرفت الديانات — أرضية أو سماوية — أسلوباً كهذا الأسلوب، الذى جاء به الإسلام، لتطهير المذنبين، ورفع الإصر والحرج عن الآثمين !

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة واقعية ، بعيدة عن أحلام المثاليات التى يعيش فيها الفلاسفة والشعراء ، وأصحاب المدن الفاضلة .. بل إنه يرى الإنسان كما هو ، بخيره وشره ، وهداه ، وضلاله ، وإحسانه وإساءته .. بل إنه يقدّر أن جوانب الشر والضلال ، والإساءة ،أقوى فى الإنسان من جوانب الخير والهدى والإحسان .

فإذا لم يكن إلى جانب هذا الإنسان — وذلك حاله —قوة تسنده إذا سقط ، وترده إذا شَرَد ، وتهديه إذا ضل — ما استقام له حال ، ولا انتظم له شمل ، ولا صح له وجود ، ولكانت أية عثرة يعثرها داعية إلى أن تُلقى به فى هاوية لا قرار لها .

نظرة فى مواجهة الديانات الأخرى :

يقرر الإسلام أن الإنسان يولد طاهراً نقياً .. إنه صفحة بيضاء ، لم يُخَطّ عليها شىء بعد !

والإنسان فى سيره مع الحياة وفى تمرّسه بها ، هو الذى يعطى هذه الصحيفة البيضاء صفتها بعد ذلك . . فقد يخط عليها خطوطاً من نور ، أو يسوّد وجهها بالوحل والطين .. !

يقول النبىّ الكريم : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، أو ينصرانه ، أو يمجّسانه . . كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء .. هل تجدون فيها من جدعاء ؟[1] »

فالفطرة التى فطر الله الناس عليها ، يولد بها كل مولود .. ومن شأنها أن تحتفظ للإنسان بإنسانيته الكريمة الطاهرة إلى أن يبلغ سن الرشد ، . وهنا يتولى قيادة نفسه ، فإما أن يستقيم مع الفطرة ، ويجرى على وحيها ، وإما أن ينحرف بها ، ويفسدها ..

أما الكنيسة المسيحية فإنها ترى فى الإنسان عكس هذا تماماً . ترى الإنسان يولد والخطيئة ملء إهابه ، ومَسْلَك عروقه . . إن الناس كلهم - فى نظر الكنيسة - هم أبناء الخطيئة الكبرى ، وبذرة الثمرة المحرمة التى أكل منها الأب الأكبر آدم ، عاصياً بذلك أمر ربه ، خارجاً عن طاعته !

التعميد :

وإذا ولدت الكنيسة الإنسان هذا الميلاد المعطوب ، ودمغته بهذا الحكم القاسى ، فإنها جاءت إليه عن طريق آخر ، تدعوه إلى باب فسيح من المغفرة وتطهير الذنوب . !

فقد فتحت الكنيسة أبوابها لتعرض على الناس وسائل التطهير لأرواحهم ، والخروج من آثامهم . .

---

(١) الجمعاء : التامة الخلق .. والجدعاء : الناقصة الخلقة .

وأول ما يجب على من يدخل فى الكنيسة ، ويصبح من أتباعها أن « يعمّد » فى أيام ميلاده الأولى ، وأن يغسل بماء المعمودية . . وهذا الماء قادر على أن يرفع عنه وَضَرَ الخطيئة التى ولد بها ، وأن يطهره منها . . فلقد أصبح الأمر هيناً بعد أن قدّم المسيح دمه قرباناً لله ، ليمحو عن أبناء آدم ميراث الخطيئة الذى اقتسموه بينهم . . وغسلة واحدة بماء المعمودية تكفى لمحو الآثار الباقية من تلك الخطيئة !

صكوك الغفران :

وهذه الصكوك التى تعطيها الكنيسة للخطاة والمذنبين ، تقابل « التوبة » المعروفة فى الإسلام ، والتى سنعرض لها بعد قليل !

وعملية صكوك الغفران هذه ترجع إلى نص ورد فى الإنجيل على لسان المسيح عليه السلام . .

فقد ورد فى إنجيل « متى » أن المسيح غفر الخطايا ، وأنه منح الرسل هذه القدرة نفسها على تكفير الذنوب وغفرانها . .

يقول السيد المسيح مخاطباً « بطرس » الرسول : « وأنا أقول لك أيضاً : « أنت بطرس » ، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى . . وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . . فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات ، وكل ما تَحُلّه على الأرض يكون محلولاً فى السموات »[1] .

وتقول الكنيسة شرحاً لهذا النص : « إن القدرة على غفران الخطايا قد انحدرت بالتوارث : من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات . .

(١) انجيل متى الأصحاح السادس عشر : ١٩ ، ٢٠

ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين فى القرن الثامن . . واستبدلت بطريقة الاعتراف العلنى التى جرت عليها العادة فى أيام الكنيسة الأولى طريقةُ الاعتراف السرّى الفردى . . حتى لا تُمَسَّ كرامة بعض الكبار ، ولا تجرح كبرياؤهم !

« وتشجيعاً لمن يريدون التوبة ، وحمايةً لهم من القصاص المدنى ، وضع خاتم على كل توبة بمفردها ، وكان معنى هذا الخاتم أنه لا يجوز لقَسّ أن يفشى ما اعتُرِف له به .

« ونُشرت منذ القرن الثامن قوائم تحدّد الكفارة القانونية لكل مذنب ، وأهمّها الصلوات ، والصيام ، والحج ، وإخراج الصدقات ! »[٢] .

واعتراف المذنب بذنبه إلى جهة يطمئن إلى عطفها عليه ، وحفظها اسرّه — هذا الاعتراف لا شك يخفف كثيراً من وخزات الضمير ، التى يجدها المذنب فى أعقاب فَعْلته ، لما فيه من معنى العقوبة التى يعاقب بها المرء نفسه ، بكشف سرّها ، وفضح المستور منها .

ولكن هناك عواقب وخيمة تترتب على مثل هذا الاعتراف ، على الرغم مما يبدو فى ظاهره من آثار حسنة ؟

ذلك أنه كثيراً ما يصبح مثل هذا الاعتراف — مع تكراره — عادة وعملا آليا ، يلجأ إليه المذنب ليُلقى بكل خطاياه عن كاهله ، كما يلقى حُزمة من حطب . . ثم ينطلق خفيف الخُطا إلى مواطن الخطيئة ، ليحمل منها ما يحمل ثم يلقى ما حمل . . وهكذا تصبح الخطيئة مادة يدمن عليها الخطاة ، كما يدمن شارب الخمر على الخمر ، أو كما يألف المجرمون وجه السجان وجدران السجون !

ثم انظر من جهة أخرى إلى من بيدهم غفران الذنوب . . إنهم بشر ! !

---

(١) قصة الحضارة : الجزء الخامس من المجلد الرابع ص ١٥

ولهذا ، فإن لك أن تسأل : كم من رجل فيهم لم ينحرف عن الجادة ، ولم يتخذ من هذا السلطان الذى يقف فيه موقف الإله — مسرحاً لأهوائه وشهواته ؟

يقول ستيوارت ميل فى كتابه قصة الحضارة :

« وقد بذلت الكنيسة عدة محاولات لتقليل هذه المساوىء — يقصد مساوىء الاعتراف والغفران — منها :

١ — حرّمت على رؤساء الأديرة حق إصدار صكوك الغفران .

٢ — فرضت بعض القيود على المطارنة فى إصدارها .

٣ — ندد مجلس « ينز » الدينى فى عام ١٢٦٨ بكثير من موزعى هذه الصكوك ، ووصفهم بأنهم كاذبون أشرار . . يساومون على التطهير بأكثر ما يستطيعون الحصول عليه من المال ، وأقل ما يقدّمون من الأدعية والصلوات ! »[١]

الحرمان :

وكما جعلت الكنيسة إليها غفران الخطايا جعلت إليها كذلك تجريد الناس من الفضائل ، ونبذهم بالعراء فى وحشة مذلة قاتلة . . لا يلقاهم أحد إلا بالازدراء والاحتقار .

وحق الحرمان هذا اعتداء صارخ على حرمة الإنسان ، وتضييع لذاتيته ، وإهدار لوجوده . إنه قَتْلٌ عن عمد ، بل هو قتل بطىء ، يموت فيه الإنسان كل يوم مرات . . وهو أشد أنواع القتل ، وأقسى ما يقع على الإنسان من شرٍّ فى هذه الدنيا . .

ولقد أساء أصحاب هذا الحق من رجال الدين استعماله ، — وهذا أمر متوقع

(١) قصة الحضارة — الجزء الخامس من المجلد الرابع ص ١٨

لابد منه فى مجال كل سلطة بشرية — فلم يحرموا المفسدين ، والمبطلين ، وأصحاب البدع ، بل صار سلاحاً يشهره البابوات فى وجوه الملوك والأمراء ، وأصحاب السلطان . . ينصرون به فريقاً على فريق ، أو جبهة على جبهة ، دون أن يكون للسلوك الدينى اعتبار فى إصدار هذا الحكم فى أغلب المواقف .

هذا وفى الشريعة الموسوية شيء من هذا ، فى مجال الغفران والحرمان معاً[1] .

الغفران والحرمان . . فى الشريعة الإسلامية :

والشريعة الإسلامية — من بين الشرائع السماوية الثلاث — هى التى لم تجعل الغفران ، والحرمان إلى يد أحد من الناس • حتى النبىّ صلوات الله وسلامه عليه . . وهو مبعوث السماء برسالة الإسلام !

إن نبىّ الإسلام لا يملك تطهير نفسه ، ولا غفران ذنوبه ، وإنما هو شأنه شأن عباد الله جميعاً ، معرّض لرحمة الله ومغفرته ، وإن كان أقرب الناس جميعاً إلى رحمة الله ومغفرته . . وفى ذلك يقول الله تعالى : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » . . ويقول : « ليغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخرّ . . » فمغفرة الذنوب لله وحده . و « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . . فمن كان أكثر إحساناً كان أقرب إلى مواقع رحمة الله ، وأدنى إلى الإصابة منها . . والرسول صلوات الله وسلامه عليه سيد المحسنين ، وإمام المتقين . .

فالناس كلهم — فى شريعة الإسلام — سواء أمام الخالق جل وعلا — أقربهم إليه ، وأولاهم بفضله ومغفرته أكثرهم إحساناً وتقوى . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكيف يكون مفهوم الشريعة الإسلامية فى هذا الأمر على غير هذا ؟ كيف ونبىّ الإسلام ينطق بما أوحى إليه من ربه : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا .

(١) انظر فى هذا كتابنا : قضية الألوهية — الجزء الثانى ص ٣٩٧

إلا ما شاء الله[1] » .. ويتحدث إلى أصحابه فيقول: « لا يدخل الجنة أحد بعمله » .. قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؛ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » . ويتحدث إلى ابنته فاطمة ، وإلى عمته صفيّة ، وإلى عمه العباس ، فيقول : « يا فاطمة بنت محمد ، يا صَفيّة عمة رسول الله ، ياعباس عم النبىّ : لا أملك لكم من الله شيئاً .. »

نقول : ذلك هو موقف الشريعة الإسلامية من الناس جميعاً ، أخياراً وأشراراً .. باب التوبة مفتوح لهم جميعاً .. لا يُردّ عنه أحد ، ولو كانت ذنوبه ملء الأرض .. « ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » !

وليست التوبة — فى الإسلام — عملا يتكلّف له الإنسان مالا أو جُهْدًا ، أو يقدم بين يديه طقوساً ومراسم معينة ، وإنما هى كلمة خاشعة ضارعة ، تتحرك من ضمير متكرّه للإثم ، وتنبعث من قلب خافق بالخشية والندم ، يتجه بها الإنسان بكيانه كله إلى الله ، فيما بينه وبين خالقه .. لا رقيب ولا حسيب ، إلا النية المنعقدة على الندم ، وإلا العزم الموثّق على هجر الإثم ، وترك معاودته مرة أخرى .. فإن ضعف وعاد ، رجع إلى ربه من قريب فتاب وأناب .. ليتطهر من جديد ..

« إن الله يحبُّ التوّابين ، ويحب المتطهرين » .

* * *

(١) سورة الأعراف : ١٨٨



الباب الخامس

مفاهيم خاطئة



نحاول فى هذا الباب أن نعرض القضايا الإسلامية التى كثر حولها لغط اللاغطين ، وهذْر الهاذرين ، فى مجال الاستخفاف بالإسلام ، والتشويش عليه ، حتى تقوم من ذلك حجة لأولئك الذين يزهدون فى الدين ، ويعطونه ظهورهم !

ولأصحاب تلك النظرات المنحرفة عن الإسلام مقولات كثيرة يبررون بها لأنفسهم ، أو لمن يدعونهم إلى الرجوع إلى الدين — هذا الموقف المحادّ له ، أو المنعزل عنه . !

وتكاد هذه المقولات جميعها تنحصر فى دعوى واحدة ، يدّعونها على الإسلام ، ويرجعون إليها قُصور تعاليمه وعجزها عن الاستجابة للحياة الإنسانية المتطورة . .

وهذه الدعوى هى أن الإسلام — إن يكن ديناً — فهو دينٌ نبت فى بيئة خاصة ، طابعها البداوة الجافية ، والجدب الممسك بكل شىء هناك . !

وطبيعى — فى هذا الفهم — ألا تجىء أية دعوة إصلاحية فى هذه البيئة إلا مقدورة بقدرها ، محسوبة بحسابها . . وإلا انقطع بينها وبين المدعوين إليها كل سبب من شأنه أن يَصِلَهم بها ، أو يجمعهم عليها . !

وعلى هذا . . فإن النجاح الذى صادفته الدعوة الإسلامية فى أول أمرها ، إنما كان بسبب ملاءمتها للحياة التى التقت بها ، فى الجزيرة العربية ، وتجاوبها معها ، ووقوفها عند حدودها .

هكذا ، وبكلمات محفوظة مرددة ، يقايس القوم بين تعاليم الإسلام وبين حياة البادية ، فى جفافها وجفائها وجدبها ، وخشونتها ، وجهلها ، وبدائيتها ، التى لا تبعد الإنسانية فيها كثيراً عن عالم الحيوان الذى يعيش معها . .

فالقرآن . . فى أساليبه ، وأخيلته ، وأخباره ، وقصصه ، صورة لحياة البادية ،

وما يدور فى أخيلة القوم ، وما يجرى فى تفكيرهم ، وما يداعب أحلامهم !

والتعاليم ، والأحكام ، والآداب ، والأخلاق . . التى حملها القرآن إلى القوم هى مما دعت إليه ضرورات الحياة هناك ، وأوجبته ظروفها وأحوالها . . ! !

وقد كان للمستشرقين دور كبير فى إذاعة هذه المقولات ، والترويج لها بين المسلمين ، والتسلط بها على عقول كثير من الشبان الذين تلقوا دراساتهم فى الجامعات الأوربية ، والذين خدعتهم الحياة هناك ببهرجها وأضوائها الكاذبة ، عن أن يأخذوا هذه المقولات مأخذ الشك والحذر ، وأن يراجعوها على حقائق الإسلام . ويعرضوها على تعاليمه وأحكامه .. ولكن أعجلهم حبّ اللّحاق بموكب المدنية الغربية عن النظر فى شىء من هذا ، وقَصَروا نظرتهم على واقع الحال ، بين المجتمع الإسلامى ، والمجتمع الأوربى ، وما بين المجتمعين من بُعد بعيد ، فى مظاهر الحياة المادية ، وما يملك القوم هناك من أسبابها ، التى مكنت لهم من إقامة هذه الحياة ، وما يحفّ بها من ألوان المدنية والحضارة ! وقد وجدوا فى هذه المظاهر الشاهد الذى لا يُردّ . . فقبلوا شهادته على الإسلام ، وعلى المسلمين جميعاً .

وقد نقلنا من قبل فى حديثنا عن : « الرسالة الخالدة » بعض مقولات أحد المستشرقين ، وهو المستشرق النرويجى « جولدتسيهر » وإنه لا بأس من أن نعيد عرض بعضٍ آخر من هذه المقولات هنا ، لنكشف فيها وجوهاً أخرى من النظرات الزائفة التى ينظر بها المستشرقون إلى القرآن .

يقول « جولدتسيهر » فى حديثه عن القرآن ، وفى التعريض به ، كدستور يحكم مجتمعاً يدين به :

« ومن الخطأ الخطير أن يُنسب إلى القرآن أكبر القيم فى بيان طابع الإسلام بوجه عام

كما أننا من باب أولى، لا نستطيع أن نؤسس حكمنا على الإسلام مستندين إلى هذا الكتاب وحده لدى الأمة الإسلامية !! »[١].

والذى يريد أن يقرره « جولدتسيهر » هنا هو أن القرآن ليس هو الذى حكم المسلمين ، وأنه لم يستطع بأحكامه التى جاء بها أن يواجه الحياة الإسلامية كلها ، وأن يملأ الجوانب التى فيها ، وأن يسد الحاجات التى جدت فى المجتمع الإسلامى . . وأن المسلمين قد اضطروا إلى أن يخرجوا نصوص الكتاب تخريجاً قائماً على التعسف ، ليأخذوا منه الأحكام التى تواجه متطلبات الحياة !

وإذن — فهذا الفقه الذى أسست عليه المذاهب الأربعة ، والتى ارتضاها المسلمون وأخذوا بها — ليست كلها من معطيات القرآن الكريم ، وإنما يرجع معظمها إلى مفاهيم خاصة للفقهاء والمجتهدين ، أضافوا إلى القرآن ، وخرجوها عليه . .

هكذا يريد « جولدتسيهر » أن يقول فى شأن القرآن ، وأن يفتح أبواباً للتشكيك فى الدين الذى يدين به المسلمون ، وأنه ليس جميعه ، أو معظمه من معطيات الكتاب الكريم ، وإن ما يدين به المسلمون إنما هو من صنع الفقهاء والمجتهدين ! !

ومن مقولات جولدتسيهر فى هذا أيضاً ، قوله :

« وهكذا يظهر غير صحيح ما يقال من أن الإسلام فى كل العلاقات : « جاء إلى العالم طريقةً كاملة » . . بل على العكس . . فإن الإسلام والقرآن لم يتمما كل شىء ، وكان الإكمال نتيجة لعمل الأجيال اللاحقة . ! »[٢]

ويتدرج من هذا التلميح إلى التصريح . . فيقول :

« والقرآن نفسه لم يُعطِ من الأحكام إلا القليل ، ولا يمكن أن تكون

(١) العقيدة والشريعة لجولدتسيهر : ٤٤
(٢) المصدر السابق ص ٤

وأحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلها . . مما جاء من الفتوح . !

« فقد كان — يعنى القرآن — مقصوراً على حالات العرب الساذجة ، ومعنيًّا بها ، بحيث لا يكفى لهذا الوضع الجديد !! » .

هذا هو بيت القصيد !

القرآن ، أو بمعنى آخر — الإسلام، حال من أحوال البادية ، ونسج من نسجها، لا يصلح إلا لحياة البادية ، ولا يصلح عليه إلا من يعيش فيها !

يقول جولد تسيهر فى صراحة :

« والواقع أن هذا الكتاب — يعنى القرآن — لم يحكم المسلمين إلا فى خلال العشرين سنة الأولى من نموّه !

ففى خلال حياة الإسلام التاريخية كلها ، ظل القرآن فى رأى أتباع دين محمد، عملا أساسياً محترماً ، باعتباره موحًى به . . كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى حد لم يظفر به أى عمل من الأعمال الأدبية العالمية ! !

ثم يقول :

« ولكن بالرغم من أن الإسلام فى أطوار نموّه التالية قد اتخذ القرآن أساساً — وهو أمر طبيعى — وبالرغم من أنه كان يوزَن به جميع منتجات العصور المتأخرة، وبالرغم من أن كل شىء قد تَصوَّر على أنه متفق معه ، أو حُووِل تصور ذلك — بالرغم من هذا كله ، فإنه لا يمكن أن نتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن يكفى وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية ! »

وهذا كلام واضح صريح ، لا يحتاج إلى تعليق ..

القرآن ، لا يحمل معطيات الشريعة التى جاء بها، ولا يقدِّم للمعتدين متطلبات الحياة التى يريدون أن يحيوْها مع صحبتهم له ..

ثم يضرب الكاتب لهذا مثلا ، فيقول :

« إن الرسول نفسه قد اضطر ، لتطوره الداخلى (كذا)، وبحكم الظروف التى أحاطت به، إلى تجاوز بعض الوحى القرآنى إلى وحى جديد فى الحقيقة ، وإلى أن يعترف، أنه ينسخ بأمر الله ، ما سبق أن أوحاه الله إليه ! !

« فإذا كان الأمر كذلك فى عصر النبىّ ،فمن الأولى أن يكون كذلك — بل أكثر من ذلك — عندما تجاوز الإسلام حدود البلاد العربية ، وتأهب لكى يكون قوة دولية!! »(١)

والشاهد الذى يقيمه الكاتب دليلا على ما يريد أن يُلقى به فى رُوع الناس ، من أن الرسول نفسه قد اضطر تحت وطأة الظروف ، وتطور الأحوال إلى أن يبدّل ويغير فى الأحكام التى أخذ المسلمين بها — هذا الشاهد ليس هنا مقام شهادته، ولا الموقف الذى يُطلب فيه . ! وذلك :

أولا : أن النبى عليه الصلاة والسلام كان الرسولَ بين الله وبين عباده ، يبلّغ ما ينزل إليه من كلمات الله إلى الناس . . فلا يتحرك حركة — فى مجال الرسالة — ولا ينطق بكلمة — فى محيطها — إلا عن وحى ، وعن أمر من رب العالمين . . « وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحىٌ يُوحى »(٢)

ثانيا : أن الرسالة الإسلامية فى عهد النبوّة كانت فى دور البناء والإكمال . . وكانت حياتها فى فترة النبوة أشبه بحياة الكائن الحى ، ينتقل من طور الطفولة ، إلى الصبا،والشباب ، والاكتمال . . إذ كان من تدبير الحكيم العليم أن تستكمل الرسالة الإسلامية وجودها كله فى حياة مبلّغها ، الذى حملها إلى الناس،وألا ينفصل عنها حتى تبلغ غايتها من الكمال ..

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام — لجولدتسيهر ص ٤١

(٢) سورة النجم آيتا ٣ ، ٤

وهذا هو الذى حدث فعلا ..

فما أن بلَغَت الرسالة الإسلامية غايتها حتى جاء الوحى السماوى مؤذنا بذلك فى قوله تعالى : « اليومَ أكملتُ لكم دينَكُمْ ، وأتممْتُ عليكم نعمتى ، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً »(١)

اليومُ .. واليومُ وحده ، الذى نزلت فيه هذه الآية ، هو الذى كَمُلَ فيه الإسلام ..

واليوم .. واليوم وحده .. الذى نزلت فيه هذه الآية ، هو الذى أتم الله فيه نعمته على المسلمين ، بكمال هذا الدين ، وبلوغه غايته ..

واليوم ، واليوم وحده .. الذى نزلت فيه هذه الآية هو الذى رضى الله فيه الإسلام ديناً للمسلمين .. إذ بلغ غايته من التمام والكمال .

وهذه الآية ، هى — على أصح الأقوال — آخر ما نزل من القرآن ، ولهذا بكى بعض الصحابة عند نزولها .. إذ كان ذلك — عندهم — إيذاناً بقرب فراق النبىّ لهم .. وقال قائلهم .. لقد نُعِىَ النبىّ إلينا فى هذه الآية .. وما مقامه بعدها فينا إلا قليل ! ! وقد كان .. فما أقام النبىّ الكريم بعدها إلا يسيراً ، حتى لحق بالرفيق الأعلى !

ثالثاً : وهذا النسخ الذى يقول به الكاتب ، ليس على الصورة التى تصورها ، من أنه نسخ لآيات الله القرآنية ، وإبطال لبعض الأحكام ، واستبدال غيرها بها .

وإنما النسخ الذى جاء فى قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو نُنْسِها نأت بخير منها أو مثلها(٢) » هذا النسخ الذى فهمه كثير من الناس هذا الفهم الذى يبطل بعض آيات القرآن ببعض — ليس مراداً به نسخ آيات من القرآن ، وإنما المراد به نسخ

---

(١) سورة المائدة : آية ٣ (٢) سورة البقرة : آية ١٠٦

القبلة التى كان عليها المسلمون، حين كانوا يصلّون إلى بيت المقدس، فأقام الله وجوههم إلى المسجد الحرام[1] !

أمّا ما يفهم من بعض آيات القرآن الكريم التى تواردت على حكم واحد، مع اختلاف فى صور الحكم فليس هذا من قبيل النسخ، وإنما هو من باب التدرج فى التشريع، والرفق فى أخذ الناس بالحكم المراد[2] .

* * *

هذه نظرة من النظرات المنحرفة، فى فهم الإسلام .. ليس صاحبها أولَ الناظرين هذه النظرة، وإنما سبقه إليها كثيرون، وتابعه أيضاً فيها كثيرون، ولهذا، فإننا سنكتفى بها كدليل على تلك النظرات المنحرفة الزائفة .

ولا نتكلف هنا الردّ على هذه النظرة فى مجالها العام الذى تنظر به إلى الدين الإسلامى كله، وتضمه فى محيطها، وتأخذه بحكمها .. ففى هذا الكتاب مواقف متعددة، تكشف عن بطلان هذا الحكم الذى يُحكم به على الإسلام، وزيف الحيثيات التى بنى عليها.

وإنما الذى يكون منا هنا، هو الوقوف عند بعض الجزئيات التى تعرض فى مثل هذا المقام، وراء تلك الدعوات المنكرة التى يدعيها المبطلون على الإسلام، كدليل على أنه دين بدائى، صحراوى .. لا يعيش فى عالم الحضارة والتمدين!

وأهم ما يلقانا هنا من هذه الجزئيات :

١ — الحدود التى فرضها الإسلام .

٢ — المرأة وموقف الإسلام منها، ورأيه فيها .

٣ — الرقّ قبل الإسلام، وفى الإسلام .

---

(١) انظر فى هذا كتابنا . إعجاز القرآن . . الجزء الثانى : النسخ فى القرآن .

(٢) انظر فى هذا الكتاب : باب «الرسالة الخالدة ص ٥٣ »

الحدود فى الإسلام

الإسلام نظام حياة ، قبل أن يكون مجموعة من الأحكام ، والوصايا، والأوامر والزواجر ..

فما غاية الإسلام من رسالته فى الناس إلا أن يقيمهم على الحق والعدل ، وأن يجمعهم على الرحمة والمودة والإخاء ، وأن يسعى بهم إلى مواطن الخير ، والأمن ..

وقد كان من تدبير الإسلام فى هذا أن بدأ بالإنسان فى أفراده — إذ كان الأفراد هم لَبِنات البناء لكل مجتمع — فربّى الفرد هذه التربية التى تجعل منه عضواً سليما ، صالحاً فى نفسه ، قابلا للاجتماع مع غيره ، دون أن يفقد وجوده ، أو يذهب شىء من صلاحيته .

« والضمير » هو الإنسان مصغرا .. إنه تلخيص أمين للإنسان كله .. بخيره وشره .. فإذا صلح هذا الضمير صلح الإنسان ، وإذا فسد لم يكن للإنسان صلاح أبداً !

ولهذا عُنِيَ الإسلام العناية كلها بتربية هذا « الضمير » ، والتمكين له فى كيان الإنسان ، وإقامته على الصحة والسلامة، حتى يكون فى يقظة دائمة ، وفى قدرة قادرة على أن يمسك بها زمام الموقف من أمر نفسه ، وأن يقودها ، ولا تقوده !

« والضمير » أشبه بحاسة من حواس الإنسان .. كالسمع ، والبصر ، والذوق والشم ، واللمس !

ووظيفته الإحساس بما يقع فى محيط الإنسان ، وتمييز الخير والشر منه ، ثم الاطمئنان إلى الخير ، والرضا به ، والتهدى إليه . والتوجس من الشر ، والتأذى به ، والنفرة منه ، والتجنب له .. !

ولقد كشف الرسول الكريم عن هذا « الجهاز » العجيب الذى يساكن

الإنسان ، ويندس فى أعماقه . . فيقول النبىّ الأمى صلوات الله وسلامه عليه : « الإثم ما حاك فى صدرك » !! ذلك أن أى انحراف يقع فى حياة الإنسان — أى إنسان — يحدث شكّة فى الصدر ، ويترك وخزة فى الضمير !

والتربية الدينية هى العنصر الأول الفعال فى إيقاظ الضمير ، وتنميته، والتمكين لسلطانه فى كيان الإنسان ، وجعله الحارس القوى الأمين للإنسان من أن ينحرف أو يَضِلّ .

وحين يكون فى كيان الإنسان هذا الضمير اليقظ، يكون فى مأمن من أن يقع فى الشر ،أو أن يواقع الإثم .. فإذا ألم بشىء من هذا فى غفلة من غفلات الضمير ، صحا بعدها صحوة مشرقة ، فأجج نار الحسرة والألم ، وأحال حياة صاحبه جحيما مشبوب الضرام، لا تسكن ناره ، ولا يبرد سعيره، إلا إذا انخلع الإنسان عما وقع فيه من إثم ، أو تلبس به من شر !

ومثل هذا الضمير الحى اليقظ ، القوى ، هو الذى يريده الإسلام ، لكل من يدين به . !

ولقد استطاع الإسلام بتعاليمه وتربيته أن يخرج مُثُلاً عليا من الإنسانية ، ذات الضمير المشرق ، وأن يعطى الحياة نماذج كريمة ، للإنسان العظيم ، الذى يستأهل أن تسجد الملائكة له !

أتريد لهذا شاهداً ؟

إذن فإليك شاهدين ..

أولهما يَحْكِى قصة رجل ، والآخر يصوّر موقف امرأة !

أما الرجل . . فهو « ماعز بن مالك » . . عربى . . بدوى ، عاش تحت سماء النبوة ، وفى مطلع شمسها . .

وقد ضعف لحظة، أمام شهوة من شهوات نفسه ، فوقع فى هذا الإثم الغليظ

وهو « الزنا » . . وما أن صحا من فَعلته ،حتى استيقظ ضميره فى ثورة عارمة،أحالت حياته جحيما عليه ، لا ينام ولا يُنيم !

ثم . ماذا ؟

فزع إلى النبيّ صلوات الله وسلامه عليه ، يطلب عنده البرء والنجاة ..

فقال : « يا رسول الله . . طهرنى ! »

فقال الرسول الرحيم : « ويحك ! . . ارجع فاستغفر . وتب إليه ! »

فرجع غير بعيد . . ثم جاء فقال :

— « يا رسول الله .. طهرنى ! »

فقال صلوات الله وسلامه عليه :

— « ارجع .. واستغفر وتب إليه ! »

فرجع ثم عاد . . فقال :

— « يا رسول الله .. طهرنى ! »

فقال الرسول الكريم :

— « ارجع ، واستغفر ، وتب إليه ! »

فرجع . . فقال :

— « يا رسول الله طهرنى ! »

فقال صلوات الله وسلامه عليه :

— « ففيم أطهرك ؟

فقال : من الزنا !

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أبِه جنون ؟

فأُخْبِرَ أن ليس بمجنون !

فقال : أشرب خمراً ؟

فقام رجل فشمّه ، فلم يجد ريح خمر !

فقال رسول الله : أزنيت ؟

قال : نعم !

فأُمر به فرجم !

فــكان الناس فيه يومئذ فرقتين : قائل يقول : لقد هلك ماعز .. لقدأحاطت به خطيئته ! ! وقائل يقول : ما توبة أفضل من توبه « ماعز » . . إنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده فى يده ، ثم قال : اقتلنى بالحجارة ! !

ولبثوا فى هذا الخلاف من أمر « ماعز » يومين أو ثلاثة ، ثم جاء الرسول ، وهم جلوس . . فسلّم ، ثم جلس ، فقال : « استغفروا لماعز بن مالك » فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لقد تاب توبة لو قُسِمت بين أمة لوسعتهم » !

هذا مالك بن ماعز ! الرجل العربىّ البدوىّ . .

أما المرأة فهى عربية بدوية أيضاً . . معاصرة لماعز بن مالك . . وقد فعلت مثل فَعلته ، ووقفت مع رسول الله موقفه .

إنهاامرأة من « غامد » ، وغامدهذه بطن من بطون « الأزد » ، والأزد قبيلة معروفة . .

جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم . . فقالت :

— يا رسول الله : « إنى قد زنيتُ . . فطهِّرنى !

— فردّها !

فلما كان الغد جاءت ، فقالت : « يا رسول الله : لم تردّنى ؟ لعلك أن تردّدنى كما رددّتَ ماعزا ؟ .. فوالله إنى لحبلى !

فقال النبىّ الرءوف الرحيم : « أمَّا الآن فاذهبى حتى تلدى ! » .

فلما ولدت أتته بالصبىّ فى خِرقة . . ثم قالت : هذا قد ولدته !

فقال : « اذهبى ، فأرضعيه حتى تَفطميه!

فلما فطمته ، أتت بالصبىّ فى يده كسرة خبز ، ثم قالت : « هذا يا نبىّ الله قد فطمته ،وقد أكل الطعام!!

فدفع النبى بالصبىّ إلى رجل من المسلمين . . ثم أمر بها فرُجمت !

وأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فانتضح الدم على وجهه . .فسَبَّها !

فقال النبىّ صلوات الله وسلامه عليه : « مهلاً يا خالد . . لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْس[1] لغفر له ، ثم أمر بها فصلِّىَ عليها ، ودفنت » .

إنها عظمة إنسانية ، تقف دونها كل عظمة عرفها الناس !

وإنها لشهادة مشرقة للإسلام يبيضّ لها وجه كل مسلم ،ويستروح من أنسامها العطرة ريح الجلال والعظمة، فى هذا الدين الجليل العظيم !

لا تستطيع الإنسانية كلها أن تقدم للتاريخ غير هذه المرأة الغامدية امرأة أخرى؛ وقفت مثل هذا الموقف، فى حساب ضميرها،هذا الحساب الذى لم يتأثر بفعل الزمن، ولا بعواطف الأمومة وحنانها ، ولا بحبّ النفس والحرص على الحياة !

وندع هذا .

ونعود إلى حديثنا عن « الضمير » الذى عمل الإسلام بتعاليمه وأحكامه على تربيته ، والتمكين لسلطانه فى المجتمع الإسلامى .

---

(١) صاحب المكس : هو الذى يجبى فيظلم فى الجباية ،والذى يخدع الناس فى البيع والشراء.. وهو جرم غليظ يعتبره الإسلام أشنع أنواع الظلم .

هذا «الضمير» لاشك وازع يزَع الناس عن كثير من المنكرات والآثام، بل إنه — فى الحقيقة — الحارس الأمين الذى ينام صاحبه فى ظله آمناً من كل آفات السوء، إذا هو أخذ مكانه الصحيح من كيان الإنسان، وإذا هو رُبّى التربية السليمة، على هَدْى الدين وتعاليمه!

ولكن — مع هذا — لا يمكن أن تُحكم الحياة بوازع الضمير وحده فى أرق المجتمعات، وأكثرها تجاوباً مع الدين، وانتفاعاً به..

فالناس هم الناس.. إن استقام بعضهم فإن بعضاً آخر لا يستقيم، وإن استقام الإنسان فى حال، فقد ينحرف فى حال..

فكانت لابد — والأمر كذلك — من وازع خارجى عام يمسك بتلابيب من يُفْلت من رقابة الضمير، ويأخذه بالعقاب المناسب الرادع..

ولهذا فقد قام وازع السلطان فى كل مجتمع، وكان قيامه ضرورة لازمة، بقدر ما كان الاجتماع البشرى ضروريا لازماً، فإنه لا قيام لمجتمع بشرى أبداً، إلا إذا قام عليه هذا السلطان، الذى يضرب على أيدى الخارجين على نظام الجماعة وشريعتها.

* * *

ولهذا كان من تدبير الإسلام — لكى يقيم المجتمع الإسلامى على الأمن والسلامة — كان من تدبيره أن جعل وراء وازع الضمير، وازع السلطان.! وبهما تكمل الرقابة على الإنسان، وتُقفل الدائرة التى يمكن أن ينفذ منها إلى البغى والعدوان! يقول عثمان بن عفان رضى الله عنه: «إن الله ليزَع بالسلطان، مالا يزَع بالقرآن».. ذلك أن سلطان السلطان قائم فى مواجهة الناس، وبين أسماعهم وأبصارهم.. مَن وقع تحت يده لا يستطيع أن يُفلت من عقابه.. أما سلطان الضمير فهو سلطة غيبية، لا يراه إلا الذين يؤمنون بالغيب، وعقابه

مؤجل لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الناس .. وأولئك وهؤلاء قليل من كثير!

* * *

والوازع المادى — بالحدود التى فرضها الإسلام — وازع حكيم ورحيم معاً.. يقوم سلطانه على هاتين الدعامتين : الحكمة والرحمة .

فبالحكمة ضبط ميزان العقاب ، فجعل لكل جرم القدر الذى يناسبه من العقاب .. بلا مبالغة ، ولا تقصير .. وذلك ليكون للعقوبة أثرها فى ردع المجرمين عن معاودة الجرم ، وفى زجر غيرهم عن إتيانها .

وبالرحمة درء العقوبة بالشبهة .. فحيث لاحت لولىّ الأمر شبهة تَدْخُل على أى ركن من أركان الجريمة دفع الحدّ ، وأخذ بالعفو أو التعزير ، حسب ما تدل عليه دلالات الحال !

والإسلام بهذا قد سبق أحدث قوانين العالم ، التى تفسّر الشك لصالح المتهم .

يقول النبىّ صلوات الله وسلامه عليه : « ادرءوا الحدود بالشبهات » ، ويعلق ابن تيمية على هذا الحديث بقوله : « إن إقامة الحدود من رحمة الله بعباده .. فيكون الوالى شديداً فى إقامة الحدّ .. لا تأخذه رحمة فى دين الله .. فيعطّله .. ويكون قصده رحمة الخلق، بكفّ الناس عن المنكرات .. لا شفاء غيظه ، وإرادة العلوّ على الخلق .. فهو بمنزلة الوالد إذا أدبّ ولده .. فإنه إن كفّ عن تأديب ولده يفسد الولد ! وإنما يؤدبه رحمة به ، وإصلاحاً لحاله ، مع أنه يودّ ويؤثر ألاَ يحوجه إلى تأديب .. وبمنزلة الطبيب الذى يسقى المريض الدواء الكريه .. وبمنزلة قطع العضو المتآكل. فهكذا تكون الحدود، وهكذا تكون نية الوالى فى إقامتها»[1]

(١) السياسة الشرعية . لابن تيميه : ص ٤٦

ومما يجب أن يُذكر هنا هو أن الإسلام إنما نصب هذه الحدود التى نصبها إزاء تلك الجرائم — رعايةً للشعور العام ، وحفظاً لناموس هذا الشعور أن يُنتهك ويُمتهن ، بالخروج السافر عليه ، وبارتكاب الآثام ، فى مغالبة وتحدٍّ له .

ومن أجل هذا فقد جعل الإسلام لهذه المحرّمات عقوبتين : عقوبة دينية ، يتولاها الله سبحانه وتعالى ، فإن شاء عاقب ، وإن شاء عفا .. وعقوبة دنيوية ، هى حق الجماعة على من اعتدى عليها ، وهتك سترها ، واستباح حياءها !

يقول نبيّ الإسلام صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه عنه ابن عمر رضى الله عنهما : « اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها ، فمن ألَمَّ بها فليستتر بستر الله ، وليَتُبْ إلى الله ، فإنه من يُبْدِ لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله » [١]

هذا ، وقد اتهم أعداء هذا الدين الإسلامَ بأنه دين بداوة ووحشية ، لا يصلح أن يكون نظاماً تعيش عليه المجتمعات الإنسانية المتحضرة .. ومن حججهم على هذا ، تلك الحدود التى فرضها الإسلام لجرائم القتل ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر .. وهم يشنّعون على هذه العقوبات .. من حيث مقدارها ، ونوعها ، وأسلوب تنفيذها !

وها نحن أولاء نقف وقفة قصيرة ، عند هذه الجرائم ، وما شرع الإسلام لها من حدود .

القتـــــل

فقتل القاتل عندهم عمل فيه قسوة شنيعة على الإنسان ، وتراهم يحيلون الأمر هنا إلى عملية حسابية فى مجال الإنتاج المادى ، وفى باب الربح والخسارة .. !
لا يحوجهم هذا إلى أكثر من النظر إلى قطعان الحيوان التى تعيش معهم ..

---

(٢) موطأ مالك .. نقلا عن عمدة الأحكام ص ٢١٩

فإذا نطح حيوان حيواناً فقتله . . أفيكون من التدبير الحكيم أن نقتل هذا الحيوان ؟ إن أقسى ما يمكن أن يفرض عليه هو أن يُعزل عن بقية الحيوانات، حماية لها من بطشه وشراسته . . إنهم يسوسون القطيع الحيوانى بهذه السياسة ، فَلِمَ لا يساس بها الإنسان ؟ وما جدوى قتل إنسان بإنسان ؟ . وقد مات الميت فليحىَ الحىّ !

ولكن حساب الإسلام غير هذا الحساب . . فالإسلام يقول بقول الحق جلّ وعلا : « ولكم فى القِصاصِ حياةٌ يا أُولى الألبابِ لعلكم تتقون »[1] .

فالقصاص فى الإسلام، وقتل القاتل — حياة للإنسانية، وإبقاء عليها، وحراسة قائمة على رءوس الأشرار، أن يستبدّ بهم الشرّ، فيزهقوا أرواح الأبرياء، وفى تقديرهم أنهم سيظلون محتفظين بأرواحهم وحياتهم !

إن سلطان القانون لو استعان بهذا الوازع ، وترصّد لكل من يقتل ، بحيث لا يقع فى وهم الناس أن يفلت مجرم من جرمه هذا . . لو أن سلطان القانون قام فى الناس هذا المقام لما جرؤ أحد على جريمة القتل ، ولعمل ألف حساب وحساب قبل أن يقدم عليها .. وأول حساب ، وآخر حساب يحسبه ،هو أنه مقتول لا محالة إن قتَل ! . . وإذا كان بعض دول الغرب قد حرمت الإعدام فإن كثيراً من هذه الدول قد عادت اليوم لتأخذ به !

السرقة

وفى السرقة ..يرون قطع يد السارق عقوبة بربرية وحشية ، تَصِمُ الإسلام ، وتُدينه ، أمام المدنية والحضارة !

وقدّر هؤلاء فيما قدّروا أن الحياة ستشهد المجتمع الذى تمضى فيه هذه العقوبة وقد شوّهت الإنسانية فيه، بهذه الأيدى التى زايلتها أكفها ، وبانت عنها معاصمها !

(١) سورة البقرة : ١٧٩ .

ووقع فى حسابهم أنه لو قُطعت أيدى من تضمهم السجون ، من أجل السرقة ، لكانوا أعداداً كثيرة من المشوّهين ، الذين تتأذّى بهم العيون ، وتتضرر النفوس ، وتألم الضمائر !

ولا شك أن هذا حساب خاطىء، قام على نظرة غافلة ، أو جاهلة ، أو مُغْرضة .. فلو أنه أقيم حدّ السرقة كما شرعه الإسلام لما كان هذا العدد الكبير ممن يحترفون السرقة ، ويقْدِمون عليها . . ولكان فى هذه العقوبة التى فرضها الإسلام ، وقدّر آثارها — لكان فيها زاجراً يزجر معظم الذين يقترفون هذا الذنب ، ويعاودون اقترافه ، واحترافه !

ولا نذهب بعيداً ، فنروى عن التاريخ ، وننقل ما سجلت صحف الإسلام الأولى عن أثر هذه العقوبة ، وفاعليتها فى حماية المجتمع من اللصوص ، ثم حماية اللصوص من أنفسهم — لا نروى من التاريخ ، وحسبنا أن نشير بالإصبع إلى الجزيرة العربية الآن . . وكيف قضت هذه العقوبة على جرائم السرقة قضاء تاماً مبرماً ، هناك ، وأقامت أعراب البادية الذين هم أجرأ من العقبان — أقامتهم على سواء السبيل ، فلا تمتد يد أحد منهم إلى ما ليس له ، ولو مات جوعاً ، ولو كان الذى فى معرض ناظريْه قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، ملقاة فى العَرَاء .. لا حارس لها ، ولا رقيب عليها !

ذلك ، ووازع الضمير لا يكاد يَحسّ به أولئك الأعراب ، ولا يعملون له حساباً ، وإنما الذى يمسكهم ، ويَشلّ أيديهم ، هو هذا العقاب المادىّ ، الذى ينتظر من يمدّ يده إلى ما ليس له !

ومع هذا ، فليس فى الجزيرة العربية هذا التشويه للآدميه الذى قدّره «تخميناً» ، أولئك الذين يقولون فى الإسلام ما يقولون ، من خلط وخبط ، ومن زور وبهتان !

وإنه ليمضى العام ولا يُقام حد السرقة فى الجزيرة العربية كلها على أكثر من آحاد من الناس ، يُعدُّون على أصابع اليد الواحدة !!

إن الجزيرة العربية تقوم اليوم كأعظم شاهد — فى هذه الجزئية من تعاليم الإسلام — على أن الإسلام هو دين الله ، وأن أحكامه وشرائعه لاتنقضها الأيام، ولا تحوّلها الأحوال عن أن تؤتى ثمراتها الطيبة التى أودعها الله فيها . . فى كل زمان ، وفى كل مكان . . متى وجدت النفوس المتقبلة لها ، المتجاوبة معها .

وإنه لن ترى الحياة أبداً أمناً كهذا الأمن الذى يسود الجزيرةالعربية— إزاء هذه الجريمة التى تبيت الناس فى قلق وفزع — ولن ترى الحياة سلوكا أقوم من هذا السلوك الذى استقام عليه سكان هذه البادية ، التى لم يمارس أهلها دراسة الفلسفات ، ولا الأخلاقيات ، ولم يسكنوا إلى ظل من رخاء ونعمة — ومع هذا فقد أقام فيهم أدب الشريعة الإسلامية — إزاء جريمة السرقة خاصة — أدباً لن تعرفه مدنية أوربا وأمريكا ، ونشر بينهم أمناً لن تراه الدنيا أكمل ولا أروع مما تراه فى جزيرة العرب . . موطن أشد الناس بأساً ، وأكثرهم جفاء وجفوة ، وأسرعهم خطواً إلى مواطن الشر والعدوان !

* * *

هذا ، وليس ذلك التغليظ فى عقوبة السرقة قسوة من الإسلام ، واستخفافاً بالإنسان ، واسترخاصاً لوجوده . . وإنما هو الجزاء العادل الرحيم ، إزاء هذا الجرم الشنيع، الذى يعدّه الإسلام من أشنع الجرائم . . إذ هو اعتداء على حُرمة الإنسان، فى أعزّ ما يحرص عليه، وهو المال . !

ولا بأس من أن نُلفت أولئك الذين يتهمون الإسلام بالوحشيةوالحيوانية — نلفتهم إلى ما جهلوه أو تجاهلوه فى مثل هذا الموقف ... فلينظروا :

أولا : السرقة اعتداء خفيّ على حرمة الإنسان ، واستباحة لماله الذى هو بمنزلة النفس عند صاحبه .

وإذا كانت المدنيّة الغربية قد استخفّت بهذه الجريمة حتى مارست سرقة الأمم والشعوب — فإن الإسلام الذى يحترم الإنسان — من حيث هو إنسان — ويرعى حرماته فى دمه ، وماله ، وعرضه ، كما يقول نبيّ الإسلام : « كل المسلم على المسلم حرام .. دمه .. وماله ، وعرضه » — فإن الإسلام لا يستخف بهذه الجريمة ، بل يضعها موضعها بين الجرائم الغليظة ، ولا تأخذه رحمةٌ فيمن لا يرحم الناس .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ولولا دفعُ الله الناسَ بَعْضَهُمْ ببعض لفسدتِ الأرضُ ، ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين[1] » .. وهذا الحدّ هو بعض ما يدفع الله به الناس ، بعضهم ببعض ، وهو بعض فضله على عباده !

ثانياً : ليس القطع فى السرقة ، فى مُطْلَق السرقة ، أىّ سرقة .. بل لابد من توافر شروط تتم بها أركان السرقة ، التى يقام فيها الحد ، ويجب معها قطع اليد .. وهذه الأركان هى :

(ا) أن يكون المسروق شيئاً ذا قيمة .. أى له اعتبار فى حياة الناس الاقتصادية .. وكان ذلك يقدر فى عهد الرسول الكريم وصحابته بربع دينار .. أى ثلاثة دراهم .. فقد روى عن عائشة رضى الله عنها ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « تُقطع اليد فى ربع دينار فصاعدا »[2]

وهذا النصاب الموجب للقطع ، يقدَّر فى كل زمان ومكان بحسب قوته الشرائية بالنسبة لعصر النبوة ! وهذا ما نرى أن يُفهم الحديث الشريف عليه .

(ب) أن تقع السرقة فى مال محروز ، أى أن السارق يسرقه من حرز ، فالمال

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٢

(٢) صحيح مسلم : جزء ٥ ص ١١٢

الضائع ، والثمر الذى يكون فى الشجر فى الصحراء بلا حائط ، والماشية التى لا راعى عندها ، ونحو ذلك .لا يقام على سارقه حدّ ، ولكن يعزّر ويضاعف عليه الغُرم .

(ج) : ما أُخذ بالفم من ثمر على شجر وأُكل ،ولم يحمل منه شىء — لا قطع فيه ، ولا تعزير . ومن احتمل شيئاً غير ما أكل فعليه ضعف ثمنه ، ويُضرب .. نكالا له ، وزجراً لغيره !

(د) : السرقة فى أوقات المجاعات ليس فيها قطع !

(هـ) : هناك ظروف وأحوال يراها ولىّ الأمر ، ويقدّرها فى حال السارق وظروفه ، فيعزّره ، ولا يقطع يده . . حيث لاحت الشبهة التى يدفع بها الحد .. فقد روى عن أمية المخزومى رضى الله عنه ، قال : « أُتِى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلص قد اعترف اعترافاً ، ولم يوجد معه متاع . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما إخالك سرقت ؟ » قال : « بلى ! » . . فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً ، فأمر به فقُطع ، وجىء به ، فقال له النبىّ الكريم : استغفر الله وتب إليه .فقال : أستغفر الله وأتوب إليه ، فقال نبىّ الرحمة : اللهم تب عليه.. ثلاثاً »[(١)]

ففى قول النبى صلى الله عليه وسلم : ما إخالك سرقت،ما يدل على رغبة كريمة من الرسول الكريم فى صرف السارق عن إقراره بالسرقة ، حيث استبان له فى حاله ما يدعو إلى أخذه بغير الحد ، فلما أصرَّ الرجل على الاعتراف لم يكن بدٌّ من إقامة الحد عليه !

كذلك درأ الرسول الرحيم الحدّ عن عبد من رقيق الخُمس — أى خمس الغنائم — وقال صلوات الله وسلامه عليه : « مال الله.. سَرَق بعضه بعضاً »[(٢)] !!

---

(١) بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر ص ٢٢٢

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزيه جزء ٣ ص ٤٤٨

(و) يجوز لصاحب المال إذا ضَبط السارق أن يعفو عنه قبل أن يصل الأمر إلى القضاء .

فقد رُوى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لصفوان ابن أمية ، وقد جاء ليشفع فيمن سَرَقَ رداءه — أى رداء صفوان هذا — : « هَلاَّ كان ذلك قبل أن تأتينى به ؟[1] »

فهل يسمح عاقل لعقله أن يهذى ويهتر وهو فى ضوء هذا الصبح المشرق لوضىء ؟ « أولئك الذين اشترَوُا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ».[2]

(الزنا)

وهذه الجريمة ينكرها الناس جميعاً ، وتنكرها كذلك المدنية الغربية جهراً ، وترضى بها وعنها سراًّ ! وذلك لما فيها من عدوان على حقوق الأزواج ، ومن اختلاط الأنساب ، وحلّ روابط الأسرة ، وما بين الآباء والأبناء من حنان وعطف ورعاية ، وبذل يبلغ حد التضحية بالنفس . . الأمر الذى لا يكون إلا إذا ملأت عاطفة الأبوة قلوب الآباء ! وهذا لا يكون إلا إذا وقع فى نفوس الآباء وقوعاً محققاً أن هؤلاء الأبناء هم من أصلابهم !

وقد فرّق الإسلام فى العقوبة بين المحصَنين ، وغير المحصَنين . . لِمَا بين الفريقين من اختلاف فى الحاجة ، وقوة الدافع !

فالحدّ الذى جعله الإسلام لغير المحصَن من الرجال والنساء . . الجلد . . مئة جـلدة !

أما المحصن من الرجال والنساء فحده « الرجم » !

---

(١) بلوغ المرام من أدلة الأحكام ص ٢٢٢
(٢) سورة البقرة آية ١٦

فإذا توافرت أركان هذه الجريمة بما يوجب الحدّ . . وجب ولزم !

ثم إنه إذا أقيم الحد — جلداً أو رجماً — وجب أن يكون علناً ، وأن يشهده طائفة من المؤمنين !

يقول الله تعالى : « الزانية والزانى ، فاجلدوا كلّ واحد منهما مئة جلدة ولاتأخذ كم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليَشْهَدْ عذابهما طائفة من المؤمنين »(١)

وهذا الجلد فى شأن غير المحصَنين . . أما المحصَنون فهو الرجم ، كما عرفنا !

وقد نص القرآن على الجلد ، ولم ينص على الرجم ..

ولسائل أن يسأل :

إذا كان حكم القرآن قد جاء هكذا مطلقاً فى الزانية والزانى ، وهو الجلد .. فلم هذا التخصيص بغير المحصَنين ؟ ومن أين جاء النص على المحصنين ؟

ونقول : إن هذا التقييد للنص القرآنى ، وصرفه إلى غير المحصنين . . إنما هو من عمل الرسول صلوات الله وسلامه عليه .. وكذلك حكم الرجم للمحصن هو من عمل الرسول ، فقد رجم محصَناً ، هو « ماعز بن مالك » ورجم امرأة محصَنة هى « الغامدية » وقد عرضنا قصتهما منذ قليل !

ولسائل أن يسأل أيضاً :

كيف يجىء حكم القرآن عن جريمة « الزنا » نصاً فى الجلد ، ثم لا يحمل نصا لعقوبة « الرجم » ؟

ألا يكون عكس هذا هو الأولَى.. فينص القرآن على العقوبة الكبرى ، وهى « الرجم » ، كما نص على عقوبة « الجلد » ؟

---

(١) سورة النور : ٢

ونقول :

أولا : عَمَلُ الرسول الكريم متمم للشريعة ، وشارح لها .. بحكم القرآن الكريم، فى قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ،وما نهاكم عنه فانتهوا »[1] .. ذلك أن الرسول لا يَدْخل بشىء على الشريعة إلا بإذنٍ من ربه،ووحى من وحيه: « وما ينطق عن الهوى .. إن هو إلاَّ وحىٌ يوحَى »[2]

ثانياً : حَمْلُ إطلاق قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة » — حَمْلُ هذا الإطلاق على غير المحصَنين فيه رعاية لمقتضى الحال ، الذى يكاد يصرح بأن حد الزنا إنما هو واقع فى مجال غير المحصنين ، وأنهم هم الذين قد يقعون تحت طائلته .. أما المحصنون فمن القليل النادر أن يؤخذ أحدهم به !

ذلك أن وجوب الحد على الزانى لا يكون إلا إذا وقعت هذه الجريمة مستوفية أركاناً خاصة .. دون أن يَعْلَق بأى ركن منها شبهة من الشبه القريبة أو البعيدة .. وأهم هذه الأركان هو شهادة أربعة من الشهود العدول ،بأنهم قد رأَوْا وقوع هذا المنكر على الوجه الذى يقع بين الزوجين من المباشرة، التى لا يطلع عليها أحد .. وأن تكون هذه الرؤية كاشفة كل شىء بين الرجل والمرأة ، وخاصة فيما يتصل بالتقاء سوأتيهما التقاء مباشراً كاملا !

وطبيعى أن تحقيق هذه الشروط ندر أن يقع .. ذلك أن الذى يمكن أن يحدث منه هذا الأمر على ملأ من الناس بحيث تنكشف لهم سوأته،هو إنسان إما معتوه ، أو مجنون ! أو مخمور،لأن العاقل — فى أى درجة من درجات العقل — يأبى عليه حياؤه أن يتجرد هذا التجرد لأعين الناس .. فكيف لا يمسك به حياؤه

---

(١) سورة الحشر آية ٧

(٢) سورة النجم آيتا ٣ ، ٤

وهو فى مواجهة هذه الفعلة النكراء .. ولو فرض وكان فى الرجال من جمد ماء الحياء على وجهه .. فكيف السبيل إلى المرأة التى جمد حياؤها هذا الجمود ،فتعرّت للرجل هذا التعرّى على أعين الناس ؟ إن هذه الصورة لا تقع إلا فى أحوال نادرة ، وتحت ظروف وأحوال غير طبيعية ، كأن يقدّر الزانيان أنهما فى مأمن ، فينكشف عنهما هذا الستر ، الذى يستتران فيه على غير انتظار ، أو أن يطلع عليهما مطلع ، من حيث لا يحسبون ولا يقدرون !

وغير المحصنين هم أقرب إلى التعرض لهذا الفعل المنكر المفضوح ، إذ كانوا — تحت ثورة الشهوة ، وقسوة الحرمان — معرضين للاندفاع إلى هذه الجريمة ، وقلة المبالاة بعواقبها ، والعَمَى أو التعامى عن الظروف المحيطة بها !

أما المحصَن ، فإنه — إذ يقدم على هذا الجرم — لا يكون محكوما بثورة الشهوة أو قسوة الحرمان إلى هذا الحد الذى يكون عليه غير المحصن .. كما أنه لا يندفع إلى تلك الجريمة هذا الاندفاع المجنون فى غير مبالاة ، خوفًا من الفضيحة والخزى عند زوجه ، وبنيه ، وأهله !

فالمحصَن الذى يقترف هذا الإثم فى تلك الجرأة المجنونة ،والمحصنة التى تستجيب له فى هذا التحدى الوَقاح المجتمع ، إلى حد أن يرى الناس منهما ما يرون من بعض الحيوانات فى عملية الالقاح — وأقول بعض الحيوانات لأن كثيراً من أجناس الحيوان يتخفى ويستتر عند هذه العملية فلا يسمح لعين أن تراه .. من جنسه أو غير جنسه — نقول : إن المحصن والمحصنة اللذين يبلغ بهما الاستهتار والقِحة والتبجح إلى هذا الحد الذى تنأى عنه بعض الحيوانات — هما إنسانان فقدا إنسانيتهما ،وأسقطا بأيديهما الحجاب الذى كان يفصل بينهما وبين أخس الحيوانات . !

وهنا تتضح لنا ، حكمة نص القرآن على حد الجلد ، وهو العقوبة المفروضة على غير المحصنين .. إذ كان غير المحصنين هم — كما قلنا — الكثرة الواقعة تحت حكم

الزّنا على تلك الصورة المكشوفة المفضوحة ، وهم أدنى إلى مواقعة على الإثم ، على صورته تلك، من المحصنين ،الذين يكاد الإسلام لايفترض لهم وجوداً . لأنهم إن وُجدوا على تلك الحال كانوا من الندرة النادرة التى لا يتوجّه إليها عموم الحكم .

كذلك يتضح التقدير الذى قدّره الإسلام لعقوبة هذا الجرم فى مجالَيْه معاً : الإحصان ، وغير الإحصان — وهو تقدير عادل حكيم ، رحيم .. لا تخفّ موازينه أبداً ، فى أى مجتمع إنسانى ، يحترم وجوده ، ويرعى حرماته ، ويحتفظ بالقدر الإنسانى من حيائه ومروءته . .

والجلْد ، مضافاً إليه الفضْح ، هو عقوبة غير المحصن ..

وهذا الجلْد . . غير منكور ما فيه من استخفاف بإنسانية الإنسان ، وإذلال لمروءته ، وإسقاط لكرامته .. فإذا ضُمّ إليه الفضح كان استخفافاً إلى استخفاف ، وإذلالاً ، وإسقاطاً ..فوق إذلال وإسقاط !

نعم . . إن الإسلام يأخذ هذا « الإنسان » بكل هذا ، فى مقابل جنايته تلك التى جناها . . !

وكيف يرعى الإسلام حرمة فردٍ — رجلاً أو امرأة — لم يرع إنسانيته ، ولم يحفل بمروءته ؟

وكيف يقبل منه هذا العدوان الصارخ على المجتمع . وهذا التحدّى المجنون لحرمة الجماعة وحيائها ، دون أن يذيقه الكأس التى سقى منها مجتمعاً كاملاً ؟ وكيف لاُ يلبسه هذا الثوب من المذلة والهوان والاستخفاف، وقد ألبس هو المجتمع هذه الأثواب جميعاً ؟

إن أقلّ ما ينبغى أن ينال مقترفى هذا الإثم فى علانية وفى غير مبالاة ، أن يكون العقاب المسلط عليهما قائماً على العلانية ، وعدم المبالاة ، معاً . بالجلد . . والفضْح !

أما المحصنون . . فقد نزلوا دركات بعيدة عن هذا المستوى الذى نزل إليه غير المحصنين ، إذ لا يجدون عند الناس شيئاً من هذا العُذر الذى قد يجده غير المحصنين .. عند بعض الناس . . !

ولهذا كان عقابهم أن يُدفنوا فى هذه الحفر التى حفروها لأنفسهم ، وأن يقذفهم المجتمع بالأحجار ، حتى تزهق أرواحهم ، كما قذفوا هم المجتمع بهذه السهام المسمومة ، التى أصابت منهم الحياء بجراح درامية !

* * *

إن جريمة « الزنا » لا يلقاها الإسلام بهذا العقاب الدنيوى الراصد إلا حين تتحول عند مرتكبيها إلى عمل غير منكر ، يأتيه مَن يأتيه وكأنه إنما يؤدى رسالة كريمة فى الحياة ، يرى من الخير أن يشهده الناس وهو متلبس بها ! ! وهنا يكون الحساب على هذا الفجور العريان ، وعلى تلك الحيوانية الطاغية التى تلبس الإنسان ، وتتمشى به فى الناس .. فى غير خجل أو حياء !

أما حساب الإسلام لمرتكبى هذا الإثم حساباً دينياً فهو مؤجل إلى يوم الحساب . . يوم يقوم الناس لربّ العالمين . ويقف المذنبون بذنوبهم بين يدى الله . . فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء !

من أجل هذا لم تكن عقوبة الجلد أو الرجم تقع إلا فى القليل النادر جداً . . على أولئك الذين ينادون على أنفسهم بالفضيحة . . بلا مبالاه ولا تحرّج ! !

وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى امرأة كانت تعلن الفجور : « لو كنتُ راجماً أحد بغير بيِّنة لرجمتُ هذه »[1]

وهذه المعالنة التى يشير إليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، لم تبلغ الدرجة

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٦٨

التى يرى الناس فيها تلك المرأة متلبسة بالجريمة، هذا التلبس الذى اشترطه الشارع لإقامة الحدّ !

شرب الخمر

ولا نناقش هذا الموضوع من حيث الحكمة المقصودة من وراء تحريم الخمر ، فقد عرف الغربيون من آثام الخمر وأضرارها أكثر مما عرف الناس جميعاً، إذ شهدوا فى أنفسهم ما تركت الخمر فيهم من أضرار بالغة ، وأدواء لا دواء لها.. فى عقولهم ، وأجسامهم ، وأموالهم ، كما عرفوا سلطان هذا المنكر فيهم ، ورأوا عجزهم عن مقاومته ، والوقوف فى وجهه ، ولو ساقهم سوقاً إلى التهلكة والضياع! .وفى تحريم أمريكا للخمر ثم قهرها ، وتخاذلها ، واستسلامها ، لهذا الأمر المحرّم ، حجة قائمة على الذين يرون فى الخمر غير ما يرى الإسلام !

لا نناقش فى هذا . . فمقال الحال أوضح من كل ما يقال !

ولكن الذى نناقشه هو العقوبة التى فرضها الإسلام وأوجب أخذ شارب الخمر بها . !

فالعقوبة هى « الجَلْد » ! وعلى ملأ من الناس !

والذى يعيبه العائبون على الإسلام هنا هو نوع العقوبة . . وهو الجلد ! لأن الجلد عندهم عمل وحشى حيوانى ، لا يليق أن يقع على إنسان . . وأن الإسلام فى إقراره هذه العقوبة إنما يعامل إنسانية لا عقل لها ولا إحساس ، ولا مشاعر . . إنسانية لا تؤدب إلا بما يؤدب به الحيوان . . وهو الضرب ، والجلد ! ! و إن الإسلام لينكر بهذا العمل أن فى الإنسان جوانب أخرى يمكن أن يقع عليها العقاب ، وأن يترك فيها آثاراً أقوى وأفعل ، وأنجح من هذه الآثار التى يتركها العقاب الجسدى . . هناك العقاب النفسى ، والروحى . . بكلمة تأنيب ، أو نظرة احتقار أو حرمان من مكانة اجتماعية فى المجتمع . . ونحو هذا ! ..هكذا يقول القائلون !

والذى ينظر فى تدبير الإسلام ، وتقديره لهذه العقوبة التى أخذ بها شارب الخمر ، يجد أن الشارب الذى يسوقه الإسلام إلى ساحة العقاب حيث يقام الحد عليه، هو هذا الإنسان الذى خلع عِذار الحياء ، بعد أن اجترأ على حدود الله فشرب الخمر، ثم أبى إلا أن يلقى الناس بهذا الجرم ، وإلا أن يعرض عليهم نفسه ، وقد تخلّى عن عقله ، وألقى به فى كأس الخمر . !

أفلمثل هذا الإنسان الخليع غير الجلد عقاباً ينفذ من جلده الصفيق إلى مواقع الحس البهيمى من الحيوان ؟

أفيجدى مع مثل هذا الصفيق نصح ، أو تأنيب ؟

وأين العقل الذى يقى ؟ وأين الشعور الذى يحس ويتألم ؟

ثم نسأل :

أتُرى هذه العقوبات البدنية، من «الجلد»، «والرجم» وما يصحبهما من تشنيع وفضح . أتُرى المدنية الحديثة تستنكف من هذا اللون من العقاب.. وأن مشاعرها الرقيقة ، وإنسانيتها الكريمة تنفر من أن ترى إنساناً — مهما كان جرمه — يقاد كما يقاد الحيوان ويؤدب بما يؤدب به الحيوان ؟

وننظر فنرى العجب !

حقاً إن المدنية الحديثة ، لا ترى فى هذه الجرائم التى رصد الاسلام لمقترفيها هذه العقوبات — لا ترى فيها شيئاً ذا بال تقف عنده كثيراً ، وتضبط موارده ومصادره ، وتحاسب فيتدقق فى الحساب !

إن تلك الجرائم ، ليس لها وزن فى مجال المدنية الحديثة ، وإن يكن لها شىء من الوزن فهو وزن ضئيل ، لا تخف به كثيراً موازين من يمارسون هذه الجرائم ممارسة الطعام والشراب . !

إن هذه « جرائم » ليست لها هذه الصفة فى تلك المدنية المادية، وأغلظ صفتها وأشنعها أنها « فعل فاضح » ، يعاقب عليه مرتكبوه بدريهات معدودة ، تخرج من جيوبهم إلى خزانة الدولة !

وننظر مرة أخرى . . فنرى ما هو أعجب وأغرب !

هذا الإنسان العزيز الكريم فى مجتمع المدنية المادية . . هو كذلك إنسان عزيز كريم ما دام لم ينحرف عن شريعة الاقتصاد ، ولم يجن جناية تتصل بالمال . .

أما إذا خدش ناموس هذا الإله المعبود . فهو ليس إنسانًا ، بل ولا حيوانًا . . وإنما هو جيفة ميتة تلقى للكلاب ، والحداء والغربان ،

ويكفى أن نذكر هنا حكم « الإفلاس » الذى يفقد به الإنسان « ذمته » المالية . . ويصبح مجرد حيوان . . لا يملك ولا يملَّك ! ترقبه العيون — عيون دائنيه — كما ترقب القطط فأرا وقع فى مصيدة !

وماذا يكون الجلد، بل والرجم، إلى جانب هذا الحكم ، الذى يُلقى بالإنسان فى تلك العزلة الباردة القاتلة، ويقطع منه شرايين الحياة التى كانت تدفع به فى جنون وسط هذا المعترك ، الذى يعود منه آخر اليوم بمحصول وفير من الأسلاب والغنائم، يزيد بها « رصيده » فى عالم المال الذى لا يعيش إلا به ، وله ؟

المـــرأة

ربما حسب بعض الناس لهذا العنوان حسابًا خاصا . . وربما وقع فى نفوسهم منه أننا سنعرض قضية من قضايا الإسلام عنوانها « المرأة »

ولو أنصفنا الحقيقة فى جانب الإسلام لما جعلنا للمرأة مكانا فى هذا البحث ، الذى ينتظم بعض قضايا الشريعة الإسلامية . . إذ لم يجعل الإسلام المرأة وضعًا

خاصا تنعزل به عن الـكيان الإنسانى ، فيكون لها بذلك فيه وضع خاص،وأحكام خاصة، تصلح أن تـكون قضية من قضاياه.

والحق أن الإسلام لم ينظر إلى المرأة نظرة تفرق بينها و بين الرجل ، إلا فى أضيق الحدود ، وإلا فيما يتصل بها كأنثى ، وبالرجل كرجل !

فهى فى الإسلام إنسان ، تحمل كل خصائص الإنسانية التى عند الرجل .. وكما يخالفها الرجل فى بعض الصفات التى تجعله رجلا ، تخالفه هى أيضاً فى بعض الصفات التى تجعل منها أنثى !

إن الرجل والمرأة هما أصل شجرة الإنسانية ، وما تفرع منها من شعوب وأمم. هذا ما يقرره الإسلام فى قوله تعالى : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1]

فـكيف يمايز والإسلام بين هذين الأصلين ، على حين سوّى بين ما يتفرع منهما من أمم وشعوب ؟

إن حكمة الخالق جمعت بين الرجل والمرأة جمعاً لازماً ، يكاد يكون اضطراريا، ليـكون منهما النسل الذى به حفظ النوع وبقاؤه !

وإنه لـكى يجتمع الشمل بينهما ، ويسكن كل منهما إلى صاحبه كان لابد أن يكون أحدهما أنزل من الآخر درجة ، ليـكون بينهما تجاوب وتوافق ، ولو كانا على حد سواء لتنابذاً وتخاصماً ، ولأدار كل منهما ظهره لصاحبه ، ولمَا أسلم أحدهما زمامه للآخر .. فإن الخصام والشقاق لا يكون إلا بين النظراء ، ولا يقع إلا بين الأكفاء .. أما حين تتراجح كفتا الميزان ولا تتعادلان، فإنه يمـكن التجاوب والتآلف !

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٢

ومن جهة أخرى فإنه لو اتسعت مسافة التفاضل بين الرجل والمرأة لكان ذلك داعية إلى القطيعة بينهما ، أو إخضاع أحدهما للآخر قهراً .. وقسراً ، وحينئذ لا يقوم بينهما السكن والإلف ، الذى لا تتم نعمة الحياة إلا فى ظلاله ، وفى هذا يقول الله سبحانه : « ومن آياته أنْ خَلَق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودةً ورحمة »(١)

ولهذا ، كان الذى بين الرجل والمرأة من فضل هو - درجة ! درجة واحدة .. لا يخفّ بها ميزان المرأة ، إزاء الرجل ، ولا تَضمُر شخصيتها إزاء شخصيته : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ، إن كنَّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر ، وبعولَتُهن أحقّ بردهنّ فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهنّ درجة».(٢)

فهذه الدرجة لازمة — كما قلنا — لقيام الشركة بين الرجل والمرأة، على مودة ورضى ، ولو لم تكن هذه الدرجة فى جانب الرجل لوجب أن تكون فى جانب المرأة ، ليتم بينهما الالقاء ويدوم ! . وسياق الآية الكريمة الذى تقدم هذا الحكم : «وللرجال عليهن درجة» — هذا السياق يكاد يصرّح بأنه تبرير أشبه باعتذار لهذا الحكم الذى جعل للرجل على النساء درجة . . فقد جاء فى هذا السياق حكم لازم للمرأة من حيث طبيعتها ، وهى أن تعتد ثلاثة قروء عند طلاقها ، الأمر الذى لا متوجّه له إلى الرجل ، إذ أن هذه العِدّة لاستبراء الرّحِم محافظة على صحة الأنسابُ . .

ونعود إلى موقف الإسلام من المرأة ! أو بمعنى أصدق إلى ما صوّر به موقف الإسلام من المرأة !

ونعم ، فليس الإسلام مع المرأة موقف خاص ، تنعزل به عن الرجل . . إلا فى حدود ضيقة جدا — كما قلنا — وإنما الذى جعل للمرأة موقفاً خاصا فى الإسلام، هم

---

(١) سورة الروم آية ٢١ (٢) سورة البقرة اية ٢٢٨ .

المسلمون لا الإسلام . . ؛ أعنى بالمسلمين عامتهم وخاصتهم جميعاً !

لقد ظلم المسلمون المرأة ، كما ظلموا الإسلام فى تشويه نظرته إليها ، تلك النظرة التى لو استقام عليها المسلمون ، لكان حسابهم مع المرأة على غير هذا الحساب المبخوس، الذى ضَمَرَ فيه وجودها ، وبهتت به شخصيتها ، وكادت تفقد فيه حياتها كإنسان كريم ، تتسامى به إنسانيته إلى غايات الكمال .. من الحق ، والخير .

ولكى تتضح الصورة المعتمة التى وضع فيها المجتمع الإسلامى المرأة ينبغى أن نكشف عن تلك الصورة الكريمة المشرقة التى وضعها الإسلام فيها .

فأولا : سوّى الإسلام بين المرأة والرجل فيما أناط بهما من تكاليف ، وما وجه إليهما من أوامر وزواجر . .

ومن هذا أن الخطاب للرجل، كان يصحبه الخطاب المرأة فى كل مقام يتحدّد فيه موقف الإنسان ، ويتقرر فيه مصيره !

فمن ذلك قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدِّقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجَهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيما »[1] .

ففى مثل هذا المقام الذى يُدعى فيه الناس إلى ذلك المقام الكريم الذى أعدَّه الله للعاملين من عباده على الاتصاف بهذه الصفات الطيبة ، التى تدنى من رحمة الله ، ورضوانه — فى هذا المقام تتجه الدعوة إلى الرجال والنساء معاً ، وكذلك الشأن حين تنصب موازين الجزاء . . المرأة والرجل على حد سواء . .

يقول الله تعالى: «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيبةً

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٥

ولنجزينَّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون[١] » .

ويقول جلّ شأنه : « ومن عَمِلَ صالحًا من ذَكرٍ أو أنثى ، وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يُرْزَقُون فيها بغير حساب[٢] » .

وليس هذا فى الجزاء الأخروى وحده . . بل إن العقوبات التى يرصدها الإسلام للذين يتعدّون حدود الله ، وينتهكون حرماته — هذه العقوبات للرجل والمرأة حقًا ، فدمها ودم الرجل سواء . . تُقتل به إن قتلته ، ويُقتل بها إن قتلها . . وتقطع يدها إن سرقت ، كما تقطع يد الرجل إذا سرق . . وتُجلد ويجلد إذا زنيا غير محصنين ، ويرجمان إذا زنيا مُحْصَنَيْن ! . . وهكذا يشملهما حكم عام موحَّد فيما يتصل بالكيان الإنسانى المشترك بينهما . . أما حين يكون الحكم مما تتضرر منه طبيعة المرأة ولا تحتمله . . كالقتال فى سبيل الله ، وكالصلاة فى فترة الحيض والنفاس . . فإن الإسلام — رأفة بها ، وتمشيًا مع المبدأ الذى قام عليه وهو : اليسر ، ورفع الحرج ، كما يقول الله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العُسر » . وقوله : « ما يريد الله ليجعلَ عليكم فى الدين من حَرَجٍ ، ولكن يُرِيدُ ليطهِّركم ، وليتمّ نعمته عليكم ولعلكم تشكرون[٣] » . نقول إن الإسلام بهذا الحساب أعفى المرأة من واجب القتال فى سبيل الله حين تدعو دواعيه ، كما أسقط عنها فريضة الصلاة فى مدة حيضها ونفاسها ! كما أوجب عليها الفِطر فى رمضان إذا كانت فى الحيض أو النفاس . . ثم تقضى ما أفطرته من أيام .

وهذا الوجه الذى تبدو فيه المرأة المسلمة فى تعاليم الشريعة وأحكامها — وجه مشرق وضىء ، يفيض إنسانية وقوة ، وحيوية ، وطمأنينة ، وأملاً !

---

(١) سورة النحل : ٩٧
(٢) سورة غافر : ٤٠
(٣) سورة المائدة : ٦

وثانياً : أن الشريعة جعلت المرأة والرجل ذِمّةً واحدة . . حيث تناظر المرأة الرجل فى مقام الولاء أو العداوة . .

فقال تعالى : « والمؤمنون والمؤمناتُ بعضهم أولياء بعض[١] » وقال : « والّذين يُؤْذون المؤمنينَ والمؤمنات بِغَيْر ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا[٢] » : وقال سبحانه مخاطباً النبىّ الكريم : « واستغفرْ لِذَنبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمنات[٣] » .

هذا فى مقام الإيمان ، مع المؤمنين والمؤمنات . .

وفى غير مقام الإيمان ، يجرى الأمر على هذا التقدير ، مع المرأة والرجل . .

« المنافقونَ والمنافقاتِ بعضُهم من بعض[٤] » . « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفّارَ نار جهنّم[٥] » . . . « ليعذّب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركاتِ[٦] » .

وهكذا تناظر المرأة الرجل وتزاحمه بمنكبها ، فى كل موقف يقفه ، فى مجال الخير والشر على السواء ، والفهم السليم الصحيح لنظرة التشريع الإسلامى إلى المرأة ، والتطبيق العادل لهذا التشريع — يقيم المرأة فى المجتمع الإسلامى مقاماً تجد فيه وجودها الإنسانى كله ، غير معوّق أو معطَّل . .

وشهادة التاريخ فى تلك الفترة المشرقة من حياة الإسلام فى عصر النبوّة ، وفترة الخلفاء الراشدين — هذه الشهادة تنطق بأجلى بيان عن الدور العظيم الذى قامت به المرأة فى الخطوات الأولى التى كان يخطوها الإسلام لأول لقائه بالإنسان .. فلقد كانت المرأة من أهل السبق إلى الإسلام ، بل كانت من أوائل أهل السبق فيه ،

---

(١) سورة التوبة : ٧١
(٢) سورة الأحزاب : ٥٨
(٣) سورة محمد : ١٩
(٤) سورة التوبة : ٦٧
(٥) سورة التوبة : ٦٨
(٦) سورة الأحزاب : ٧٣

والوقوف إلى جانب الرسول الكريم منذ اليوم الأول الذى تلقى فيه أول إشارة من السماء تدعوه لأن يهيىء نفسه لما اختاره الله له : ليكون رحمة للعالمين !

ولعلّه لا يخلو من سرٍّ ، هذا الذى حدث يوم سمع النبى — صلوات الله وسلامه عليه — صوتَ السماء ، فكان مفزعه إلى المرأة . . وهى زوجه السيدة خديجة ، وكانت هذه المرأة هى أول إنسان صدَّق « محمداً » واستجاب له ، ودخل معه فى دين الله !

وهكذا يقوم المجتمع الإسلامى الأول من نبىّ وامرأة نبىّ !

ومن يدرى . . فلعل هذا الذى يبدو من قيام الدعوة الإسلامية منذ يومها الأول على النبى وزوجه . . على الرجل والمرأة — لعل هذا الذى يبدو أنه حَدَثٌ عَرَضىّ أو اتفاق فى حياة الدعوة الإسلامية ، لعله أمر من أمر الإسلام ، وخِصِّيصة من خصائصه ، إذ كان — وهو الدين القائم على الفطرة — حريًّا بأن يولد مجتمعه هذا الميلاد الطبيعى ، كما يُولد أفراده من رجل وامرأة . . زوج وزوجه . . أب وأم !!

أقول هذا القول ، وأنا أعلم بما يثير عند العقليين من مشاعر الإشفاق أو الاستخفاف ، أو السخرية لهذا الخيال الشعرى الذى تواجه به الحقائق !

ولكن ليكن هذا . .

فللعقليين دينهم الذى يتلقَّونه من مُعْطيات الأرقام الحسابية ، والمعادلات الجبرية . . ثم إن المتدينين دينهم الذى يلقونه بكيانهم كله ، لقاء الفنان لآيات الوجود . . يلقَوْنه بعقل العالم ، وقلب الشاعر جميعاً !!

* * *

وتمضى المرأة فى سيرها مع موكب الدعوة الإسلامية خطوة خطوة . .

فإذا كان الابتلاء الذى امتُحن به النفر الأولون السابقون إلى الإسلام بما أخذتهم به قريش من التنكيل والتعذيب — كانت المرأة إلى جانب الرجل ،

تتلقى فى إيمان ، وشجاعة ، وصبر كل ما يصبّ عليها من عذاب ، وما تتعرض له من استحياء ، طوال هذه المحنة القاسية !

ويحصى تاريخ الإسلام من النساء المعذبات ، والمتعرضات للتعذيب أعداداً تماثل أو تتقارب مع أعداد الرجال ..

وأكثر من هذا، فإن تاريخ الاسلام قبل الهجرة قد سجل للمرأة مواقف تكاد تنفرد بها فى مجال الفِداء والتضحية . . ونذكر هنا أُم عمار بن ياسر التى ظلت هى وابنها وزوجها تحت وطأة التعذيب والتنكيل حتى لفظت أنفاسها، وهى على إيمانها بالله وبرسوله . . . !

ثم إذا كانت الهجرة التى أذن الرسول فيها المؤمنين أن يفروا بدينهم من وجه هذا الإعصار الذى لفّهم فى مكة — كان دور المرأة فى هذه الهجرة دوراً بطولياً فذًّا فى التاريخ ، إذ استطاعت أن تقهر عواطفها ، وأن تتخلع عن مشاعر الأم ، أو الزوجة ، أو الأخت ، أو الابنة ، وأن تجعل وجودها كله لحساب عقيدتها ، وأن تكون حيث تجد دينها . . ففارقت الأهل والولد ، وألقت بنفسها فى طريق وعر طويل ، لا تدرى إلى أين ينتهى بها ، ولا ما لا تَلْقَى عند نهايته ! .

ولقد وجد الرجال الذين أزمعوا الهجرة من استجابة زوجاتهم لصحبتهم فيها ما خفف عنهم فراق الأهل والوطن ، وما هيأ لهم فى الهجرة من أسباب الطمأنينة والأنس !

ويُحصِي تاريخ الإسلام فى هذا الموقف أيضاً أعداداً من النساء يماثل أو يتعادل مع أعداد الرجال !

ويُحْصى التاريخ أسماء كثير من المؤمنات المرافقات لأزواجهن إلى الحبشة ، وعلى رأسهم « رقية » بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجها عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وأم سَلَمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، مع زوجها أبى سلمة بن عبد

الأسد ، وليلى بنت أبى صمّة بن غانم مع زوجها عامر بن ربيعة،وأسماء بنت عُمَيْس، مع زوجها جعفر بن أبى طالب ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ، مع زوجها عمرو بن سعيد بن العاص ، وأمينة بنت خلف مع زوجها خالد بن سعيد بن العاص،وأم حبيبة بنت أبى سفيان مع زوجها عبد الله بن جحش .... وكثيرين غيرهن .. كانت لهنّ هجرة إلى الله ، وفى سبيل الله !

ولهذا كان الإسلام بنظرته إلى المرأة على هذا المستوى الإنسانى الذى تسامت فيه المرأة مع الرجل — كان على الحق الذى جاء به ، والعدل الذى يعتدل به ميزان الوجود . فكانت المرأة ممن أخذ الإسلام بحقها كاملا ، لم ينقص منه شىء .

ولأن الإسلام يعلم ما فى طبائع الناس من بغى وعدوان ، حين يجتمع قوىٌّ وضعيف ، كما يقول الله سبحانه: « وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات، وقليلٌ ما هم »[1]— نقول : إن الإسلام إذ يعلم هذا من طبيعة الناس فقد وصّى بالمرأة وَصَاة خاصة ، إلى جانب وصاياه العامة من الدعوة إلى العدل والإحسان ، والرفق ، والمودة .. ولهذا كانت آخر وصاة للنبىّ الكريم هى قوله : « اتقوا الله فى الضعيفين : المرأة والمملوك » .

* * *

ثم إذا خرج الإسلام من هذا الامتحان ظافراً منتصراً،وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً — كانت المرأة فى المجتمع الإسلامى وجهاً بارزاً مشرقاً فيه .. تعمر بيت الله ، وتستمع إلى رسول الله ، وتتفقه فى دين الله .. وتستفتى وتفتى .. وتلقى الرجال غادية ورائحة ، تعرفهم ويعرفونها ، وتستخبرهم ويستخبرونها .. هكذا كان شأنها فى عصر النبوة ، والخلافة الراشدة .. ثم امتد ذلك إلى العصر الأموى كله !

فلم يضرب الإسلام حجاباً على المرأة ، ولم يجعلها حبيسة بيتها،وقعيدة الدار ..

---

(١) سورة ص آية ٢٤

بل فتح لها أبواب الحياة كلها ، تدخلها باباً ، باباً — شأن الرجل .. سواء بسواء .. لا تستصحب معها إلا دعوة الإسلام لها وللرجل بالتعفف ، والتصوّن ، والتوقّى لحرمات الله !

والحجاب الذى ضرب به الإسلام على المرأة كان خاصا بنساء النبى وحدهن ، ومن نساء المسلمين جميعاً ، إذ أدّب الله سبحانه نساء النبى بأدب خصهن به ، وجعل لهن فى مقابل هذا أجراً مضاعفاً .. ليس لغيرهنّ من النساء ، وكأنه فى مقابل هذا التكليف الخاص بهنّ !

وفى هذا يقول الله سبحانه مخاطباً نساء النبى الكريم : « ومن يقنُت منكنَّ لله ورسوله ، وتعملْ صالحاً نؤتها أجْرَها مرتين ، وأعتدنا لها رزقاً كريماً .. يا نساء النبيّ لستُنَّ كأحَد من النساء .. إن اتَّقيتُنَّ ، فلا تَخْضَعْنَ بالقول ، فيطمعَ الذى فى قلبه مرض ، وقلْن قولاً معروفاً .. وَقَرْنَ فى بيوتكُنَّ ، ولا تبرَّجْن تبرّجَ الجاهليةِ الأولى ، وأقِمْنَ الصَّلاَةَ ، وآتينَ الزّكاة ، وأطِعْنَ اللهَ وَرَسولَهُ ، إنما يُريدُ الله ليُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ، ويُطَهِّرَكُمْ تَطهيراً »[1]

فهذا أمر موجّه إلى نساء النبيّ خاصة ، لتحقيق ما يريد الله لهنّ من حماية ووقاية تباعد بينهنّ وبين قَالاَتِ السوء ، ومَظنَّات التهم ، التى لا يسلم منها من يحتك بالناس .. والله سبحانه وتعالى يريد للنبى وآل بيته هذا الحمى الذى لا يدنو منه أحد !

وليس فى هذا الحكم الجزئى المحدود بهذه الحدود الضيقة — زماناً ومكاناً — ما يؤثّر فى حياة المرأة ، ويعطل قوة من قواها !

ولهذا كانت نساء المسلمين — مع هذا الحظر الجزئى المحصور فى بيت النبوة —

---

(١) سورة الأحزاب الآيات ٣١ — ٣٣

غير مقيدات بهذا القيد ، ولا بأى قيد آخر ، إلا قيد العفة ، والحياء ، وما يوجبه الإيمان من رعاية حدود الله .

والحق أن المرأة المسلمة لم تعرف هذا الحجاب الكثيف، فى أول لقائها بالإسلام ، وفى صحبتها له طوال شباب الدولة الإسلامية ، ولم تقم بينها وبين الحياة هذه العزلة القاتلة ، التى رمتها بها يد البغى والجهل . . بل كانت تملأ وجوه الأرض علماً وعملا . .

يقول الجاحظ فى بعض رسائله : « لم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب، ولا كانوا يرضونَ مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ، ولا لحظة الخُلْسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا فى المناسمة والمشافهة »(١)

ولا يمكن أن يكون موقف الإسلام من المرأة إلا هذا الموقف الكريم ، الذى يتيح لها أن تأخذ حظها كاملاً من الخير والرحمة ، اللذين حملهما الإسلام إلى الإنسانية كلها !

وكيف يُعقل أن يجىء دين يخاطَبُ فيه النبىّ من الحق جلّ وعلا بقوله : « ومَا أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » — ثم يكون من أحكامه وتعاليمه ما يتحول بالمرأة من إنسانٍ له وجوده ، وله عقله ، ومشاعره ، ومنازعه — إلى كائن مسلوب الإرادة ، مشلول الحركة، مضروبا بينه وبين وجوه الحياة بأبواب من حديد ؟

لِمَ كان خَلْق المرأة إذن على هذه الهيئة الإنسانية . . إذا كان غاية ما يطلب منها أن تكون للمتعة أو الزينة ، أو التسلية ؟ لم كان هذا وفى الحياة وجوه كثيرة بين يدى الإنسان ربما كانت أكثر غَنَاء ونفعاً فى هذا المجال من المرأة ؟

ولم كان إذن ميلاد الرجل من المرأة . ؟ ذلك الميلاد الذى يكاد يكون خَلقاً ؟

---

(١) رسالة « القيان » للجاحظ : ص ٥٧ (ضمن ثلاث رسائل)

أفيكون من الحكمة والعدل أن يتسلط المخلوق على خالقه ؟ وأن يستبد الربيب بمن رباه ونشأه ؟

أيكون هذا من منطق شريعة سماوية تحمل إلى الناس — كل الناس — الخير والرحمة ؟ ثم أيستقيم لهذه الشريعة — منطقاً ، وعدلا — أن تخاطب المرأة مخاطبة الإنسان العاقل الرشيد ، وأن تعدّها أهلاً لحمل تكاليف الشريعة والوفاء بها ؟ ألا يكون ذلك غاية الإعنات والحرج فى شريعة رفع الله عن أتباعها الإعنات والحرج ؟ لا ، ثم لا . .

إن الرحمة فى الشريعة الإسلامية تشمل الوجود كله .. فكيف يعقل أن تُحْرَم المرأة وحدها حظّها من هذه الرحمة الواسعة ؟

إن ظروفا سياسية ، واجتماعية ، ومذهبية قد أحاطت بالمجتمع الإسلامى فقلبت أوضاعه ، وغيرت معالمه ، وشوّهت حقيقته ، فرأى الحياة من خلال الضباب المتكاثف من حوله .. وكان نصيب المرأة من انقلاب هذه الأوضاع أوفر نصيب..

وانظر !

لقد وقع المجتمع الإسلامى منذ السنوات الأولى للدولة العباسية تحت وطأة غزو اجتماعى وسياسى ، وأخلاقى من تلك الأمم غير العربية التى دخلت فى الإسلام . . وكان فيما يتصل بالمرأة أن كثرت مجالس القيان وملأت الجوارى مجالس الشراب، وقصور الخلفاء والأمراء والأعيان . . وكان من هذا أن بدت المرأة فى هذه الآفاق رخيصة ، مسترخصة . . تنالها كل عين ، وتعبث بها كل يد . . وكان من هذا أيضاً أن سرت فى الناس موجات التحلل والفساد ، بل والإباحية . . فكان ذلك داعية إلى قيام ردّ فعل مضاد لهذه الحركة . . فظهر الزهد ، والتعفف العنيف ، وقام الفقهاء ورجال الدين بدورهم فى هذا الموقف ، فحملوا على المرأة حملة شعواء ، إذ كانت فى نظرهم صاحبة الدور الأول فى هذا الشرّ الذى ملأ وجه الأرض . .

ومما ينبغى أن ينبه إليه هنا أن هذه الظاهرة قد بلغت غايتها فى الفترة التى تم فيها تدوين المذاهب الدينية الكبرى ، تأليفاً وشرحاً . . فكانت نظرة الفقهاء والشراح إلى المرأة متلبسة بهذا لوضع الذى كانت تعيش فيه الإماء والجوارى ، والقيان . .

وإذا لم يكن فى الإمكان الوقوف فى وجه الحياة التى تحياها الجوارى والقيان — فقد اتجهت القوى كلها إلى حماية الحرائر داخل دورهن وقصورهن . . وفُرض على المرأة أن تلزم بيتها ، وأن تقيم فى « الحريم » بعيداً عن كل عين ، وراء السُّتُر ، والحرَّاس ، والحجاب !

ثم إنه ضاعف من هذا البلاء الواقع على المرأة ، تلك الحروب المتصلة ، والفتن التى شملت العالم الإسلامى خلال الغزو التترى والمغولى ، ثم الغزو الصليبى ، ثم تسلُّط المماليك والأتراك ، وعدوان بعضهم على بعض فى الاستيلاء على الأقاليم والأمصار . . إذ كانت المرأة مطمح أنظار الغزاة والفاتحين ، كما كانت رغيبة الولاة والحكام المتسلطين . . الأمر الذى جعل الرجال الأزواج ، والآباء ، والأخوة ، وذوى القربى — يحرصون على المرأة حرصهم على أعز ما يملكون من نفائس الأموال وكرائمها ، حيث لا يرون سبيلا للإبقاء عليها فى أيديهم إلا بإخفائها فى سراديب وأغلاق لا يهتدى إليها أحد . . وبغير هذا لا تسلم من عدوان معتد ، أو قهر قاهر . . فكانت المرأة فى نظر أهلها بهذا الوضع الذى للمال ، وأكثر منه . ! إن رأت النور تخطفتها العيون ثم استولت عليها الأيدى ، وتحولت إلى رقيق يباع ويُشرى ، أو إلى خليلة ينتهى أمرها إلى سوق الرقيق !

* * *

إن هذا الوضع الذى فرض على المرأة نتيجة لمثل هذه الظروف وتلك الأحوال لم تكن لحساب الإسلام ، وإنه لمن الظلم أن تظل المرأة مقيدة بتلك القيود ، كما أنه من

الخطأ فى الرأى أن يُحسب انطلاقها من تلك القيود التى كانت تمسك بها خروجاً على الدين ، بل إنه عودة إلى الدين ، ودخول فيه !

* * *

وأمر آخر يتصل بالمرأة ، ويُحسب على الإسلام ، جهلا ، أو ظلماً بأنه عدوان عليها ، وامتهان لها . . وذلك ما كان من الإسلام من إباحة تعدد الزوجات ، وإباحة الطلاق كذلك .

ونعم ، أباح الإسلام التعدد ، وأباح الطلاق . !

فأى شىء فى هذا ؟

إن الذين يَشغَبون على الإسلام ، ويشوّشون عليه . . يقولون : لماذا يباح للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة ، وأن يجمع بين أكثر من واحدة إلى أربع ، ولا يباح للمرأة أن تتزوج أكثر من رجل ، وأن تجمع بين أكثر من رجل إلى أربعة ؟ أليس هذا هو العدل ، والمساواة ؟

وكيف يكون عدل ومساواة مع هذه التفرقة البعيدة الواضحة ؟

ونقول : إنه لكى ينظر إلى هذه المسألة نظراً صحيحاً مستقيما ، ينبغى أن ينظر إلى جانبيها معاً ، جانب المرأة وجانب الرجل ، كل على حدة ، وفى مقابل الآخر . .

ففى جانب المرأة نجد :

أولا : أن الطبيعة قد جعلت مولوداتها من الإناث أكثر من الذكور . . سواء ذلك فى عالم ، الإنسان أو الحيوان والطير . . وحتى فى النبات !

وقد يكون هذا التدبير المتصل بأصل الحياة لكى تتكاثر المواليد ، وتعمر هذه الأرض !

ثانياً : هذه الحروب ، وهى سنة من سنن الحياة .. تذهب بكثير من الرجال، الأمر الذى أضيف إلى سابقه قلّت نسبة الرجال إلى النساء إلى درجة بالغة الخطر، إن لم يكن هناك عامل ملطّف ، أو مخفف لها !

ونسأل : إذا لم يكن هناك عامل معدِّل ، لهذا التفاوت البعيد فى النسبة بين أعداد النساء وأعداد الرجال — فأين يذهب هذا العدد العديد من النساء اللائى لا مقابل لهنّ من الرجال ؟

جواب واحد لا غير . . هو أن يَمُتْن عانسات ، إذا تعففن — وقليل ماهنّ — أو يحيَيْنَ حياة بهيمية ، مباحات لكل رجل إذا استجبن لغريزتهن ، وما أكثرهنّ !

أفهذا ؟ أم أن تسكن المرأة إلى رجل مع أخرى غيرها ؛ أو أخريات ؟

ثم لنسأل : أجعل الإسلام هذه الإباحة أمراً واجباً ملزماً ؟

وهل مع هذه الإباحة المطلقة وجد الرجال فرص الحياة ، وظروفها مواتية لهم فيسكن الواحد منهم لأكثر من امرأة ؟

إن الواقع يشهد بأن أفراداً قلائل يُعدّون فى حكم الشاذ ، هم الذين استعملوا حق الإباحة هذا . . أما الذين لم يتزوجوا أكثر من واحدة فهم الغالبية الغالبة التى يعتد بها التشريع الوضعى ، بله السماوىّ !

إن التعدد هنا باب من أبواب الرحمة للمرأة نفسها ، تفتحه الحياة فى ظروف وأحوال خاصة ، فيكون فيه للمرأة منفذ إلى حياةٍ — على ما بها — هى أفضل من الحياة بلا رجل !

ثم نسأل أيضاً ؟

أهناك فى هذه الإباحة ما يرغم المرأة على أن تشارك غيرها فى الزوج ، أو يشاركها غيرها فيه ؟

إن للمرأة الأولى أن تطلب الطلاق إذا تضررت من المرأة الثانية ، كما أن للمرأة الثانية أن ترفض الزواج من هذا الزوج !

وننظر فى جانب الرجل . . فنجد

أولا : أن الرجل يحتفظ بقوته وحيويته مدة أطول من المرأة التى تسبقه إلى الوهن والضعف . بما تعانى من الحمل ، والوضع ، والولادة ، والرضاع ، والتربية .

وفى مثل هذه الظروف قد يرى بعض الرجال أن يمسكوا بزوجاتهم ، وأن يُحْصِنوا أنفسهم ، ويحفظوا دينهم ومروءتهم بزوجة أخرى .

وثانياً : قد تصاب المرأة بمرض يعجزها عن الوفاء بحاجة الزوج والقيام على شئون البيت ، وهنا تبدو الحاجة إلى امرأة أخرى ، تُؤدى الوظيفة التى عجزت صاحبتها عن أدائها . . وعندئذ يكون من الإعنات والحرج و لإضرار أن يُحجر على الرجل ، فلا يجد سبيلا للخروج من هذا الوضع الأليم ! وفى إباحة الزواج بامرأة أخرى ما يتيح للرجال فى تلك الحال أن يفكروا تفكيراً هادئاً عاقلا ، وأن يتخيّروا لأنفسهم أى الأمرين أصلح . . الزواج بامرأة أخرى ، أو الصبر على ماهو فيه ؟ وكثيراً ما يكون الأمر الأخير هو الرأى الراجح الذى يميل إليه الرجال فى أغلب الأحيان .. رعاية للعشرة الزوجية ، ووفاء لحق ما بين الزوجين !

بقى أن يُنظر إلى هذا الموقف من وجهه الآخر ، وهو أن يغلق على الرجل باب الخلاص من هذا الضيق الذى يعيش فيه تحت سلطان الإلزام والقهر ، دون أن يكون للاختيار ، والشعور بمعانى التضحية مكان هنا إزاء هذا الإلزام القاهر ونسأل : كيف تكون حياة الرجل فى هذا السجن الرهيب المخيف ؟ بل كيف تكون حياة المرأة مع مثل هذا الرجل الذى يراها فى تلك الحال حكماً مؤبداً عليه ، بالشقاء والبلاء ؟ إن المرأة فى هذه الحال تكون أشقى من الرجل ، إذ تجد أنها لعنة مفروضة على الرجل ، وأنه لو كان لها خيار فى إفساح الطريق له لما ترددت

فى حلّ الرباط الذى يربطها به ، ولطالبت هى بذلك قبل أن يطالب به هو !

ثم انظر بعد هذا مايكون من العواطف الإنسانية التى يوقظها الشعور الذى يسيطر على الزوجين فى ظل هذا التشريع الإسلامى الذى أباح لهما الانفصال فى مثل هذه الحال . . إن كلاً منهما يجد أنه فى سَعَة من أمْرِه ، وأنه يملك وجوده وإرادته ، كما أنه يحتفظ بمروءته ، وشخصيته . . فالرجل إذا احتفظ بامرأته فى حالها تلك أرضى جوانب كثيرة من عواطفه، تعوضه كثيراً مما يلقى من ضيق وضرر معها . . والمرأة تشعر بأنها غير مفروضة عليه ، وأنه أمسك بها بمحض اختياره ، وأن الجـــــانب الإنسانى فيهما هو الذى يمسك برباط الحياة الزوجية بينهما . . !

إن الإسلام بصنيعه هذا فى إباحة الطلاق ، وجعله حلالاً بغيضاً ، لايقربه الإنسان إلا كما يقرب المنكرات والمحرمات عند الضرورات -- إن الإسلام بهذا قد احتفظ للإنسان بوجوده الشخصى وبحريته المطلقة التى لاتخضع إلا لوازع الضمير ، وحكم المروءة ، ومقتضى ماتوجبه المروءة والرجولة ، وما تدعو إليه عواطف التضحية والإيثار !

وإذن ، فهذا التعدد الذى يشنّع به على الإسلام ، ويُنادَى به فى الملأ على أنه من الموروثات البهيمية التى ورثها الإنسان عن الحيوان من هذا التعدد ـــ هو دواء لأدواء كثيرة فى محيط المرأة خاصة ، كما أنه شفاء لبعض العلل التى تصاب بها الحياة الزوجية فى بعض الأحيان !

وهذا الدواء الذى يقدمه الإسلام هنا ليس مفروضا فرضاً على كل إنسان وفى كل حال ، بل إنه ـ شأنه شأن كل دواء ـ محكوم بحكم الحاجة وبحسب الحالة . .

فمن خرج به عن هذا الحـــكم فقد ظلم نفسه ، وجاوز حدود الله !

* * *

أمّا الطّلاق ، فإنه عملية بتر يقوم الإسلام بها حين تعتلّ الحياة الزوجية ، وحين لا تكون السلامة للأسرة مرجوة إلا بهذه العملية ، التي تفصل بين الزوجين ، وتقطع أسباب الشقاق الذي يهدد مجتمع الأسرة كله بالانهيار !

إن الزواج شركة بين الزوجين ، غايتها تحقيق منافع متبادلة بينهما ، فإذا وقع بين الشريكين خلاف — وهذا أمر ليس محظورا أن يقع — ثم استحكم هذا الخلاف — وهذا أيضاً أمر ليس مستحيلا وقوعه — كان من الحكمة ، ومن الخير معاً أن ينفصل الشريكان ، وأن يخرجا من هذا الصراع الذي يعيشان فيه ، إلى حيث يجد كل منهما طريقه إلى السّلم والاستقرار ؟

ولا ندرى كيف يُفرض على إنسانين من الناس فرضاً لازماً أن يعيشا عيشة واحدة مدى الحياة ، ثم لا يكون بينهما خلاف ، أو أن لا يتحول ما كان بينهما من حب ومودة إلى كراهية وعداوة ؟ أذلك مما قامت عليه الحياة البشرية وطُبعت عليه نفوس الناس ؟

نعم ما أكثر ما تقوم روابط الحب والمودة بين إنسان وإنسان ، وما أكثر ما يزداد هذا الحب وتلك المودة على الأيام قوة واستحكاماً . . ولكن ليس بالقليل ولا النادر أن يتحول ما بين الحبيبين المتوادّين ، وأن تتقلب القلوب ، وتتبدل الأحوال !

فكيف يُفرض في الرجل والمرأة — أعني الزوج والزوجة — وهما إنسانان أن يخرجا عن هذه الطبيعة البشرية ، فلا يقع بينهما ما يوجب الخلاف والفرقة ؟.. إن ذلك أمر لن يكون أبداً في حياة البشر !

والإسلام لا يخرج بالناس عن طبيعتهم ، ولا يحملهم على ما لا تعطيه هذه الطبائع ، فهم — وإن كانوا أزواجاً — بشر ، قد تطيب حياتهم على العِشرة ودوامها ، وقد يطرأ على هذه العِشرة ما يجعل استمرارها شقاء وبلاء لا شفاء منه إلا بالانفصال والمفارقة . .

فالطلاق رُخصَةٌ ، جعلها الله فى شريعة الإسلام رحمةً تنزل حيث تطلبها الحاجة ، وتستدعيها ، الأحوال . . وليست سيفاً مصلتاً على رقاب الزوجات ، كما يقع ذلك فى كثير من الأذهان . .

وسوء استعمال هذه الرخصة لا يحسب على الإسلام ، وإنما هى أمانة دينية ، يحملها الإنسان فيما حمل من أمانات دينه . . ومطلوب منه — ديناً — الوفاء بهذه الأمانات وأدائها على الوجه الأكمل . . فإن فرط فى الأمانة عُدّ خائناً . . وحسابه على الله !

وماذا يفعل الإسلام غير هذا، لعلاج ما قد يقع بين الزوجين المتآلفين من عداوة وبِغضة ومنابذة ؟

أيفرض على مثل هذين الزوجين أن يعيشا فى هذا البلاء ، وأن يقطعا العمر فى همٍّ ، وحزن ، وشقاء ؟

وهل لو فَرَض الإسلام ذلك ، أتحتمله النفوس وتقبله ، وتسكن إليه ؟

والجواب على هذه نجده فى المجتمعات التى لا تبيح الطلاق فى تلك الأحوال . . فكم جرائم قتل اقترفت ؟ وكم من مخازٍ وفضائح أعلنت ؟ وكم من حِيَلٍ دُبِّرت ؟ . وكم من نيران اتقدت وأتت على مجتمع الأسرة كله ، من شرارة كان من الممكن إطفاؤها ؟

أفهذا ؟ أم مواجهة الأمور فى صراحة ، وأخذها برفق ؟ ومعالجتها بحكمة وعقل ودين ؟

لقد أعطى الإسلام هذه الرخصة ، ورفدها بكثير من الوصايا التى تنبه دائماً إلى أنها « خطر » لا يُستعمل إلا بحساب دقيق ، تتنبه له ملكات الإنسان كلها ، ويستيقظ له وجوده جميعاً عند استعماله . . تماما كما يفعل بالأدوية التى تحوى قدراً من السمّ فيكتب على زجاجاتها فى ورقة حمراء كلمة « سم » !

يقول النبىّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » !

وروى أن عمر رضى الله عنه رأى رجلا همّ بطلاق امرأته « فقال له: لِمَ تطلقها ؟ فقال لا أحبها . ! فقال عمر : أوكل البيوت بنيت على الحب ؟ فأين الرعاية والتذَمم ؟ »[١]

وماذا لو قامت الحياة الزوجية على غير الرِّعاية والتذمم؟ أين العواطف الإنسانية هنا ؟ وأن ما يستشعره كل من الزوجين من أن كلاً منهما إنما يجتمع إلى صاحبه ويسكن إليه، تحت دواعى المودة والحب، فإن لم تكن مودّة وحب.. فرعاية وتذمم.! إذ ليس هناك قوة دينية ملزمة لهما ، إذ بمحض اختيارهما يجتمعان ، وبمحض اختيارهما يفترقان . . أما حين يكون سلطان الدين هو الذى يمسكهما هذا الإمساك الملزم الأبدى ، فإنه لا يكون لهما شأن فى الإبقاء على الحياة الزوجية بينهما ! وإذن فلا وجود لمثل هذه العواطف الإنسانية .

هذا ، وليس الرجل وحده هو الذى يملك حل عُرا الزوجية . حين يكون الحل أهون الشرين . . بل إن للمرأة كذلك هذا الحق ، فلها أن تفارق زوجها ، وتقطع علائق الزوجية بينهما، إذا وقع عليها من عشرتها لزوجها ضرر محقق لا يمكن دفعه ، أو علاجه . . !

جاءت « جميلة » امرأة الصحابى الجليل « قيس بن ثابت » — إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله : لا أجد فى قيس بن ثابت عيباً من خُلُقٍ أو إيمان ، ولكنى لا أجد فى طوقى مجاراته . . فسألها النبى صلى الله عليه وسلم : هل تعيدين إليه حائطه ؟[٢] . . فقالت نعم ! فأمر النبى برد الحائط إلى قيس بن ثابت ، وتطليقها » ! !

---

(١) البيان والتبيين — للجاحظ جزء ٢ ص ٧١

(٢) أى البستان الذى قدمه قيس صداقا لها .

وهذا حكم يلتزمه كل من يجلس مجلس القضاء بين الزوج وزوجه ، لأنه تشريع عام من الرسول ، وليس هناك دليل على تخصيصه بهذه الواقعة .

ولا نريد أن نُنْهِيَ هذا البحث دون أن نلفت النظر إلى كلمة « الطلاق » التى استعملها الإسلام لحل عُرا الزوجية ، وفكَّ رباطها بين الزوجين . ! فهى كلمة تحمل فى مدلولها الحكمة المطلوبة منها ، وهى أنها إطلاق من حياة تحوّلت إلى سجن أو ما يشبه السجن ، حين فسدت الحياة بين الزوجين ، وحين استحكم الشر بينهما ، وبهذا الإطلاق يجد كل من الزوجين منطلقاً فى الحياة !

ومعنى هذا أن الطلاق ليس عملية تشفٍّ وانتقام من الزوج ، وإنما هو — حين يوضع فى موضعه — رحمة بالزوج وبالزوجة معاً . .

وانظر فى تدبير الإسلام لعملية الطلاق . . إنه لم يجعل الطلاق مرة واحدة ينتهى بها الأمر بين الزوجين ، حتى إذا سكنت وَقْدة الشر ، وراجع كل منهما نفسه ، واستشعر الندم والأسف ، وجد الباب قد أُوصد بينهما إلى الأبد ؟. لم يفعل الإسلام هذا ، لأنه يعلم خبايا النفوس ، وتقلبات القلوب . . فجعل الطلاق مرات ثلاث ، ينحسم بعدها الأمر ، حيث اتسع الوقت فى هذه المرات الثلاث لغربلة النفوس وفحصها ، فلم تعط غير هذا الدواء المر ، الذى هو على مرارته خير من الصبر على مكروه لا يحتمل ! وفى هذا يقول الله تعالى : « الطلاق مرّتان ، فإمساكٌ بمعروفٍ ، أو تسريحٌ بإحسان » ، ففى قوله تعالى « أو تسريح بإحسان » أدب إسلامى رفيع يتجه به الإسلام إلى الإنسان ، ليقيمه على منازل الفضل والإحسان ، فى هذه الحال التى تنزع فيها النفوس إلى الشر والعدوان ! وهل تعرف آداب المدنية الحديثة من أدب المعاشرة ما يشبه هذا الأدب الإسلامى أو يقاربه ؟ هيهات ، هيهات !

ولهذا كان من تدبير الإسلام ألا ينفصم ما بين الزوجين إلا ومشاعر الرحمة ملء كيانهما . .

ومن هذا ما شرعه الإسلام من فرض نفقة للمطلقة مدة عدّتها . . فهذه النفقة هى لون من ألوان البِرّ الرحيم ، والصلة الكريمة ، يصل بها الزوج زوجه ، ويطيّب بها نفسها ، وكأنها اعتراف بسابق مودّتها ، وحبها !

ولا تنظرْ فى هذا الذى يقوم بين الزوجين فى ساحات القضاء من مشاحنات ، ومكايد ، وتلفيقات فى مجال النفقة ، فذلك كله ليس من واردات الإسلام ، وإنما هو من آفات الإنسانية وشرورها الكامنة فيها . .

إن « النفقة » التى شرعها الإسلام المطلقات ومَن فى حكمهن تكشف عن إنسانية هذا الدين ، وعن شفافية روحه . . فهى — فى مضمونها — تعبير عن أرق مشاعر الإنسان فى هذا الموقف الذى تغيم فيه النفوس ، وتضطرب الخواطر ، وتحقد الصدور . . وإنها لو جاءت على الوجه الذى أراده الإسلام لها لكانت بلسما شافيا ، ونسمة ندية عليلة فى سموم هذا الجو اللافح المحرق !

* * *

الرق قبل الإسلام ، وفى الإسلام

الجبهة المعادية للإسلام من مبشرين ، ومستعمرين ، وملحدين — هذه الجبهة تتخذ من الرقّ سلاحاً تشهره فى وجه الإسلام دائما ، وبخاصة كلما رأت شُعاعاته تنفذ إلى مواطن جديدة ، وتدخل على قلوب الوثنيين ، واللادينيين بالهدى ودين الحق .. عندئذ يُجَنّ جنون تلك الطوائف المجتمعة على حرب الإسلام، المتحالفة على الوقوف فى سبيله ، وصدّ الناس عنه ، فترمى فى وجهه بكل سلاح يقع ليدها ، تريد أن تطمس معالمه ، وتعمّى على الناس سُبله ، وتخيِّل لهم من موارده الطيبة الصافية أنها خبيثة آسنة ، لا تسكن إليها إلاّ الحشرات والهوامّ ، حاملةً الجراثيم والأوبئة !

والرقيق ، هو واحد من أسلحة هذه المعركة ، وهو أكثرها فَعَالِيةً وأثراً ، فى إفريقية السوداء بالذات ، حيث كانت هذه المواطن مسرحاً كبيراً ، وسوقاً رائجة لصيد الرقيق، والاتجار فيه! وحيث اتجه أهل هذه المواطن فى هذه الأيام إلى الإسلام، يريدونه لهم عقيدة وشريعة !

ويكثر فى هذه الأيام الحديث عن الرقيق ، وتجارته ، وعن الأيدى التى كانت تعمل فيه ، وتتعامل به . . وكان يمكن أن يدع هذه الأحاديث تمرّ دون أن نقف عندها ، أو نلتفت إليها إلا بحساب أنها تاريخ قد مضى ، وصورة من صور الحياة الإنسانية فى بعض أدوار حياتها — كان يمكن أن يكون هذا موقفنا من تلك الأحاديث التى تنشر ، وتذاع هنا وهناك عن الرقيق وتجارته ، لولا أن هذه الأحاديث قد جاءت لتكيد للإسلام كيداً عظيماً ، ولتقف فى وجه سيوله الجارفة فى القارة الإفريقية الآن !

فمنذ تحررت أوطان الإفريقيين فى هذه السنوات الأخيرة أخذت الحواجز التى

كانت تحجز الناس عن الإسلام هناك ، والتى كانت تقيمها الجبهة المعادية للإسلام ، من مبشرين ومستعمرين وملحدين — أخذت هذه الحواجز تتداعى وتنهار ، ولم تجد اليدَ التى كانت تقيمها وتسندها .. من جيوش الاستعمار ،وسياسة المستعمرين.. وكان لابد أن تتلمس تلك الجبهة المعادية للإسلام حواجز أخرى تعزل الافريقيين عن الإسلام ، عوضاً عن تلك الحواجز التى تداعت وانهارت . . ولم يكن من المستطاع إعادة فتح القارة واستعمارها من جديد . . ! وإذن فهناك كثير من الحواجز النفسية والروحية ، يمكن أن تتدسس إلى نفوس الإفريقيين ، وتقيم بينهم وبين الإسلام عداوات تثيرها أحداث مختلفة مزيفة من التاريخ ، ويغذّيها كذب لئيم ، وافتراء خسيس على الشريعة الإسلامية ، وموقفها من الرقيق ،ودورها فى ابتلاء الإنسانية به !

نعم ، فلقد بلغت الجرأة بالقوم ، ودفعهم الحقد الأعمى على الإسلام أن أنكروا أبجديات التاريخ ، وتجاهلوا بدهيات العلم ، فأضافوا إلى العرب — قبل الإسلام — وإلى العرب مع الإسلام ظهور الرقّ فى هذه الحياة . . حتى كأن الناس لم يعرفوا الرقّ إلا عن طريق العرب ، وحتى كأن الحياة لم تشهد الرقّ إلا فى تلك المواطن التى عاش فيها العرب ، أو اتصلوا بها ! !

ونختصر الحديث ، فلا نذهب به بعيداً ، ولا نتتبع أحاديث القوم منذ بدأ الإسلام يدخل أفريقيا السوداء . . بل نكتفى بكلمات قليلة من آخر كتاب ظهر فى هذه القضية الملفقة !

والكتاب مطبوع فى مصر ، وينسب إلى مصرىّ ، يحمل دكتوراه ، واسمه (أى اسم الكتاب) « الإسلام فى أثيوبيا » .. أما مؤلفه فلا داعى لذكره . . رحمة به ، وستراً لحاله !

يقول هذا الكتاب فى إحدى فقراته :

« وتجارة الرقيق ، وما تدرّه من أرباح تفوق حدّ التصور ، تغرى كثيرين على احترافها ، ولهذا اشتغل بها عدد كبير من (العرب)[1] ! . . فيمكننا إذن أن نتصوّر العدد الكبير من العرب الذى اشتغل بهذه التجارة ، وكوّن المراكز التجارية الكبيرة والصغيرة ، واستقر فى هذه المراكز المنتشرة بين قرى شرق أفريقية ، صغيرها وكبيرها ! » .

هكذا يحصر المؤلف تجارة الرقيق فى العرب ، ثم يحصر مواطنها فى شرق إفريقية . ! ومفهوم هذا أن العرب هم أصل البلاء ، ومصدر هذه المحنة التى ابتلى بها هؤلاء الإفريقيون ، وشقى بها آباؤهم وأوطانهم أجيالاً بعد أجيال ! !

ولو وقف الأمر عند هذا الحدّ لهان ، ولكن يأبى المؤلف إلا أن يجىء بالإسلام مسانداً للعرب ، فى اصطياد الرقيق ، ومزكيًّا هذا العمل ، ومباركا تلك التجارة ! !

وأين كان ذلك ؟

فى إفريقية !

إفريقية التى تفتح أبوابها الآن للإسلام ، وتهتف به ، ليكون فى قلبها وفى عقلها ، وهى تبنى حياتها الجديدة ، وتُرْمِى قواعدها على أصول راسخة من الدين والعلم !

يقول الكتاب : « ولكنّ الإسلام وحَّد بين العرب ، وحَدَّ من خصوماتهم ، وأوقف غزواتهم التى كانوا يشنونها على بعضهم ، كما حرّم أن يسترقّ مسلم مسلماً !

---

(١) كأن العرب وحدهم كانوا هم تجار الرقيق فى العالم ! (ياللكذب الفاجر !)

« وبذلك نقص مورد من موارد الرقيق الذين كان يعتمد عليهم العرب فى حراسة قوافلهم ، وزراعة أرضهم ، وخدمتهم !

« فلابد إذن من تعويض هذا المورد الذى قطعه عنهم إسلامهم ! ».

ومن أين يلتمس هذا المورد ؟ وكيف تسعف الأيام به ؟

يجيب الكتاب على هذا ، إجابة قاطعة حاسمة . .

« وليس هناك من مكان يستطيع أن يسدّ هذا النقص سوى الساحل الإفريقى للبحر الأحمر ، وما يسكنه من مورد لا ينقطع من شعوب سوداء ! ! »

إفريقية إذن هى السماء التى تمطر ذهباً وفضة وعبيداً ، وإماء . . للعرب . . فى الجاهلية ، وفى الإسلام . . !

والإسلام ، بما كان منه من توحيد العرب ، ورفع أيدى بعضهم عن بعض ، وبتحريم استرقاق المسلم للمسلم ، قد سدّ منا فذا الرزق كلها على العرب ، إلا منفذاً واحداً هو ساحل البحر الأحمر ، ومايسكنه من مورد لاينقطع من شعوب السودان !

وإذن . . فماذا ؟

لا نستنتج شيئاً . . فقد أغنانا الكتاب عن ذلك ، وجاء هو بالنتيجة اللازمة ، والمطلوبة من هذه المقدمات . .

يقول الكتاب :

« فلابد إذن من أن تَنْشَط تجارة الرقيق بعد الإسلام ، عما كانت قبله ، وأن يشتغل بها عدد كبير ، وأن يحتاج إلى عدد ضخم من الأعوان والمعاونين !! »

أرأيت ؟

لقد نمّى الإسلام تجارة الرقيق ، وعمل على رواجها وانتشارها . . هكذا على الإطلاق.. بدون قيد لزمان أو مكان !!

بل وأكثر من هذا . . لقد ربّى الإسلام أعوانًا ومعاونين — من غير المسلمين — لاحتراف هذه التجارة . . فإذا رأيت أو قرأت ، أو سمعت بأن تاجراً غير مسلم ، أو بلداً غير إسلامى مارس هذه التجارة ، فهى من واردات الإسلام ، ومن صنعه ، وتربيته !

هذه نفثة من النفثات المسمومة التى تتساقط من أفواه الحاقدين وأقلامهم ، يُلْقون بها فى مناهل الإسلام السائغة الطيبة ، حتى يتحاشاها الناس ، ويَزْوون وجوههم عنها !

وندع هذا السَّقَطَ من الكلام ، وهذا الزور من القول ، وتلك السفاهة الوقاح ، المتطاولة على الشمس ، تنكر ضوءها الذى يملأ هذا الوجود !

وننظر فى القضية من أصلها . . ونستدعى لها التاريخ شاهداً . .

ونسأل :

هل كان العرب هم المجتمع الوحيد فى هذا العالم الذى استرقّ الإنسان ، وأوجد نظام الرقيق ؟

ثم هل كان الإسلام شريعةً تزكّى الرقّ ، وتعمل على انتشاره وذيوعه ؟

وفى الإجابة على هذين السؤالين من صحف التاريخ ، ينجلى الموقف فى هذه القضية ، ويظهر مدى المسخ الذى يصيب الحقائق ، حين تقع كيد الأهواء ، وتلوكها أفواه الغلّ والحسد .

الرقّ فى حياة المجتمع الإنسانى :

وإذا كان الرقّ صورة من صور البغى والتسلط من الإنسان على الإنسان ، من القوىّ على الضعيف ، فلا نعدو الحقّ إذا قلنا إنه صحب الإنسانية منذ كان

لآدم ولد فى هذه الأرض . ! وفيما حدث بين أول أخوين فى الدنيا — قابيل وهابيل — من عدوان أحدهما على الآخر ، ومحاولة انتزاع ما فى يده ، ظلماً وحسداً — فى هذا الحدث الذى انتهى بأول جريمة قتل ، وسفك دم على هذه الأرض ؛ شىء أكثر من الرقّ ، الذى قد يؤثره بعض المستضعفين على الموت ، على حين تجد بعضُ النفوس الأبيّة الموتَ خيراً من الاسترقاق والعبودية ، كما فعل الشاعر العربى الصعلوك — تأبط شراً — حين حاصره أعداؤه ، وكاد يقع أسيراً فى أيديهم ، أو يُسفك دمه . . فاختار خير الشرين ، وفى الشر خيار ، إذ يقول :

هما خُطتا إمّا إسار ومنّة وإما دم ، والقتل بالحرّ أجدَرُ

وتمضى الحياة بأبناء آدم ، وفى كفتى ميزانها أقوياء وضعفاء ، وأشرار وأخيار ، وذئاب وحُملان . . وإذا أفراد ، وجماعات ، وقبائل ، وشعوب ، وأمم تُستعبد ، وتخضع لأفراد وجماعات ، وقبائل ، وشعوب ، وأمم ! ويكفى شاهداً ماثلا لهذا ، هذه الرقعة الواسعة من العالم التى وقعت فريسة فى فم الاستعمار ، والتى استبيحت حرماتها من دماء وأموال وأعراض . . بلا حساب ! ولا تزال إلى اليوم شعوب وأمم لم تخلص بعد من هذا البلاء !

فإذا نحن تركنا الحاضر الماثل ، وقلّبنا صحف التاريخ ونظام الطبقات ، الذى أقام كل جماعة من الناس فى موضع لا تتجاوزه ، فكان الناس فى هذا النظام أشبه بأعضاء الجسد فى الجسد . . بعضهم رءوس ، وبعضهم أقدام . . بعضهم عقول تفكر ، وبعضهم دُمًى تتحرك ، وأدوات تعمل ! — نجد عَجَباً .

ونستدعى الشاهد هنا من أوربا ، ومن أقدم وأعرق حضارة فيها . . من أثينا ، وروما . . قبل الميلاد ، وقبل الإسلام !

ولا شك أن « أرسطو » هو الذى كان صاحب الدور الأول فى بناء العقل

الأوربىّ الحديث ، وعليه تتلمذ الفلاسفة والمفكرون الذين أقاموا دعامة الحضارة الأدبية الحديثة .

وعلى هذا، فإننا سنكتفى بعرض رأيه فى المجتمع الإنسانى، وتمايز أفراده تمايزا يجعل من بعضهم سادة بالطبيعة ، وبعضهم عبيداً بالطبيعة أيضا . .

يقول « أرسطو »

« ينبغى الآن أن يُنظر . . أيوجد أناسىّ جملهم الطبع كذلك — أى عبيدا — أم لا يوجد . . ألبتّةَ . . وفى حق مَنْ — أيًّا كان — يصير عدلاً ونافعا أن يكون عبداً . . أم أن كل استرقاق هو مضاد للطبع ؟

ويجيب أرسطو على هذا بقوله :

« العقل والواقعيّات يمكن أن تحل مع اليسر هذه المسائل . . !

« فالأمر والطاعة ليسا شيئين ضرورين فحسب ، بل هما أيضا شيئان نافعان كل النفع ! !

« بعض الكائنات منذ الولادة ، مخصص بعضها للطاعة والآخر للإمرة . . ولو على درجات وفروق شديدة التخالف بالقياس إلى هؤلاء وهؤلاء . . . »

ولا يقنع الفيلسوف المظيم بأن يلقى أحكامه هكذا من غير حجة وبرهان . .

وها هو ذا يقيم لها الحجة والبرهان . . فيقول :

« هذان المنصران : — الطاعة والإمرة — توجدان فى كل مجموع مكوّن من عدة أشياء بالغة نتيجةً عامة [1] ، منفصلة كانت تلك الأشياء أو متصلة . .

« هذا هو وضع فرضه الطبع على كل الكائنات الحية . . بل ربمّا أمكن

---

(١) يريد أشياء ذات تفاعل بعضها مع بعض بحيث يثمر هذا التفاعل ثمرة مشتركة بينها .

أن يكشف بعض آثار لهذا المبدأ حتى فى الأشياء التى بلا حياة . . . مثال ذلك : الانـجام فى الأصوات ! ! غير أن هذا ربما يجرنا إلى أبعد من موضوعنا ! »

إلى هذا الحدّ من الاعتداد باختلاف الطبائع وتمايزها، علوًّا وإسفافا ، فى الجنس الواحد ، مضى الفيلسوف بنظرته أو نظريته فيشمل بها عالم الجماد . . ويضرب لهذا مثلا بالنغم الموسيقى ، الذى ينشأ من انسجام الأصوات ، هذا الانسجام الذى لا معنى له إلا متابعة الأصوات الضعيفة للأصوات القوية ، وذوبانها فيها !

ويمضى « أرسطو » فى شرح القضية ، وتقديم الأدلة بين يديها . . فيقول :

« بديًّا . . الموجود الحىّ هو مركب من روح ومن جسد . . كان [1] أحدهما بالطبع ليأمر ، والآخر ليطيع .

تلك هى — على الأقل — إرادة الطبع التى يهم أن تدرس فى الـكائنات العليا ، على حسب قوانينه المرتبة ، لا فى الـكائنات الدنيا .

« وإن سلطان النفس هذا بيِّنٌ ، فى الإنسان الـكامل ، سليم العقل والبدن ، وهو وحده الذى ينبغى أن نختبر ذلك فيه .

أما فى الفاسدين من الناس ، أو المستعدين للفساد ، فإن الجسم أحيانا يتسلط على النفس . . ذلك أن نموهم غير المرتب هو ضد الطبع تماما .

ثم يقول . .

« أكرر أنه ينبغى إذن أن يُعرف — بادىء الأمر — فى الـكائن الحىّ وجود سلطة تشبه سلطة سيد وسلطة حاكم معاً .. النفس تتسلط على البدن .. كسّيد على عبده ! والعقل مع الغريزة . . كحاكم ، كملك ! !

« وإذن فبديهى أنه لا يستطاع إنـكار أن يكون من الطبيعى ، ومن الخير للجسم ، أن يطيع النفس ، وللجزء الحساس من ذاتنا أن يطيع العقل والجزء العاقل ، وأن المساواة أو انقلاب السلطة بين هذه العناصر المختلفة يكون شراً للجميع !

---

(١) كان هنا تامة بمعنى وجد

« والحال كذلك بين الإنسان وسائر الحيوانات . . المستأنسة أحسن من الحيوانات المتوحشة . . وأن تكون خاضعة للإنسان فتلك مزية كبرى لها ، من حيث أمنها نفسه . . ومن جهة أخرى فإن الربطة بين الجنسين هى على هذا النحو . . فإن أحدهما أرق من الآخر . . ذلك كان ، ليَحكم ، والأخر كان، ليطبع ! . . »

وإذ يبلغ الفيلسلوف من منطقه إلى هذا الحدّ ، يجىء إلى صميم القضية التى يعالجها . . فيقول :

« ذلك هو أيضاً القانون العام الذى يجب ضرورة أن يسود بين الناس ، فمتى كان المرء أحط من أمثاله ، كما يكون الجسم بالقياس إلى النفس ، والبهيمة إلى — كان هو الرقيق بالطبع !

ويقول :

« على أن منفعة الحيوانات المستأنسة ومنفعة العبيد كلها شىء واحد ، فإن هؤلاء وهؤلاء يساعدوننا بقواهم المادية فى قضاء حاجات المعيشة ! !

ثم يَخلُص من هذا إلى حكم قاطع فيقول :

« ومهما يكن من شىء فَبَيِّنٌ أن البعض هم بالطبع أحرار ، والآخرين بالطبع عبيد ، وأن الرقّ فى حق هؤلاء نافع بمقدار ماهو عادل ! ! . . .

« يكون المرء سيدا ليس ألبتة لأنه يعرف أن يحكم ، بل لأن له طبعاما ! . . ويكون الإنسان عبدا أو رجلا بميزات مشابهة كذلك . !

« يمكن بالبديهة إذن أن نسمو بهذه المناقشة ونقرر أنه يوجد بفعل الطبع عبيد ، وأناس أحرار ... وإن العبد هو جزء السيد ، وأنه كجزء حىّ من جسمه ، وإن يكن منفصلاً عنه . . كذلك بين السيد والعبد ، مادامت الطبيعة هى التى صنعتهما كليهما . . . [١] » .

---

(١) انظر فى هذا الكتاب السياسية لأرسطو ، ترجمة أحمد لطفى السيد (الباب الثانى)

ولا نريد أن نناقش رأى « أرسطو » ، هذا ، وما فيه من عدوان على الفطرة الإنسانية ، وصبّ الناس فى قوالب محددة ، لا تسمح لأحد بالتحرك ، إلا فى هذا القالب !

لا نناقش هذا الرأى،وإنما يكفينا أن نأخذ منه الشاهد على أن الحياة الإنسانية وتقلب أحوال الناس فيها ، وقيام صور صريحة واضحة من الفوارق بين الناس ، بحيث أمكن أن تتشكل من هذه الظاهرة قضية يعالجها العقل ، بل وتُبنى عليها الحياة العقلية عند أكبر فلاسفة شهدتهم الحياة — هذه الحياة الإنسانية قبلت الرق على أنه أمر واقع لا مفر منه .

وعلى هذا ، فإننا نستطيع أن نقرر أنه إذا كان فى وسع الضمير الإنسانى أن ينكر الرق . . وأن يراه جريمة شنعاء ترتكب فى حق الإنسانية — فإنه ليس فى وسع العقل أن ينكر واقعاً يعيش فيه الناس وتتعامل به الحياة ، وإن اختلفت صوره ، وتباينت أشكاله ، وتعددت مظاهره !

إن حالة الحرب تعطى المتحاربين فى هذا العصر حقّ الأسر . . هذا الحق الذى يجعل الأسرى فى يد آسريهم فى حال أسوأ من الرقيق . . فقد يجد الرقيق فى ملك مسترقه رعاية وعناية أكثر مما يجده أحسن الأسرى حالاً ، وأطيبهم مقاماً . . إذ كان الرقيق — فى أسوأ أحواله — مالاً ، يحرص صاحبه على تنميته وسلامته . . أما الأسير ، فهو عبء ، ربما كان من المصلحة التخلص منه !

الديانات السماوية والرِّق :

وإذ كان سلطان القوة قائماً فى الحياة ، وإذ كان الأقوياء موجودين دائماً فى كل زمكان ومكان ، حيث يجدون من يَذِلّ لسلطانهم ، ويخضع لقوتهم ، فإن الأديان السماوية لم تجد من التدبير الحكيم لرسالاتها أن تحمل إلى الناس دعوة تنكر عليهم هذه الطبيعة المتمكنة فيهم ، وأن تجعل من الأقوياء والضعفاء

كياناً واحداً ، فذلك أكثر من أن يحتمله الناس ، وأن يستجيبوا له !

فهكذا وُلد الناس ، وهكذا يحيَوْن !

تقول التوراة :

« وابتدأ نوح يكون فلاحاً ، وغرس كرماً ، وشرب الخمر ، فسكر وتعرّى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر به أخويه خارجاً . . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ، ومشيا إلى الوراء ، وسترا عورة أبيهما ، ووجهاهما إلى الوراء ، فلم يبصرا عورة أبيهما .. فلما استيقظ نوح من خمره علم مافعل ابنه الصغير ، فقال ملعون كنعان (ابن حام) .. عبداً يكون لأخوته !! وقال : يبارك الرب إلـه سام ، وليكن كنعان عبداً لهم . . ليفتحْ الله ليافث فيسكن فى مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم » (تـكوين ٩ : ٢٠—٢٧) »

وإذا كان سام هو الذى فعل هذه الفعلة التى آذت أباه نوحاً ، فإن اللعنة لم تقع عليه ، بل رمى بها نوح « كنعان » ابن حام ، فإنها على أية حال لعنة قد أصابت ثلث هذا العالم على الأقل ، فجعلت هذا الثلث عبيداً للثلثين الآخرين !

وفى أسفار التوراة أحاديث كثيرة لا تـكاد تحصر ، عن العبيد ، والخدم ، والرقيق فى خدمة الرسل ، والأنبياء ، وفى مِلْك يمينهم !

وفى الأناجيل التى تروى أحاديث السيد المسيح يضرب المسيح كثيراً من الأمثال للعبيد الذين يعملون فى مِلـكة أسيادهم !

يقول السيد المسيح : « فمن هو العبد الأمين الحـكيم الذى أقام سيده على خدَمه ليعطيهم الطعام فى حينه ؟ طوبى لذلك العبد الذى إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا »[١].

---

(١) انجيل متى ٢٤ : ٤٥

ويقول : « من منكم له عبد يحرث أو يرعى يقول له إذا دخل من الحقل : تَقَدَّمْ سريعاً واتَّكِيء ؟ بل ألا يقول له : أعدِدْ ما أتعشَّى به وتمنطق واخدُمنى حتى آكل وأشرب ، وبعد ذلك تأكل وتشرب ، فهل لذلك العبد فضل، لأنه فعل ما أمر به ؟ لا أظن ؟ »(٢)

وما كان المسيح عليه السلام لينسج أمثاله من باطل ، أو يقيمها من ضلال ، ولكنه يأخذ مادتها من واقع الحياة التى يتقلب الناس فيها .

لا نقول هذا لنتّهم الديانتين — الموسوية والعيسوية — بالإغراء باسترقاق الناس ، واستعباد طائفة منهم لطائفة . . ومعاذ الله أن نقول بهذا ، فما جاءت الأديان إلا لتحرير الإنسان بكيانه كله . . الجسدى والروحى والعقلى ! ولكنا نقول هذا لنقرر أمراً واقعاً، وهو أن الرق قد اتصل بالحياة الإنسانية اتصالا لم يكن من الحكمة فى أكثر الأحيان التخلص منه بأمر سماوى ملزم .

ونقول هذا أيضاً فى مواجهة الدعاوى الباطلة التى يدعيها أعداء الإسلام بأنه لم يحارب الرق ، ولم يأت بحكم قاطع بتحريمه . . وقد قلنا من قبل إن الإسلام كشريعة عاملة فى الحياة لا يستطيع أن ينتزع من الحياة داء كامناً فى الطبائع، متمكناً من النفوس ، فإنه إن فعل أوقع الناس فى حَرَج ، وجاء إلى النفوس بما لا يطاق..

وقد بُنى الإسلام على السماحة واليسر.. « لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها » .

ولكن الإسلام مع هذا لم يدع هذا الداء يستشرى ، بل طَبَّ له ، وقدم من الدواء ما يُرجَى معه الشفاء . . وإن كان ذلك على زمن متطاول ، فإنه خير من عملية بَتْر، قد تذهب بالجسد الاجتماعى كله ، أو تحلّ عقد نظامه، وإن كان واهياً !

الإسلام وعلاج الرقّ :

والحقيقة التى تقع موقع البدهيات ، والتى يكون طلب الدليل لها ، أو إقامة

(٢) انجيل لوقا ١٦ : ٧ — ٩

البرهان عليها — استخفافاً بالعقل ، وعبثاً به — هذه الحقيقة هى أن الإسلام — كما قلنا — التقى بالحياة والرقيق فيها يملأ وجه الأرض ، والأرقاء يأخذون وضعاً يكاد يكون مستقراً إلى جانب الحيوانات وأدوات الإنتاج ، لا يكادون يتحولون عنه ، أو يطمعون فى التحول عنه !

وأكثر من هذا . . فقد أصبح وضع الرقيق فى الحياة على هذا المستوى البهيمى أمراً ينظر إليه الناس — حتى الرقيق أنفسهم — على أنه طبيعة وجِبِلّة ، فكما خلق الكلب كلباً ، والحمار حماراً ، والذباب ذباباً . . كذلك خلق العبيد عبيداً . . هكذا استقر هذا المفهوم للرقيق فى عقول الناس جميعاً . . الفلاسفة والعامة على السواء ! !

وأكثر هذا أيضاً . . لقد بلغ حساب الرقيق فى دنيا الناس إلى درجة أن سُوِّى بحساب البهائم والدواب ، سواء بسواء ، فأقيمت لهم الحظائر بعيداً عن منازل السادة . . تماماً كما يفعل بقطعان البقر والأغنام — ثم حين كثرت هذه الحظائر واندحت دوائرها تحولت إلى أحياء معزولة فى المدن ، أو قرى قائمة فى ضواحيها .! ولا يزال زنوج أمريكا إلى اليوم يعيشون فى تلك المنازل أو الحظائر المخصصة لهم إلى اليوم ! وتشهد ثورة العبيد فى روما — بقيادة باراكوس العبد — التى هزمت جيوش الامبراطورية الرومانية وكادت تذهب بها — تشهد هذه الثورة بأن العبيد كانوا يعيشون فى مقاطعات مخصصة لهم ، وأنهم كانوا أمّةً — من العبيد — فى كيان أمة . من الأحرار !

هكذا كان الرقيق على هذه الأرض يوم التقى الإسلام بالناس !

تلك حقيقة لا يجادل فيها من له مَسْكَةٌ من عقل ، أو كان فى وجهه قطرة من حياء !

فماذا كان من الإسلام فى أمر الرقيق ؟ وماذا حمل من دواء لهذا الداء ؟

يعلم الإسلام أن الداء خبيث ، متمكن من الناس ، آخذ وضعاً يكاد يكون قائما على حكم الفطرة والطبيعة .. فكان لابد والأمر كذلك من أن يجيء إليه من كل جهة ، وأن يلقاه بكل سبيل ، وأن يأخذه بالحكمة والتلطف ..

إن الأفاعِيَ لايطاقُ لقاؤها وتُنال من خلفٍ بأطراف اليد

وانظر صنيع الإسلام فى هذا :

أولا : دعوة عامة إلى الإخاء :

لقد وَلد الإسلام الناس ولادة واحدة .. من رحِمٍ واحدة هى الأرض .. !

وفى هذا يقول الله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً [1] » .. ويقول سبحانه . « ولَقَدْ خلقنا الإنسان من سُلاَلَة من طينٍ .. » [2] ويقول جل شأنه « يأيها النّاسُ إنّا خَلَقْنَا كُمْ من ذكرٍ وأنثى ، وجعلنا كم شعوباً وقَبَائل لِتَعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقا كم .. » [3]

ويقول النبيّ الكريم : « أيها الناس .. إن إلهكم واحد .. وإن أبا كم واحد .. كُلُّكم لآدم ، وآدم من ترابٍ ... »

فإلى هذا النسب يرجع الناس جميعاً ..

وإذن ، فلا دعوى لإنسان على إنسان أنه خير منه .. بمولد ، أو موطن ، أو جنس ، أو لون .. وإنما يتمايز الناس ، ويفْضُل بعضهم بعضاً بالعمل الطيب النافع ، الذى يقُدره عليه جهده وسعيه !

ولا شك أن هذه الدعوة قد كان لها أثرها ، حيث صافحت الآذان وسلكت مسالكها إلى العقول والقلوب .. فاستبصر بها كثير من الناس بعد عمى ، وتنبه

---

(١) سورة نوح آية ٢٧
(٢) سورة المؤمنون آية ١٢
(٣) سورة الحجرات آية ١٧

كثير منهم عن غفلة ، وأخذ كثير منهم ممن كان يعيش فى إهاب مدبوغ بأصباغ الحسب والنسب ، مضمّخ بمفاخر الآباء والأجداد — أخذ ينزع عنه هذا الإهاب الزائف وينضو عنه هذا الجلد المرقع ليلبس جلد الإنسان ، أيًّا كان لونه .. أسود أو أبيض ، أو أحمر ! ..

وباستصحاب هذا الشعور الإنسانى أمكن أن يعيش السيد والعبد إخوة ، ليس بينهم حِجَازٌ ما بين السادة والعبيد ! ثم لاتلبث هذه الأخوة أن تثمر ثمرتها ، فيخلى السيد العبد من يده ، حتى يعتدل ميزان الأخوة القائمة بينهما !

ولا شك أن هذا الشعور الذى دخل على المسلمين من دعوة الإسلام هذه قد حرّر كثيراً من العبيد ، وفكّ رقابهم !

ولكن مع هذا ، قد ظل كثير من الناس على ولائهم لأنفسهم أكثر من ولائهم لداعى الأخوة ، فأمسكوا بالرقيق ، وصحبوهم صحبة العبيد ، وإن أحسنوا معاملتهم ، وترفقوا بهم !

فكان لابد والأمر كذلك — من دعوة أو دعوات أخرى ! .. وقد كان !

ثانياً : الدعوة إلى تحرير الأرقاء :

والرقيق مال له وزنه ، وله حسابه عند من هم فى حاجة إلى المال ، أو فى حال من الحرص عليه ، والرغبة فى الاستزادة منه .

ومثل هؤلاء وهؤلاء لا يرضون بترك ما فى أيديهم من هذا المال إلا بعوض يرونه مجزياً ، غير مفوّت عليهم شيئًا ! سواء كان هذا العوض ماديا أو أدبيا ، معجلا أو مؤجلا .. المطلوب هو أن يكون هناك عوض ما .

وقد عرض الإسلام فى هذه السوق من أعيان المعاوضات وصورها ما يسع كل من فى يدهم رقيق ، وما يحقق لهم عوضاً مجزياً، إذا هم نزلوا به فى هذه السوق !

ومن ذلك :

١ — العوض المالى :

دعا الإسلام مَن فى مِلْكتهم رقيق أن يستجيبوا لرغبة من ملكت أيديهم إذا هم دعوهم إلى شراء أنفسهم منهم !

وصورة هذا، هو أن يتقدم الرقيق إلى مَن مَلَك رقبته، ويطلب إليه أن يبيعه نفسه فى مقابل مال يتفقان عليه . . فإن اتفقا على الثمن ، أعطى السيد عبده كتاباً بهذا ، يحدد فيه قدر المال الذى كاتبه عليه ، ويسمى الرقيق فى هذه الحال مُكاتَباً إلى أن يؤدى المال المكاتب عليه . .

يقول سبحانه وتعالى : « والذين يبتغون الكتابَ مِمَّا ملكتْ أيمانُكُمْ ، فكاتبوهم ، إن عَلِمتُمْ فيهم خيراً ، وآتوهم من مالِ الله الذى آتاكم »(١)

وهذا القيد الذى ورد فى الآية : « إن علِمتم فيهم خيراً » إنما هو لمصلحة الرقيق نفسه ، بمعنى أن مالك رقبته لا يكاتبه إلا إذا رآه صالحاً لأن يستقلّ بنفسه ، ويكسب ما يسدّ حاجته ، وإلا فإن إطلاقه هذا تضييع له ، واستنبات لخمائر فاسدة فى المجتمع تتكون منها جماعات من الضائعين، الذين يعيشون فى تيه الحياة . . بلا هدف ولا عمل .

يقول ابن عباس رضى الله عنه فى معنى قوله تعالى : « إن علمتم فيهم خيراً » أى علمتم لكم حيلة ، ولا تُلقوا مُؤْنَتهم على المسلمين » .

---

(١) سورة النور آية ٣٣

وإذا كان الرقيق لا يملك شيئاً ، فإن هذه المكاتَبة إذا لم تُرفَد بتدبير يبلغ بها غايتها كانت ضرباً من العبث ! . . ولهذا فقد دعا الإسلام إلى أن يخفّ المسلمون لمساعدتهم ، وتقديم العون المستطاع لهم . . فقال تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » وذلك تعقيباً على الدعوة بمكاتبتهم ، وهذا الأمر يشمل السيد المكاتِب ، كما يشمل المسلمين جميعاً . .

وذلك بأن ينزل السيد عن شيء من الثمن الذى كاتب الرقيق عليه . . وقد اختلف العلماء هل هذا النزول على سبيل الوجوب أو الندب ، كما اختلفوا فى قدره بالنسبة إلى المال المكاتَب عليه . . ويروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان يرى أن يحطّ مولى العبد المكاتب ربع ما كاتبه عليه .

وقد دعا الإسلام فى أكثر من آية من آيات الكتاب الكريم إلى مساعدة المكاتَبين ، والمشاركة فى تخليصهم من العبودية . . فقال تعالى : « ليس البرَّ أنْ تُوَلُّوا وجوهكُمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ، ولكنّ البرَّ من آمنَ بالله واليوم الآخرِ ، والملائكةِ ، والكتابِ ، والنّبيين ، وآتى المالَ على حُبِّهِ ذوى القربى ، واليتامىّ ، والمساكينَ وابنَ السّبيل ، والسائلينَ وفى الرّقابِ »[1] . وقال تعالى : « فلا اقتحم العقبةَ ، وما أدراك ما العقبةُ ، فكّ رقبةٍ ، أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مسغبةٍ ، يَتيماً ذا مقربةٍ ، أو مِسْكيناً ذا متْربةٍ »[2] .

ولم يكتف الإسلام بهذا فى هذا الموقف ، ويجعله إلى الندب والاستحباب ، بل أقام إلى جانب ذلك يداً تمتد بالعون على طريق الفرض والإلزام ، وذلك فى مال الزكاة التى فرض الإسلام فيها حقاً لهؤلاء المكاتبين ، وجعل فكّ رقابهم مصرفاً من مصارفها ، فقال تعالى : « إنما الصّدقاتُ للفقراء والمساكينِ والعاملينَ

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧

(٢) سورة البلد آية ١١ — ١٦

عليها والمؤلفة قُلُوبُهُمْ وفى الرقاب، والغارمين، وفى سبيل الله ، وابن السبيل»[١] ..
ففى الرقاب هنا هم المكاتبون الذين يسعون للخلاص من الرقّ .

(ب) العوض بما يقابل المال أو الجهد :

هناك أعمال يرتكبها المسلم مخالفاً بها شريعة دينه ، فإذا أراد أن يكفّر عما ارتكب . . كان كفارة ذلك مالاً ينفقه ، أو عبداً يعتقه ، أو أياماً معدودات يصومها . . وقد لا يكفّر بعض الذنوب إلا بأكثر من واحد منها . . وقد يكون بعضها ألزم من بعض ، فلا يجزى أحدها عن الآخر فى حال الإمكان منه . . كما سنرى :

١ — ففى الحنث باليمين . . كفارته على ما يقول به القرآن الكريم : « لا يؤاخذكم اللهُ باللَّغْوِ فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عَقّدتمُ الأيمان ، فكفارتُه إطعامُ عَشْرةِ مساكينَ من أوسطِ ما تُطْعِمُونَ أهليكم ، أو كسوتهم أو تحريرُ رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثةِ أيام . . ذلك كفارةُ أيمانكم إذا حلَفْتُم واحفظوا أيمانكم »[٢]

فهنا يجىء تحرير الرقبة مقابلا لإطعام عشرة مساكين أو كسوة عشرة منهم . . فالرقيق هنا مال مقوّم بهذا القدر، والحانث مخيّر فى أن يكفّر عن يمينه بأىٍّ منها . فإن لم يجد مالاً يطعم به أو يكسو ، أو لم يكن يملك رقيقاً يعتقه . . كان صوم ثلاثةِ أيام مجزياً عنه .

٢ — وفى القتل الخطأ لنفس مؤمنة . . يكون عتق الرقبة أمراً واجباً فى الكفارة عن هذا القتل إذا كان فى يد القاتل رقيقاً مملوكاً . . فإن لم يكن فصيام شهرين متتابعين . . وفى هذا يقول الله تعالى :

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠
(٢) سورة المائدة آية ٨٩

«ومن قتل مؤمناً خطئاً فتحريرُ رقبةٍ مؤمنة ، ودِيةٌ مسلَّمةٌ إلى أهله إلاَّ أن يصدَّقوا.. فإن كان من قومٍ عدوٍّ لكم وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مؤمنة . وإن كان من قومٍ بينكم وبينهم ميثاق فَدِيَةٌ مسلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيامُ شهرين متتابعين »[1]

وقيد تحرير الرقبة بمؤمنةٍ هنا ، لأن القتيل مؤمن ونفس مؤمنة بنفس مؤمنة !

٣ — وفى الظِّهار — وهو أن يقول الرجل لزوجه أنت علىّ كظهراً أمى — يريد تطليقها وتحريمها بهذا البِدْع من القول — أوجب الإسلام كفارة للتطهر من هذا الإثم ، بحيث لا يحِلّ للرجل أن يعيد زوجه إليه إلا إذا تطهّر بهذه الكفارة . . وفى هذا يقول الله تعالى :

« الّذين يُظاهِرونَ منكم من نسائِهم ما هُنَّ أمهاتِهم.. إنْ أُمَّهاتُهم إلاّ اللاّئى ولَدْنَهم ، وإنّهم ليقولون مُنكَراً من القول وزُورا ، وإنّ الله لعفوٌّ غفورٌ . . والّذين يُظاهِرونَ منكُم من نِسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقَبَةٍ من قَبْلِ أن يتَمَاسَّا ، ذلكم توعظونَ به واللهُ بما تَعملونَ خبيرٌ ، فمن لم يجِدْ فَصيامُ شهرين متتابِعَيْن من قَبلِ أن يتماسَّا ، فَمَنْ لم يَسْتَطِع فإطعام ستّينَ مسكيناً[2] » .

ويلاحظ هنا أن فك الرقبة هو المطلوب أولاً ، بحيث لا يُقبل غيره من صيام أو إطعام إذا وجد الرقيق فى ملكة المظاهر .

هذه وجوه فتحها الإسلام لإخراج الرقيق من أسر العبودية إلى آفاق الحرية الواسعة ، حيث يجد كثير من هؤلاء الضائعين وجودهم ، ويستردون إنسانيتهم !

وقد كان لهذه الوجوه الملزمة فى أكثر الأحوال أثرُها فى تحرير أعداد لا حصر لها من الرقيق ، فى المجتمع الإسلامى ، بحيث كان مطلع كل يوم يأتى وقد حملَ

---

(١) سورة النساء : ٩٢

(٢) المجادلة : ٢ ، ٤

إلى كثير من هؤلاء الأرقاء بُشْرَيَات مسعدة بالخروج من السجن المؤبد المطبق عليهم ، وعلى ما يكون لهم من ذرية . . كما كان لهذه الوجوه أيضاً أثرها فى فتح منافذ الأمل والرجاء لهؤلاء الذين باتوا فى أسر الرق ، وقيد العبودية . . فما أكثر الأحلام الطيبة التى كانت تطرق هؤلاء الأرقاء فى صحوهم ونومهم بما سيطلع عليهم به الغد من أحداث ، تتغير بها مجرى حياتهم ، وتتحول معها أحوالهم .

ومع هذا كله ، فقد ظل كثير من الأرقاء فى أمر الرِّق ، لم تتسع لهم هذه المنافذ التى فتحها الإسلام من كل جهة . . فهل انتهى ما عند الإسلام من دواء لما بقى من هذا الداء ؟

إليك الجواب :

(ج) العوض .. ثواب الله ورضاه :

وهذا باب واسع فتحه الإسلام لتحرير الرقيق ، ورصد لمن يبيعونهم لله ، ثواباً مدخراً ليوم القيامة « يوم تجد كلُّ نفس ما عملت من خير مُحضَراً » .

ومن هذا الباب الفسيح دخل كثير من الرقيق إلى عالم الإنسانية ، حيث تسابق للبيع فيه كل من آمن بالله ، وابتغى مرضاته ، والاستزادة من فضله ورحمته ، وما أكثرهم !

يقول النبى الكريم « أيما امرؤ مسلم أعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً منه من النار »(١)

وعن سهل بن حَنيف ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أعان مجاهداً فى سبيل الله أو غارماً فى عُسْرته ، أو مكاتَباً فى رقبته أظله الله يوم لا ظل إلا ظله »(٢)

---

(١) البخارى ومسلم .
(٢) مسند أحمد .

وقد استجاب المسلمون لهذه الدعوة الكريمة ، حتى لقد كان كثير منهم ينخلع بكلمة واحدة عن جميع ما فى يده من رقيق . فيقول لمن فى يده : أنت حر لوجه الله ، أو أنتم أحرار لوجه الله! وكان النبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه القدوة الطيبة ، والأسوة الحسنة ، فما ملك رقيقاً من فَىْء أو غنيمة إلا فك رقبته ، وتركه حرًّا لوجه الله . . !

« روى البخارى عن عمرو بن الحارث قال : « ما ترك النبيّ صلى الله عليه وسلم عند موته درهما ولا ديناراً ، ولا عبداً ولا أمةً ، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقة » .

ومع هذا أيضاً فما زال فى المجتمع الإسلامى رقيق ، وما زال كثير من الناس يملكون رقاب أعداد كثيرة منهم !

ونعود فنسأل مرة أخرى ؟ هل يترك الإسلام هؤلاء الأرقاء يلقَون مصيرهم المحتوم ، دون أن يقدم إليهم شيئاً يخفف ما بهم من وطأة هذا الداء العَياء ؟

لقد قدم الإسلام هنا ألواناً من البر والرحمة لهؤلاء الأرقاء ، الذين لم يخلصوا بعد من يد الاسترقاق.. فإنه إلى جانب الدعوة العامة التى حملها الإسلام للتراحم بين الناس؛ اختص الأرقاء بلفتات كريمة منه ، لفت إليها كل من كان فى يده رقيق !

يقول النبيّ الكريم وهو يحدّث أصحابه ، ويكشف لهم عن أشرار الناس ودرجاتهم فى المرتع الوبيل : « ألا أخبركم بشرٍّ من ذلكم ؟ قالوا : بلى ! قال : « من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رِفْده » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « إخوانكم خَوَلُكُم ، استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » .

ولا يقف الإسلام عند هذه الألوان من البرِّ والإحسان التى يجدها الرقيق فى

حياته المادية ، بل إنه يحمل إلى مشاعر الأرقاء ووجداناتهم ألواناً أخرى، يستروحون منها ريح الإنسانية ، وينسَوْن معها أنهم عبيد أرقاء .

يقول النبيّ صلوات الله وسلامه عليه : « لا يقولنّ أحدكم عبدى وأَمَتى .. كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله .. ولكن ليقل غلامى وجاريتى ، وفتاى وفتاتى »[1]

انظر كيف يؤدب الإسلام المجتمع الإنسانى وكيف يمسك بأدق الخيوط التى تتسرب فى النفوس من غير أن يلتفت إليها أحد ، أو يعمل لها حساباً ، على حين أنها تلد مواليد ضخمة خطيرة فى الحياة ، وتترك آثاراً واضحة عميقة فى كثير من جوانبها !

فالكلمة فى حساب كثير من الناس لا قيمة لها عندهم ، ولا حساب لها فى تقديرهم .. إنها لا أكثر من صوت ينطلق هنا أو هناك ، أشبه بخطوة الرِّجل ، أو حركة اليد .. ولكنها فى تقدير الإسلام — كما هى فى واقع الأمر — ذات شأن عظيم ، إذ أنها النطفة التى تتخلق منها المشاعر ، وتتشكل الصور ، وتبرز الأعمال !

ولهذا ، فإن القرآن الكريم — رعايةً لأثر الكلمة ، وتقديراً لقَدْرها — لم يُجْرِ لكلمة « عبد » ، « ورقيق » ذكراً فيه، على كثرة ما عرض لأحكام الأرقاء والعبيد، فى الملك والعتق ، والنكاح وغيرها .. بل استعاض عنها بكلمات: الموالى والإماء ، وما ملكت الأيمان ، والفتى ، والفتيات ..

قال تعالى : « وإذ قال موسى لفتاهُ لا أبرحُ حتى أبلغ مجمع البحرين ، أو أمْضِىَ حُقُباً »[2]

---

(١) مسلم : جزء ٢ ص ٤٦ .
(٢) سورة الكهف آية ٦٠

وقال سبحانه: «وقال نسوةٌ فى المدينة امرأة العزيز تُرَاود فتاها عن نفسه»[(١)]

وقال جل شأنه : «ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصَنات المؤمنات فمَّا ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، واللهُ أعلمُ بإيمانكُمْ بعضكم من بعضٍ فانكحوهنَّ بإذنِ أهلِهِنَّ ، وآتوهُنَّ أجُورَهُنَّ بالمعروفِ محصَنَاتٍ غيرَ مسافحاتٍ ، ولا متخذاتِ أخدانٍ »[(٢)]

وقال سبحانه : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً »[(٣)] . . وقال : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانُكُمْ فى الدِّينِ وموالِيكُمْ » ![(٤)]

مرة واحدة ذكر فيها القرآن الكريم كلمة العبد مقترنة بصفته الدالة على رِقِّه . . وذلك فى مقام العرض الإنسان فى أسوأ أحواله ، وأهونها ، حيث يقيم من هذا العرض مقايسة بين السيد الذى يملك ويقدر ، والعبد الذى لا يملك ولا يقدر على شىء ، وبين الخالق العظيم ، والمخلوق الضعيف العاجز . . « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكا لا يقدر على شىء،ومَنْ رَزَقناهُ مِنَّا رزقاً حسناً،فهو يُنْفِقُ منه سرًّا وجهراً.. هل يَسْتَوُون ؟ »[(٥)]

وواضح أن هذا العرض لا يدخل منه إلى مشاعر الإنسان شىء يَنْزِل به قَدْر العبد عنده ، بقدر ما يستشعر من استصغار لقدره هو إلى جانب قَدْر الله وعظمته !

شىء عظيم وكثير إذن ، هذا الذى صنعه الإسلام لتحرير الرقيق ، تحريراً

---

(١) سورة يوسف آيه ٣٠
(٢) سورة النساء آية ٢٥
(٣) سورة النور آية ٣٣
(٤) سورة الأحزاب آية ٥
(٥) سورة النحل آية ٧٥

منبعثاً من أعماق الإنسانية ، ونابعاً من وجدانها ، وصادراً عن إيمان يعمر القلب ، ويسكن الضمير . .

وإنه ليزيد من عظمة هذا الصنيع الذى صنعه الإسلام — إن كان فوق ذلك عظمة — أنه جاء فى وقت كانت فيه الإنسانية كلها ملففة فى ظلمات الجاهلية ، متخبطة فى أمواج متلاطمة من البغى والظلم ، بحيث لا عاصم لإنسان من إنسان إلا قوة مخالبه ، وحدَّة أنيابه ، وإلا فهو لقمة سائغة لمن هو أحدّ منه ناباً ، وأقوى مخلباً !

صفحة مشرقة من صفحات الإسلام . . يعمل أعداء الحق ، والإنسانية على طمسها ، وتضييع معالمها : « ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نورهُ ولو كره الكافرون » .

* * *

خاتمة

نحو حياة أفضل

— ١ —

يخطىء كثيراً أولئك الذين ينظرون إلى الدين نظرة فلسفية ، وينتظرون منه أن يحقق أحلام الفلاسفة ، فى إقامة مدن فاضلة على هذه الأرض !

إن الفلسفة ، والشعر ، والقصص ، وما إليها يمكن أن يشهد الناس فيها — أى فى كلماتها وصورها — تلك المدن الفاضلة ، التى يحيا فيها أهلها حياة سلامة، وأمن ، ورخاء ! إنها عوالم يمكن أن تقوم على الورق ، فى صور من الكلمات والعبارات ، يعيش معها الإنسان ، كما يعيش فى حلم من أحلامه .

ولكن الذى لم يقع ولن يقع هو أن تظهر هذه الأحلام فى واقع الحياة ، وأن يقوم مجتمع إنسانى — مهما صغر — على تلك الصفة التى يتمناها محبو الإنسانية للإنسان !

فمجتمع الأسرة — على صغره ، وعلى ما بين أفراده من صلات عاطفية طبيعية — هذا المجتمع لا يمكن أن يقيم أمره دائما على السلامة والعافية ، والاستقرار .. مهما سعى إلى هذا ، واجتهد فيه .

فإنه إن أمكن أن ينتظم شمل الأسرة لفترة من الزمن ، فإنه يكون من غير الممكن أن تظل هذه الحال ، دون أن يدخل عليها ما يغير من صورتها .. إن لم يكن ذلك من فعل أحد أفرادها ، كان من عمل الزمن وأحداثه .. وما أكثر هذا وأوفره !

وندع المتاعب المالية التى قد يتعرض لها هذا المجتمع — مجتمع الأسرة الصغير — فربما لا يعترف به أولئك الذين يرون أن شقاء المجتمع الإنسانى ناجم عن سوء توزيع الثروات ، وسوء استغلالها ، واستهلاكها ، وأن ما فى الأرض من ثروات يكفى لأن يعيش فيه الناس فى رخاء وأمن ، وسعادة ، إذا ضبطت ضبطاً محكماً ، ووزعت توزيعاً عادلا ، وهذا ممكن أن يكون تحت سلطان النظام والقانون !

ندع هذا ، ونضع فى يد الأسرة من المال ما فيه كفايتها ، وكفالتها من الحاجة ، والعوز ! ثم ندع هذه الأسرة تستقبل نصيبها من الأمراض الطارئة ، أو المستعصية ، ومن أمراض الشيخوخة ، ثم أخيراً الموت .. الذى يبدد شملها ، ويفرق جمعها ، ويملأ قلوب الأحياء منها حسرة وألماً !

فماذا تملك الأسرة الصغيرة إزاء هذه الضربات؟وبأية قوة تدفعها ؟ وبأى قدْر من المال الذى بين يديها تستطيع أن تدفع ضربات الزمان ؟

ثم نسأل :

أهذا المجتمع الصغير المحدود الذى يكاد يكون جسداً واحداً .. أهو سعيد ؟ أهو راض كل الرضا عن حياته فى نفسه ، وفيمن يرتبط به ؟

إنها تجربة اشترك ويشترك كل إنسان بدوره فيها .. تجربة فى بضعة أفراد ، ولبضع عشرات من السنين ..

فكيف يكون الحال فى مجتمع أمة ، أو مجموعة أمم ، أو الإنسانية كلها ، على امتداد المكان والزمان ؟

إن آفات كثيرة لا تحصر ولا تضبط ، تعيش فى صميم هذه المجتمعات بجميع مستوياتها ، وإنه لن يمكن لأية قوة على هذه الأرض أن تقضى على هذه الآفات، وأن تنقى المجتمع منها.. إنها قوى مسلطة على الإنسان،وموجهة إلى الهدم والتدمير.. هدم كل ما يبنى الإنسان ، وتدمير كل ما يعمر .. وبهذا الهدم والتدمير تتحرك

فى الناس — جماعات وأفراداً — نوازع العمل والبناء ، فيعيدون بناء ما هدم ، وتعمير ما دمر . . وهكذا دواليك . . بناء وهدم ، وإصلاح وإفساد ، وزرع وحصاد ، وحياة وموت . .

إنها سنة الحياة فى الأحياء . . ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فكيف يمكن أن يتحقق للمجتمعات الإنسانية أن تقوم على السلامة والأمن ، والسعادة ؟

إن خير المجتمعات ، وأقربها إلى الكمال ، تلك المجتمعات التى تقل فيها هذه الآفات ، أو تخف ضراوتها . . وبهذا يحصل الناس على قدر من الرضا ، وشىء من الأمن والسلامة ! أما الرضا على إطلاقه ، والسلامة على تمامها ؛ فلن تقع فى هذه الأرض لإنسان فرد ، ولو كان يملك الأرض وما عليها . !

— ٢ —

والإسلام . . نظام مجتمع ، وشريعة حياة ، ودستور عمل ! . . وقد جاء ليقيم المجتمع الإنسانى ، على ما ركب فيه من خير وشر . . دون أن يحمل معه معجزة تتحول بها الطبائع الإنسانية عن طبيعتها ، وتخرج بها عن فطرتها التى فطرها الله عليها . . وإنما جاء ليلتقى بالإنسان كما هو . . بخيره وشره ، بنوره وظلامه ، فى سمائه وأرضه . . !

وغاية ما يبتغيه الإسلام برسالته إلى الناس هو أن يقوّى جوانب الخير فى الناس ، وأن يكشف بعض ما يغمر حياتهم من ظلام ، وأن يوجه أبصارهم وقلوبهم إلى السماء ، على حين تظل أقدامهم ثابتة راسخة على الأرض !

ما جاء الإسلام أبداً ليقيم على هذه الأرض جنة يعيش فيها الناس ، بلا خطايا ولا خطّائين، ولا ليجعل منهم ملائكة يمشون فى الأرض، فلا يسمعون فيها لغواً

ولا تأثيما .. وإنما هو دواء تحمله الشريعة فى أحكامها وتعاليمها، لتحفظ على الإنسان إنسانيته ، ولتصحح من أخطائه ، ولتعيد إليه السلامة والعافية ، إذا هو اعتلّ ومرض .. وليس من طبيعة هذا الدواء أن يغير ويبدل من خَلْق الإنسان ، وما ركّب فيه من غرائز وطبائع ..

وإذن فالذين ينتظرون من الإسلام ، أن يحل مشكلات الحياة كلها ، وأن يقيم الناس فى رحابه فى جنة أرضية أشبه بالجنة الموعودة فى اليوم الآخر — إنما يكلفون الدِّين شططا ، ويحمّلونه فوق مايحتمل .. إذ ليس من وظيفة الدين — شأنه فى هذا شأن كل مذهب ، أو دعوة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية — ليس من وظيفته أن يبدل الأرض غير الأرض ، وأن يجعل ليلها نهاراً ، أو نهارها ليلا ، أو أن يجعل شتاءها ربيعاً ، أو ربيعها شتاء .. بل هى ليل ونهار ، وربيع وشتاء ، وصيف وخريف ، وماء ، ويابسة ، وبحار وأنهار . !

وإن الإسلام نظام إصلاحى ! غايته أن يحفظ على الإنسان وجوده الذى فطره الله عليه ، وأن يبقى على هذا الوجود فى أحسن وضع ممكن له ، فيصلح ما فسد من كيان الإنسان ، ويقيم ما اعوج منه ، ويشد ما انحلّ من قواه .. كل ذلك فى الحدود التى تحتملها طبائع الناس ، وتعطيها نزعاتهم ..

ولعله من الخير أن نذكر هنا المثل الذى ضربه الرسول الكريم لرسالة الإسلام التى جاء بها .. يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« مثل ما بعثنى به الله عزّ وجل من الهدى والعلم، كمثل الغيث أصاب أرضاً.. فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوْا ورعوْا ..وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ..

« فذلك مثل من فَقُه فى دين الله ، ونفعه بما بعثنى الله به .. فعَلِمَ وعلّم ..

« ومثلُ من لم يرفعْ بذلك رأساً ، ولم يقبل هُدى الله الذى أُرسلتُ به » .

إن الإسلام — وكل دعوة صالحة — أشبه بالماء الذى يلتقى بوجوه مختلفة من وجوه الأرض ، فيلقاه كل وجه بما عنده من قوى التفاعل معه ، أو الصدّ عنه . . ثم لا يملك الماء أن يغير من هذه الوجوه إلا بمقدار ما عندها من استعداد واستجابة . . !

هذا ، ولعلّ هذا الإحساس السلبى ، أو الفاتر الذى دخل على الناس فى أمر الدين هو نتيجة لازمة لهذا الفهم الخاطىء الذى فهمه الناس للدين ، ولهذا التقدير غير السليم لوظيفته . . إذ وقع فى فهم كثير من الناس ، وفى تقديرهم أن الدِّين هو الأمل المنتظر ، الذى يعلقون به آمالهم ، لحلّ مشكلاتهم ، وشفاء عللهم وأمراضهم ، والقضاء على كل ما ترميهم الحياة به من شرور وآلام . . ثم إذا هم جاءوا إلى الدين ، أو جاء إليهم الدين ، وصحبوا الحياة معه ثم وجدوا أنّ الحياة هى الحياة ، وأن وجهها لم يتغير هذا التغير الذى توقعوه ، وأن الإنسانية مازالت تتقلب فى آلامها وأوجاعها ، وأن الشرّ مازال باسطاً سلطانه على كثير من النفوس والمجتمعات . . عندئذ يسوء ظنهم بالدين ، وتخيب آمالهم من جهته . . وعندئذ يكون التجديف فى الدين ، والاستخفاف به !

ولو نظر هؤلاء المتهمون للدين ، والواقعون فيه — لو أنهم نظروا إلى الدين كعامل مساعد على تلطيف سُعار الحياة ، وتخفيف ويلاتها ، وتقليل شرورها ، لوجدوا الدين يؤدى فى هذا المجال مالا يمكن أن تبلغه دعوة من دعوات الإصلاح، أو ينشده دعاة الخير والسلام للناس . . وذلك مع أمن العاقبة ، ونجح المقصد ، دون أن تتعرض الجماعات الإنسانية للهزات والاضطرابات التى تصحب — غالباً — كل دعوة أو حركة إصلاحية تنبع من اجتهاد المصلحين ، وتوزن بميزانهم !

وإنه لضلال فى الرأى ، وفساد فى التدبير أن يعلم الناس أن السماء قد دبرت لهم تدبيراً ، وأقامت لهم مسالك وطرقاً ، ثم هم يعدلون عن ذلك إلى تدبير من تدبيرهم ، وإلى مسالك وطرق من مسالكهم وطرقهم ! ! وإنه لو كان لهذا السلوك منطق يقوم عليه لكان حتماً لازماً عليهم أن يستبدلوا بما أودع الخالق فيهم من جوارح وملكات، جوارحَ صناعية، وملكات صناعية، فيصنعون من صنع أيديهم عيوناً بدل عيونهم، وآذاناً بدل آذانهم، وأنوفاً بدل آنافهم ، وألسنة بدل ألسنتهم .. وهكذا.. فإن هذا من ذاك ، فكيف يكون لهذا حساب وتقدير ، ولذاك حساب غير هذا الحساب ، وتقدير غير هذا التقدير ؟

إن عنصر الزمن وحده هو الذى جعل من هذه الأمور المتجانسة فى تمامها وكمالها تبدو لأعين الناس مختلفة متباينة . .

فمسائل الدين ، وأحكامه وتوجيهاته لا تقع آثارها فى اللحظة التى يتصل الناس فيها بتلك الأحكام وهذه التوجيهات ، ومن هنا كانت الحجة التى تقوم على المجادلين والمعاندين حجة كلامية أكثر منها مادية . . على حين أن وضع عين صناعية مكان عين طبيعية ، أو لسان صناعى بدل لسان طبيعى ، تظهر آثاره فى الحال ، بل وتضع من يفعل هذا الفعل — لغير ضرورة ملجئة من الناحية الطبية — تضعه فى جماعة المجانين إن كان فى العقلاء ، وتنقله فوراً إلى عالم العُمْى والبُكم .

ولو أن للدين مثل هذا السلطان القاهر الحاضر لما كان للإنسان مع الدين اختيار . . ولكان الدين أشبه بجهاز قائم فى كيان كل إنسان ، ليس للإنسان معه رأى أو إرادة .

والدين دعوة سماوية موجهة إلى العقل الإنسانى ، وإلى عناصر الخير والحق فى

الإنسان . وما كان لمثل هذه الدعوة الـكريمة أن يساق إليها الناس سوق الأنعام، وأن يحملوا عليها حمل اضطرار وإلزام . .

إن الدين دعوة يمتحن فيها العقل الإنسانى ، ويُمحص به خيره وشره .. « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضل عليها . .[1] » « فذَكِّرْ إنما أنت مذكِّرٌ ، لست عليهم بمصيطر[2] » .

إن الدين خير كله . . والخير لا يُحمل عليه الإنسان حملا إلا إذا كان صغيراً ، أو معتوهاً أو مجنوناً . . أما الإنسان العاقل الرشيد فهو وما يختار له عقله . . وإلا فما فائدة هذا العقل ، وما مجال انتفاع الإنسان به ، إذا هو لم يتعرف إلى الخير ، ويمسك به ؟

ذلـكم هو الدين — دين الإسلام — فى مواجهة العقل ، يدعو إلى الحق والخير . . الحق الممكن ، والخير المستطاع ، فى غير ضغط ، ولا إكراه، ولا تمويه.. « فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها وما أنت عليهم بوكيل »[3]

« وقل الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى..آلله خير أم ما يشركون » !

* * *

---

(١) سورة الإسراء : آية ١٥
(٢) سورة الغاشية : آية ٢٣
(٣) سورة الأنعام : ١٠٤

موضوعات الكتاب

الباب الأول

الرسالة الخالدة

الباب الثانى

الإنسان ونظرة الإسلام إليه

الموضوع | الصفحة

الباب الثالث

الإسلام وقضاياه

الفصل الأول

الألوهيـــة

الفصل الثانى

العبـــادات

الفصل الثالث

المعامـــلات

مراجع البحث

نذكر هنا أهم المراجع التى كانت موضع النظر أثناء إعداد هذا البحث :

* * *

١ ــ كتب دينية

١ ــ تفسير القرطبى
٢ ــ تفسير الطبرى
٣ ــ تفسير الزمخشرى
٤ ــ صحيح البخارى
٥ ــ صحيح مسلم
٦ ــ سنن أبى داود
٧ ــ بلوغ المرام من أدلة الأحكام
٨ ــ إعجاز القرآن . . . . . . للمؤلف
٩ ــ التوراة
١٠ ــ الأناجيل الأربعة

٢ ــ كتب علمية

١١ ــ حضارة الإسلام . . . لجوستاف جرونيباوم
١٢ ــ الحرية فى مصر . . . لسلامة موسى
١٣ ــ العقيدة والشريعة فى الإسلام . . . لجولد تسيهر
١٤ ــ تجديد التفكير الدينى فى الإسلام .... لمحمد إقبال.. ترجمة عباس محمود
١٥ ــ وجهة الإسلام . . . للمستشرق جب ترجمة أبو ريده
١٦ ــ دراسات فى الأدب العربى لجوستاف جرونيباوم .



للمؤلف

١ — السياسة المالية فى الإسلام
٢ — القضاء والقدر : بين الفلسفة والدين
٣ — عمر بن الخطاب . . الوثيقة الخالدة للدين الخالد
٤ — الدعاء المستجاب
٥ — قضية الألوهية بين الفلسفة والدين : جزءان
٦ — إعجاز القرآن . . . جزءان
٧ — النبي محمد صلى الله عليه وسلم
٨ — الخلافة والامامة : ديانة وسياسة
٩ — محمد بن عبد الوهاب (الدعوة الوهابية)
١٠ — القصص القرآنى
١١ — فى طريق الإسلام
١٢ — من الحقل الإسلامى
١٣ — نشأة التصوف فى الإسلام
١٤ — الأدب الصوفى فى مفهوم جديد

: المسيح فى القرآن ، والتوراة والإنجيل